W I L L I A M R. P O L K

سياسة
POLITICS

المسار الكامل للتاريخ العراقيّ قديماً وحديثاً
منذ الاجتياح المغوليّ إلى العهد العثمانيّ
حتّى الانتداب البريطانيّ والاحتلال الأمريكيّ

وليام بولك

لكي نفهم العراق



تقديم: د. م. عبد الحيّ يحيى زلوم

لكي نفهم العراق

لكي نفهم العراق / سياسة
وليام بولك / مؤلف من أمريكا
الطبعة الأولى ، 2006



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص.ب :5460-11 ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : 751438 / 752308
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : 9157 ، هاتف 5605432 ، هاتفاكس : 5685501
E-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الإلكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
محمد سيف ®

الخطوط والغلاف : **زهير أبو شايب / الأردنّ**
الصفّ الضوئيّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر**
التنفيذ الطباعيّ : **المطابع المركزيّة / عمّان ، الأردنّ**

ISBN 9953-36-907-0

رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر : ٢٠٠٦/٧/٢٢٣٢
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية : ٢٠٠٦/٧/٢٠٧٧

POLITICS

وليام بولك

لكي نفهم العراق

المسار الكامل للتاريخ العراقي قديما وحديثا
منذ الاجتياح المغولي إلى العهد العثماني
حتى الانتداب البريطاني والاحتلال الأمريكي

تقديم: د. م. عبد الحي يحيى زلوم



الكاتب William R. Polk وليام آر بولك ليس كاتباً عادياً ، حيث درس في جامعة اكسفورد وهارفارد وحصل على الدكتوراه . وعمل أستاذاً في هارفارد بين ١٩٥٥ و١٩٦١ حين اختاره الرئيس كنيدي عضواً في مجلس تخطيط السياسة الأمريكية لوزارة الخارجية ، حيث كان مسؤولاً عن تخطيط السياسة الأمريكية لآسيا وافريقيا ، وكان عضواً في «لجنة إدارة أزمة الصواريخ الروسية في كوبا» . تعلم العربية والتركية في أكسفورد ، ودَرّس في جامعة بغداد والجامعة الأمريكية في القاهرة . ساعد في تنظيم «الدائرة المستديرة» التي وضعت مبادئ إنشاء الاتحاد الأوروبي . استدعاه البيت الأبيض سنة ١٩٦٧ ليعمل مستشاراً لرئيس مجلس الأمن القومي آنذاك مع ماك جورج بندي (McGeorge Bundy) أثناء حرب الأيام الستة ، ثم عمل أستاذاً للتاريخ بجامعة شيكاغو ، وأسس هناك «مركز الدراسات الشرق أوسطية» . وكما سيتضح للقارئ فإنه يعرف أدق التفاصيل عن العراق ، موضوع كتابنا هذا ، وله حوالي عشرة كتب أخرى .

وجدت من المفيد أن أضع هذا الكتاب بين يدي القارئ العربي لما يحتويه على معلومات مهمة من عالم تاريخ مارس السياسة وعرف بواطن أمورها على أعلى مستوياتها . اتصلت مباشرة مع السيد وليام بولك وأعلمته بأني قرأت كتابه هذا ، وعرّفته أنني مستشار لشؤون البترول أساساً ، وأكتب أحياناً حيث كتبت كتباً بالعربية والإنجليزية والألمانية ، وأنني أيضاً من خريجي جامعات الولايات المتحدة في الهندسة والإدارة والإدارة العُليا ، بما في ذلك كلية الدراسات العليا للإدارة من جامعة هارفارد ، وأني أجد من المفيد ترجمة كتابه هذا إلى العربية . أجابني : لقد سرني اقتراحك وأوافق على ترجمتك لكتابي ، وأرجو إعلامي أين أستطيع شراء كتبك . فأرسلت إليه آخر كتابين أصدرتهما وهما «امبراطورية الشر الجديدة» و«حروب البترول الصليبية» ثم أرسل لي تفويضاً بنشر الكتاب بالعربية ، آملاً أن يكون علماً يُنتفع به . ولقد عَهدت للأستاذ الدكتور حازم طالب مشتاق بترجمة الكتاب إلى العربية . والدكتور حازم تخرج من الجامعة الأمريكية في بيروت ، ونال شهادة الدكتوراة من جامعة أكسفورد سنة ١٩٦٠ . كما عمل أستاذاً في الجامعة الأردنية وجامعة بغداد ، وأستاذاً زائراً بجامعة كاليفورنيا ، وعايش وشارك في أحداث «العراق الثوري» ، حيث عمل مستشاراً إعلامياً بسفارة العراق في لندن ، ورئيساً لتحرير جريدة الثورة في بغداد .

د . م . عبد الحي يحيى زلوم

المقدمـة
احتلال العراق
إحدى حروب البترول الأمريكية

كتبها : د . م . عبد الحي يحيى زلوم
مستشار لشؤون البترول
ومؤلف «نذر العولمة» ، «إمبراطورية الشر الجديدة» ،
و«حروب البترول الصليبية» .

نود أن ننوه بأن هذه المقدمة تُعبر فقط عن رأي كاتبها ، د . م . عبد الحي يحيى زلوم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدكتور وليام آر بولك . كما أن ما جاء في الكتاب يعبر عن رأي د . وليام بولك فقط ولا يعبر بالضرورة عن رأي د . م . عبد الحي يحيى زلوم .

يبدو أن الإدارة الأمريكية برئاسة جورج دبليو بوش تعني دائماً ما تقول ؛ فالرئيس بوش يقول إنه يسعى إلى نشر الحرية في جميع أنحاء المعمورة ، فهو حتماً لا يعني نشر الحرية للشعوب والأفراد ، وإنما الحرية للشركات عابرة القارات في الوصول إلى أي سوق أو مصدر طبيعي تبتغيه دونما عوائق . فالذي جعل من معاقل سجون الاتحاد السوفيتي السابقة سيئة الذكر ، ومن القواعد العسكرية الأمريكية كما في غوانتنامو مراكز اعتقال لوكالة المخابرات المركزية CIA دونما أي اتهام أو محاكمة ، لا يمكن أن يكون في باله نشر الحريات الشخصية أو الفكرية . وهو عندما يقول بأن الأمور في العراق تتقدم بشكل جيد ، على الرغم من مقتل أكثر من ٢٥٠٠ جندي أمريكي وجرح حوالي ٢٠,٠٠٠ آخرين حتى تاريخ كتابه هذه السطور ، وتدمير البنية التحتية والاقتصاد والأمن السياسي في العراق ، فهو على ما يبدو صادق أيضاً . فالتقدم المهم بالنسبة له هو زيادة أرباح التجمع الصناعي العسكري الأمريكي ، الذي رشحه للرئاسة ، والذي يقدم البرامج للحكومات ، وينتدب أعضاءً من تجمعه للقيام بتنفيذها داخل الإدارات الأمريكية وخارجها .

زادت إيرادات شركة هاليبرتون (Halliburton) بعد سنة من الغزو الأمريكي

للعــراق (أي مــا بين الربع الأول لسـنة ٢٠٠٣ ، والربع الأول لـسنة ٢٠٠٤) بـ ٨٠٪ حسب ما ورد في جريدة الفاينانشال تايمز . أما شركة بكتل (Bechtel) والتي عهد إليها الكثير من مشاريع إعادة إعمار العراق ؛ فزادت إيراداتها في الفترة نفسها بـ ١٥٨٪ . أما شركة شيفرون تكسكسو للبترول (Chevron Texaco) والتي عهد إليها بيع إنتاج العراق من البترول ، فزادت أرباحها بـ ٩٠٪ خلال النصف الأول لسنة ٢٠٠٤ مقارنة مع الفترة نفسها لسنة ٢٠٠٣ . أما أكبر شركات السلاح في الولايات المتحدة (Lockheed Martin) فلقد تضاعفت أسعار أسهمها ثلاث مرات ما بين سنة ٢٠٠٠ وسنة ٢٠٠٤ . ولكن ما شأن هذه الشركات واحتلال العراق؟

شكل روبرت جاكسون Robert Jackson ، وهو ما زال على رأس عمله في شركة تصنيع الأسلحة لوكهيدمارتن في سنة ٢٠٠٢ ، ما يُسمى بـ «لجنة تحرير العراق» Committee For The Liberation Of Iraq ، والتي كانت تدعو إلى تغيير النظام في العراق . وكان جاكسون هو الذي كتب برنامج عمل الحزب الجمهوري في سنة ٢٠٠٠ . أما رئيس هذه اللجنة لتحرير العراق فكان السيد جورج شولتز (George Shultz) الرئيس التنفيذي لشركة بكتل ووزير الخارجية الأسبق للولايات المتحدة . أما شركة هاليبرتون فلقد قدمت رئيس مجلس إدارتها السيد ديك تشيني (Dick Cheney) ليكون نائباً لرئيس الولايات المتحدة ، وهو الداعية الذي كان لا يمل ولا يكل لاحتلال العراق . كانت عقود هاليبرتون وبكتل في العراق قد تم الاتفاق عليها مع الإدارة الأمريكية دون مناقصات وقبل الغزو الأمريكي للعراق بشهور . أما شركة شيفرون ، فالآنسة الفاضلة كونداليزا رايس أتت من مجلس إدارتها ، فعهد إليها بيع نفط العراق! . ولقد دشنت شركة شيفرون ناقلة للنفط عملاقة حملت اسم كونداليزا رايس . بعد خروجها من الخدمة في مجلس الأمن القومي الأمريكي في إدارة بوش الأب ، وفي فترة التسعينات من القرن العشرين ، عهدت شركة شيفرون إلى الآنسة كونداليزارايس بالمفاوضات مع دول نفط أواسط آسيا عموماً ، وكازاغستان خصوصاً بوصفها خبيرة بأمور دول منظومة الاتحاد السوفيتي السابق . ناهيك عن أن الرئيس جورج دبليو بوش كان حاكم إحدى أكبر الولايات الأمريكية المنتجة للنفط ، وهو ، أباً عن جد ابن النفط ، يمتلك إحدى شركاته . وهكذا جاء القابضون على السلطة من وراء ستار في الولايات المتحدة بفريق متكامل رائحته النفط لافتراس العراق ونفطه ، ولإعادة رسم خريطة النفط العالمية .

المتأمرك زلماي خليل زاد، الأفغاني المولد والمندوب السامي الأمريكي في العراق ساعة كتابة هذه المقدمة، وكذلك السيد حميد قرضاي عملا مستشارين مدفوعي الأجر لشركة يونيكال UNOCAL Oil Corp، والتي اشترتها شركة شيفرون لاحقاً، وذلك من أجل تمرير صفقة بناء خط لنقل الغاز الطبيعي طوله ٨٩٠ ميلاً عبر أفغانستان. كذلك فلقد عمل زلماي خليل زاد مستشاراً لإسرائيل مع زمرة أخرى من المحافظين الجدد.

كانت الإدارات الأمريكية إبان الحرب الباردة وحتى العقد الأخير من القرن العشرين، تكتفي بتنفيذ أجنداتها عبر حكام محليين ومن وراء ستار، مستخدمة منظوماتها السرية، والعصا والجزرة حيناً وليّ الأذرع أحياناً أخرى، وتبديل هؤلاء الوكلاء الحكام كلما حادوا عن طريق واشنطن وأجندتها لهم. لكن قوى النخبة الأمريكية، المتمثلة في التجمع العسكري الصناعي وحكماء سوق المال «وول ستريت»، الذين يخططون ويضعون الأجندات ويمولون وينصبون الإدارات في الولايات المتحدة، هذه القوى رأت أن قرناً جديداً قد جاء، أسموه بالقرن الأمريكي الجديد، وأصبحت استعمالات القوة العسكرية، والحروب الاستباقية، واحتلال الدول ومصادرها الطبيعية مباشرة دون وسطاء الوكلاء أو العملاء، سياسة رسمية تم إعلانها جهاراً ونهاراً في «مبدأ بوش» Bush Doctrine أو ما أُسمي أيضاً «استراتيجية الأمن القومي للولايات المتحدة» National Security Strategy of The United States of America، والذي جعل مبادئ القوة والحروب الاستباقية ومع «ليس معنا فهو ضدنا»، سياسة رسمية للولايات المتحدة الأمريكية، كما أعلن في سبتمبر ٢٠٠٢.

من المثير فعلا أن تكون أولى حروب النفط في القرن العشرين قد دارت على أرض العراق، فمن أجل حماية شركة النفط الانجليزية الفارسية ومصفاة عبادان، أرسلت الامبراطورية البريطانية، في بداية الحرب العالمية الأولى، بالجيش الهندي إلى المنطقة للاستيلاء على البصرة والعراق في الحملة التي عرفت بـ (حملة بلاد ما بين النهرين)، التي دامت أربع سنوات. وطبقا لما أورده المؤلف انطوني كيف براون «Antony Cave Brown» في كتابه: «النفط... الله... والذهب»، فإن قوات الاستعمار البريطاني فقدت ٢٥٢ ألف جندي بين قتيل وأسير ومصاب في واحدة من أسوأ الصراعات، الأمر الذي يعكس مدى الأهمية التي كانت توليها بريطانيا للخليج وثروته النفطية».

كما أن المثير فعلا ، أن تكون آخر الحملات النفطية التي تشنها الامبراطورية الأمريكية الجديدة في أوائل القرن الحادي والعشرين موجهة ضد العراق وعلى أرضه .

وكانت السلطات الأمريكية قد أعدت خططا مفصلة للاستيلاء على النفط العربي في أوائل السبعينات ، سواء من خلال الشركات النفطية أو بالتدخل العسكري المباشر ، بل إن الحديث عن هذا الأمر يعود إلى قبل ذلك بكثير ، ففي الحرب العالمية الثانية ، كتبت قيادة الأسطول الأمريكي مذكرة مرفوعة للرئيس روزفلت ، تتضمن اقتراحا بالاستيلاء على حقول نفط أرامكو في السعودية ، باعتبار أن الحصول على احتياطات نفطية خارج الأراضي الأمريكية أصبح من المصالح الحيوية للولايات المتحدة . وقبل ذلك في الحرب العالمية الأولى ، حصلت البحرية البريطانية على الجزء الأكبر من ملكية الشركة الانجليزية الفارسية للنفط ، والتي أعيد تسميتها لتصبح بريتش بتروليوم (BP) ، وقامت بتعيين ضباط في البحرية ضمن مجلس إدارة الشركة . وفي ٣٠ يونيو ١٩٤٣ ، صادق الرئيس الأمريكي على إقامة مؤسسة الاحتياطات البترولية ، التي ستتملك كامل امتيازات «ارامكو» في السعودية ، وتم تعيين وزير الداخلية هارولد آيكس (Harold Ickes) على رأس الشركة ، ووزراء الحرب والأسطول والخارجية أعضاء في مجلس إدارة الشركة ، حيث تم عقد أول اجتماع بتاريخ ٩ اغسطس ١٩٤٣ بحضور نائب وزير الحرب جون مكلويJohn Mcloy . وبتاريخ ٨ أبريل ٢٠٠٣ أي قبل بضعة أيام من الغزو الأمريكي واحتلال العراق ، نشرت الواشنطن بوست مقالا مثيرا للكاتب جون مكسالين John Mccaslin تحت عنوان «خطة كيسنجر» جاء فية القول «لو سألت النائب جون كونيارز John Conyers عن قراءته في هذه الأوقات المقلقة ، فسيخرج لك نسخة من مجلة «مذر جونز» Mother Jones . الواقع أن ما أثار اهتمام النائب الديمقراطي عن ولاية ميشيغان في المجلة ، مقالة حديثة عن التحركات الأمريكية الخاصة بإقامة وجود أمريكي دائم في الشرق الاوسط ، لدرجة أن النائب حرص على اصطحاب المجلة معه إلى قاعة المجلس . فالنائب كونيارز يعتقد بأن النفط هذا ، الذي يحرك القوة العسكرية ويدعم الميزانيات القومية ، ويثير السياسات الدولية ، لم يعد مجرد سلعة تباع وتشترى ضمن حدود موازين العرض والطلب في السوق التقليدية للطاقة ، بل تحول إلى عامل حسم في قضايا الأمن القومي والقوة العالمية» .

ومن أبرز ما جاء في مقالة للكاتب روبرت دريفوس «Robert Dreyfuss» في

المجلة القول : «إن المفتاح الرئيسي للأمن القومي في التصور السياسي وراء السياسة الأمريكية الحالية تجاه العراق ، يكمن في الهيمنة العالمية والسيطرة على جميع المنافسين المحتملين . وفي سبيل تحقيق ذلك ، فإنه لا يكفي أن تكون الولايات المتحدة قادرة على نشر قوتها العسكرية في كل مكان وفي أي زمان فحسب ، بل إن عليها السيطرة على المصادر الرئيسية ، ومنها النفط ونفط الخليج بوجه خاص» .

وينقل المقال عن السفير الأمريكي في السعودية في عهد الرئيس بوش الأب ، شاز فريمان «Chas Freeman» القول«بأن الإدارة الجديدة تعتقد بأن السيطرة على المصادر هو وحده الذي يضمن القدرة على الوصول إليها» .

وفي ظل تراجع الإنتاج النفطي في ألاسكا والمحيطات ، فإن الإدارة الأمريكية «ترى في نفط العراق مصدراً متاحاً ورخيصاً ، حيث لا يكلف إنتاج برميل واحد أكثر من ١,٥ دولاراً ، الأمر الذي يجعل النفط العراقي الأرخص إنتاجا على المستوى العالمي» ، إنها خطة كيسنجر القديمة كما يرى السفير الأمريكي السابق لدى السعودية جايمس اكينز ، الذي خدم في عهد كيسنجر . ويضيف اكينز «اعتقدت أن الخطة ماتت ، إلا أنها أعيدت إلى الحياة كما هو واضح» ، ويقول اكينز إنه في أعقاب الصدمات النفطية في السبعينات ، تسربت للصحف الأمريكية أنباء عن وجود خطط أمريكية للاستيلاء على حقول النفط العربية ، «بعدها أقدمت على خطأ جسيم ، فقد قلت في مقابلة تلفزيونية بأن أي أحد يجرؤ على اقتراح مثل هذا الأمر سيكون إما شخصاً مجنوناً أو مجرماً أو عميلاً للاتحاد السوفياتي» ، بعدها تبين للسيد اكينز أن الشخص المجنون أو المجرم هذا لم يكن سوى رئيسه الوزير كيسنجر ، الذي قيل بأنه عرض مقترحه لاحتلال منابع النفط العربية خلال اجتماع رئيسي ضم كبار أركان الإدارة الأمريكية . وبعد تصريحات اكينز المثيرة بوقت قصير ، قام كيسنجر بطرد السفير اكينز من الخدمة .

لعب هنري كيسنجر دوراً رئيسيا في الترتيب لحرب أكتوبر ١٩٧٣ ، لأهداف اقتصادية وسياسية أمريكية ، كان أحدها رفع الأسعار إلى ٤٠٠ ٪ ، فقد تم الإعداد للحرب في سلسلة من الاجتماعات التي ضمت هنري كيسنجر ، وأنور السادات الذي أرسل مبعوثه الخاص حافظ إسماعيل للالتقاء سرا بالوزير الأمريكي مرات عدة . كانت خطة كيسنجر تقضي بترتيب إشعال حرب محدودة بين إسرائيل وكل من مصر وسوريا ؛ لتمهيد الطريق أمام صلح منفرد بين إسرائيل ومصر ، والتسبب

برفع أسعار النفط ، وهما هدفان يصبان في صالح السياسة الأمريكية في المقام الأول .

فعندما أقدم السادات على طرد المستشارين الروس من مصر ، طلب وزير الدفاع ميلفن ليارد «Melvin Liard» من الرئيس نيكسون المباشرة بمفاوضات سرية مع السادات ، وهو لا يعلم بأن مثل هذه القنوات مفتوحة مع مصر منذ بعض الوقت . وللإعداد للحرب والجولات المكوكية التي أعقبتها ، تم عقد اجتماعات مكثفة بين كيسنجر والمبعوثين المصريين . وفي زيارته للولايات المتحدة في فبراير ١٩٧٣ ، رتب كيسنجر لمبعوث السادات حافظ إسماعيل جدول زيارة تقليديًا في الظاهر ، يشتمل على لقاء مع الرئيس نيكسون أولا ، ومن ثم عقد مشاورات روتينية مع كبار مسؤولي وزارة الخارجية . أما جدول الزيارة الفعلي ، الذي لم يطلع عليه أحد في الخارجية ، فكان يتركز على عقد اجتماعات سرية مع كيسنجر لمدة يومين في منزل خاص أُعد لهذا الغرض في إحدى ضواحي نيويورك ، وفي ذلك يقول كيسنجر مستذكرا «لم أشارك أياً من المسؤولين في وزارة الخارجية في اجتماعات مبعوث السادات . وفي الوقت ذاته ، فإن وزارة الخارجية لم تكن على علم بأي من الاجتماعات السرية التي عقدتها مع إسماعيل على مدار يومين ، لاستعراض شامل للعلاقات المصرية الأمريكية» ، وقبل وصول إسماعيل إلى واشنطن ، كتب نيكسون إلى كيسنجر يقول «لقد حان الوقت للتوقف عن رعاية المواقف الإسرائيلية المتصلبة ، فقد أدت مواقفنا السابقة إلى ترسيخ انطباع لديهم بأننا سنقف إلى جانبهم حتى في ممارساتهم اللامنطقية» .

جاءت خطة كيسنجر على عكس موقف الرئيس نيكسون وتوصياته ، ومؤيدة لخط إسرائيل في قرارها بتاريخ ١٩ يونيو ١٩٦٧ ، الذي ينص على إمكانية الدخول في مفاوضات مع المصريين والسوريين ولكن ليس حول الضفة الغربية وغزة . كان كيسنجر يخطط لإهمال الأردن واستبعاده من مفاوضات الخطوة خطوة ، بل وطلب من السادات والزعماء العرب الآخرين من «أصدقاء» الولايات المتحدة بضرورة إبعاد الأردن عن موضوع الضفة الغربية ، وهو ما تحقق في القمة العربية المنعقدة في الرباط بعد ذلك .

بتاريخ ٦ مارس ١٩٧٣ تم إطلاع السعوديين على ما يجري في قناة مباحثات إسماعيل كيسنجر السرية . كانت السعودية هي أكبر منتج للنفط ، وسيكون لها دور رئيسي في عملية حظر النفط العربي عن الغرب وللزيادة المتوقعة في أسعاره ، وفي

الوقت نفسه ، حصل تطور آخر في الانخفاض الكبير الذي طرأ على سعر الدولار بنسبة ٤٠ ٪ مقابل المارك الألماني خلال شهري فبراير ومارس ١٩٧٣ ، وأصبح النظام المالي العالمي يعيش حالة من التقلب المتزايد .

في مارس ١٩٧٣ ، زارت غولداماير Golda Meir ، رئيسة وزراء إسرائيل ، الولايات المتحدة ، حيث رفضت ، وكما هو متوقع منها ، أفكار نيكسون والخضوع لأي ضغوط لتغيير موقف إسرائيل المتعنت . وأبلغت غولداماير نيكسون بأن العرب لا يملكون أي خيار عسكري ، وبأن الوضع بالنسبة لإسرائيل لم يكن أفضل مما هو عليه الآن .

بتاريخ ١١ أبريل ١٩٧٣ تم عقد الاجتماع الثاني بين كيسنجر وإسماعيل ، وكانت الاستعدادات الحربية قد بدأت بعد اجتماعهما الأول ، حيث تم تحريك قوات من دول عربية حليفة لأمريكا إلى الجبهتين المصرية والسورية ، بعلم وموافقة ضمنية من واشنطن . وفي هذا الصدد ، تم تحريك طائرات سعودية إلى مصر ، ووحدات مغربية إلى سوريا . وهكذا وفي ٢٠ أبريل ١٩٧٣ ، صدر عن السي . آي . إيه تقرير سري يؤكد بأن عملاً عسكرياً يلوح في الأفق ، وإن كانت ساعة الصفر لم تحدد بعد .

بعدها بأيام تم عقد اجتماع للجنة بيلدبيرغ لوضع التفاصيل السياسية الدقيقة ، وتوزيع المهام على المشتركين في تنفيذ الخطة الخفية للمنظمة . وفي أقرب ما يكون إلى سيناريو أحد أفلام هوليوود الناجحة ، عملت واشنطن ولندن على ترتيب حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣ بين مصر وسوريا من جهة ، وإسرائيل من جانب آخر ، لعب كيسنجر فيها دور المخرج والممثل ، كما شارك في كتابة النص الذي تولته في الأساس لجنة بيلدبيرغ .

في مايو ١٩٧٣ ، عقد ٨٤ من كبار رموز السياسة والمال في الغرب اجتماعا لهم في فيلا عائلة والنبيرغ Wallenburg المالية اليهودية المتنفذة في السويد ، والواقعة في جزيرة سولتجوبيدر Saltsjoeboder ، وكان من بين الحضور هنري كيسنجر وعدد من كبار مدراء الشركات النفطية والمصارف والمؤسسات المالية العالمية . كان الموضوع الرئيسي قيد البحث هو الاستعداد (وليس منع) الزيادة المتوقع تسجيلها في أسعار النفط في المستقبل القريب . استمع الحضور إلى عرض من والتر ليفي Walter Levy حول هذا الموضوع ، وكان السؤال الذي يحاول المشاركون الإجابة عنه هو كيفية إدارة عملية «إعادة تدوير تدفقات الدولارات النفطية» إلى البنوك الأمريكية والبريطانية ، على حد تعبير هنري كيسنجر . كان من بين أبرز المشاركين في الاجتماع :

* من الولايات المتحدة : جايمس اكنز James Akins (البيت الأبيض) ، روبرت اندرسون Robert O. Anderson (رئيس مجلس إدارة شركة اتلانتيك رشيفيلد النفطية) ، جورج بول George Ball (نائب وزير الخارجية الأسبق ، ومدير دار ليهمان برذرز Lehman Bros المصرفية) ، زبيغنيو برزنسكي (مستشار الأمن القومي لاحقا) ، وليام بندي William P. Bundy (عضو مجلس العلاقات الخارجية ، نيويورك) ، اي . جي . كولادو E.G. Collado (نائب رئيس شركة اكسون النفطية) ، آرثر دين Arthur Dean (شريك قانوني لدار سوليفان آند كرومويل Sullivan and Cromwell) ، هنري . جي . هينز Henry J. Heinz II (رئيس مجلس إدارة شركة هينز Heinz) ، هنري كيسنجر (مستشار الأمن القومي للبيت الأبيض) ، وولتر ليفي Walter J. Levy (مستشار نفطي ومعد ورقة بيلدبيرغ) ، روبرت ميرفي Robert D. Murphy (من كبار موظفي وزارة الخارجية سابقا) ، جون تاور John G. Tower (سيناتور) ، وكارول ويلسون Carroll Wilson (أستاذة في جامعة ام . آي . تي) .
* من بريطانيا العظمى : سير إيريك دريبيك Sir Eric Drake (رئيس مجلس إدارة بريتش بتروليوم British Petroleum) ، سير دينيس غدينهيل Sir Denis Greenhill (مدير شركة بريتش بتروليوم British Petroleum) ، دينيس هيلي Denis Healey (عضو برلمان) ، سير إيريك رول Sir Eric Roll (نائب رئيس شركة ووربيرغ Warburg وشركاه) ، وسير ريجنالد مالدينغ Sir Reginald Maulding (عضو برلمان) .
* من فرنسا : رينيه غداينير دو ليلياك Rene Granier de Lilliac (شركة البترول الفرنسية) ، البارون ادموند دي روتشيلد Baron Edmond de Rothschild (مصرفي) .
* من المانيا : ايغون باهر Egon Bahr (وزير وزارة الحزب الاشتراكي الديمقراطي) ، هيلموت شميدت Helmut Schmidt (وزير المالية ،الحزب الاشتراكي الديمقراطي) ، بريجيت برويل Birgit Breuel (مجلس مدينة هامبورغ ، الحزب الديمقراطي المسيحي) ، ثيو سومر Theo Sommer (ناشر صحيفة دي زيت Die Zeit) ، اوتو وولف فون اميرنوجن Otto Wolff von Amerongen (غرف التجارة الألمانية) .

* من ايطاليا : جيفاني اغنيللي Givanni Agnelli (شركة فيات FIAT) ، المركيز سيتاديني سيزي ورافائيل جيتروتي Merchese Cittadini Cesi, Raffaele Gitrotti (رئيس مجلس إدارة شركة ENI) ، وراييغو ليفي Arrigo Levi (من جريدة لاستمبا La Stampa) .
* من السويد : أولوف بالمه Olof Palme (رئيس الوزراء) ، ماركوس والنبيرغ Marcus Wallenberg (رئيس مجلس إدارة سي ـ بانكين) ، كريستر ويكمان Krister Wickman (حاكم البنك المركزي) .
* من هولندا : اف .جي . فيليبس F.J. Philips (رئيس مجلس إدارة شركة فيليبس Philips) ، غيريت أ . واجنر Gerrit A. Wagner ، وماكس كوهنستامن Max Kohnstamm . (رئيس مجلس إدارة شركة رويال دتش شل Royal Dutch Shell) .

يلاحظ هنا وجود كبار القائمين على الشركات النفطية الأمريكية والأوروبية ، ورجال المال والمصارف ، وهنري كيسنجر ممثلا للبيت الأبيض ، وخبراء الطاقة ومسؤولين سياسيين وحزبيين أوروبيين ، ويكفي القول بأن عائلة والينبيرغ السويدية المصرفية ، التي استضافت الاجتماع في فيلتها ، تملك القرار والحصص في مؤسسات مالية وتجارية تجاوز حجم مبيعاتها السنوية عام ١٩٩٧ ، ١١٢ مليار دولار ، وهو رقم لا يتجاوز الناتج القومي الإجمالي لأكبر دولة مصدرة للنفط في تلك السنة فحسب ، بل يزيد على إجمالي المبيعات النفطية لسائر الدول الأعضاء في منظمة أوبك في العام المذكور .

وكانت الاستعدادات لاجتماع لجنة بيلدبيرغ في مايو ١٩٧٣ قد بدأت قبل ذلك بعدة أشهر . ففي يناير ١٩٧٣ تم تعيين جورج شولتز George Shultz مساعدا للرئيس نيكسون للشؤون الاقتصادية ، بالإضافة لمنصبه كوزير للخزانة . يذكر أن شولتز كان أحد الذين شاركوا في إلغاء نظام سعر صرف الدولار الذهبي الثابت طبقا لاتفاقيات بريتون وودز ، كما تم تعيين تاجر سندات سابق في الوول ستريت على رأس لجنة سياسة النفط المهمة مع الاحتفاظ بمنصبة كنائب لوزير الخزانة . وشهد الشهر التالي تشكيل لجنة البيت الأبيض الخاصة بشؤون الطاقة ، والتي ضمت هنري كيسنجر ، وجورج شولتز George Shultz ، وجون ايهرليخمان John Ehrlichman ، وقد لعبت

هذه اللجنة دوراً كبيراً في التحضير لاجتماع لجنة بيلدبيرغ في مايو ١٩٧٣ .

اما سيناريو الحرب والدبلوماسية المكوكية التي ستليها ، فقد كان من مسؤولية كيسنجر . وفي حين كان الاعتقاد السائد في وزارة الخارجية بأن على إسرائيل الانسحاب إلى حدود ١٩٦٧ طبقا لخطة روجرز ، فإن كيسنجر كان يفكر بصورة مختلفة . وفي ذلك كتب كيسنجر يقول في كتابه المعنون «سنوات الجيشان» ، كانت نقطة البدايه بالنسبة لي من الطيف العاطفي . . . فمع أنني لست باليهودي الملتزم ، إلا أنني لم أستطع أن أنسى حقيقة أن ١٣ من أفراد عائلتي ماتوا في معسكرات الاعتقال النازية . ولهذا لا أحتمل التفكير بتشجيع حصول محرقة أخرى من خلال سياسات حسنة النوايا يمكن أن تخرج عن نطاق السيطرة» ، كما أن أجندة كيسنجر كانت تختلف عن الرئيس نيكسون ، حيث يقول في كتابه «كان نيكسون يؤمن بالكثير من الأفكار العنصرية المتجذرة في أبناء الطبقة المتوسطة في كاليفورنيا التي ينتمي إليها ، فقد كان يرى بأن اليهود يشكلون جماعة متنفذة مترابطة في المجتمع الأمريكي . . . وبأن هيمنتهم على الإعلام تجعل منهم خصوماً خطيرين . وفوق ذلك ، كان نيكسون يعتقد بأنه يجب إجبار إسرائيل على القبول بتسوية سلمية ، وبأنه لا يسمح لها بتعريض علاقاتنا العربية للخطر» ، ومع أن خطة كيسنجر كانت تختلف عن تفكير الرئيس وعن تصورات وزارة الخارجية ، إلا أنه مع ذلك مضى في تنفيذها ، فكان أن فتح قنوات تفاوضية سرية مع الرئيس المصري أنور السادات ، دون علم وزارتي الخارجية والدفاع ولا السفارة الأمريكية في القاهرة . كان كيسنجر ينظر إلى كبار موظفي الخارجية باعتبارهم مؤيدين للعرب ، وهي نظرة إسرائيل نفسها إليهم . كان كل من هو على خلاف بالرأي مع إسرائيل أو اللوبي اليهودي يُعد حليفا للعرب ، وبالتالي يجب تجنبه .

كان نيكسون وقتها يعاني من فضيحة ووترغيت Watergate ، التي فجرتها الصحافة ، التي قال الرئيس الأمريكي بأنها تحت سيطرة اليهود . وقد تفاعلت القضية بفعل معلومات حصل عليها أحد الصحفيين المطلعين ، واستخدم خلالها تكتيكات أقرب إلى عمل أجهزة الاستخبارات . وفي ظل الوضع الصعب للرئيس ، كان كيسنجر في الواقع يتصرف كرئيس فعلي للولايات المتحدة . ومع أنه تجاوز وزارة الخارجية تماماً في محادثاته السرية ، إلاّ أنه كان بحاجة إلى الهيمنة الكاملة على الوزارة لإنجاح خطته القادمة التي ستعقب حرب أكتوبر المخطط لها ، وهي دبلوماسية

الخطوة - خطوة . وفي سبيل ذلك ، تولى كيسنجر حقيبة الخارجية قبل حرب أكتوبر بأسابيع قليلة ؛ ليصبح صاحب الكلمة الفصل في سياسة الولايات المتحدة الخارجية ، خاصة في ظل تعاظم الفضيحة التي كانت تحيط بالرئيس نيكسون ، وبشكل جعلته أقرب إلى الرئيس العاجز .

تحققت النتيجة الرئيسية بالنسبة لمخططيها ، وهي رفع أسعار النفط بنسبة ٤٠٠٪ ، وطبقاً لما تم الاتفاق عليه في اجتماع مجموعة بيلدبيرغ في مايو ١٩٧٣ ، أي قبل اندلاع الحرب بخمسة أشهر . ومثل هذا الارتفاع الفلكي في سعر النفط أمر لم يكن بالإمكان السماح بحدوثه لولا رغبة الولايات المتحدة ومصلحتها في المقام الأول . وطبقاً لدراسة أعدها البروفسور جورج . سي . لودج George C. Lodge ، وتشكل جزءاً من المنهج الذي يدرس لطلبة الماجستير في مساق شؤون النفط الدولي بكلية إدارة الأعمال بجامعة هارفارد ، فإن ضمان الإمدادات النفطية للغرب ليس وحده الذي يشكل أحد مطالب الأمن القومي فيما يتعلق بموضوع النفط ، بل هناك سعر النفط أيضاً . وفي أواخر السبعينات ، تم تشكيل قيادة خاصة للتدخل في دول الخليج المنتجة للنفط ، كما جاءت عقيدة كارتر لعام ١٩٨٠ لتنص على أن نفط الخليج يشكل أهمية استراتيجية بالنسبة للأمن القومي للولايات المتحدة ، وبأن الولايات المتحدة ستستخدم كل الوسائل الضرورية ، بما فيها القوة العسكرية ، لضمان مصالحها والإمدادات النفطية من الدول المنتجة للنفط في الخليج العربي . كانت عقيدة كارتر هذه تكراراً لعقيدة لاندسداون Landsdowne الإنجليزية في العقد الأول من القرن العشرين ، والتي نصت على أن الخليج (الفارسي) والدول المحيطة تشكل مصدر أهمية كبيرة للإمبراطورية البريطانية آنذاك ، وعليه فلن يسمح لأحد ببسط نفوذه في المنطقة باستثناء بريطانيا العظمى .

الواقع أن خطط الحرب الأمريكية الخاصة بالتدخل العسكري القادم بدأت قبل ١٢ عاماً من حرب الخليج الأولى . ففي الصفحة رقم ١٥٨ من عدد مجلة فورتشين Fortune Magazine ، الصادر بتاريخ ٧ مايو ١٩٧٩ ، تحدثت مقالة بعنوان «ماذا لو غزت العراق الكويت؟» عن ردة الفعل الأمريكية تجاه غزو عراقي محتمل للكويت . وأعرب معد المقالة عن الرأي الأمريكي القائل بأن العمال اليمنيين في السعودية ، وحوالي ٤٠٠ ألف فلسطيني في الكويت ، يشكلون عناصر عدم استقرار في الخليج . وهكذا جاءت حرب الخليج الأولى لتخلص البلدين من عبء مئات الألوف من أبناء

الجنسيتين الذين غادروا دول الخليج النفطية بعد الحرب .

بتاريخ ٨ يونيو ١٩٧٤ ، وقع وزير الخارجية الأمريكي هنري كيسنجر اتفاقية خاصة بتشكيل لجنة أمريكية سعودية مشتركة للتعاون الاقتصادي ، وبهدف رئيسي هو التعاون في المجال المالي . وفي هذا السياق ، وقعت وزارة الخزانة الأمريكية اتفاقية مع سلطة النقد السعودية SAMA بهدف «إقامة علاقات جديدة مع الخزانة الأمريكية فيما يتعلق بعمليات الإقراض ، وذلك من خلال بنك الاحتياط الفيدرالي - نيويورك» ، وبموجب هذه الاتفاقية ، فإن سلطة النقد السعودية ستشتري سندات خزانة أمريكية جديدة مع فترة استحقاق سنة على الأقل .

تأثرت الدول المتقدمة في أوروبا واليابان بالصدمة النفطية التي أعقبت حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، إلاّ أن اقتصادياتها المتطورة وحقيقة أنها كانت على علم مسبق بما سيحدث ، حيث تلقت تحذيراً بذلك قبل ستة أشهر من الحرب ، وتحديداً بعد اجتماع مجموعة بيلدبيرغ في مايو ، الأمر الذي مكن هذه الدول من استيعاب الصدمة من خلال تعديل سياساتها الاقتصادية بسرعة . وحدها الدول النامية كانت الأشد تأثراً بما حصل ، فقد أوقعتها آثار الصدمة النفطية في مصيدة الديون ، التي لا تزال تعاني منها حتى الوقت الحاضر ، بل إن أغنى الدول النفطية وجدت نفسها ، وبعد شهر عسل قصير ، تنضم إلى نادي الدول المدينة بما فيها السعودية بعد حرب الخليج الأولى . أما الرابحون الوحيدون من خطة كيسنجر تلك فكانوا : الوول ستريت وبنوك نيويورك ولندن والشركات النفطية العملاقة .

بدأ العد التنازلي لاحتلال منابع النفط في الخليج خطوة خطوة .

* في سنة ١٩٧٧ صرح وزير الدفاع الأمريكي هارولد براون Harold Brown أن مشكلة النفط «هي أكبر تهديد للأمن القومي الأمريكي على المدى البعيد» .
* ثم نشرت مجلة فورتشن في عددها الصادر في ١٩٧٩/٥/٧ السيناريو المتوقع للعبة الحرب هذه في الخليج العربي ، حيث وصفت الكيفية التي سيكون عليها رد الفعل الأميريكي في حال قيام العراق بغزو الكويت بسبب النزاعات الحدودية وغيرها . وفي الصفحة ١٥٨ ، وتحت عنوان «إذا قام العراق بغزو الكويت والسعودية . . .» ، قالت المجلة : «تتمكن القوات المدرعة العراقية ، مستخدمة في معظمها معدات سوفييتية ، من اجتياح أي من الدولتين بكل سرعة . وفي حال طلبها ، فإن المساعدة الأميركية ستكون في البداية عبارة عن ضربات جوية

تكتيكية أميركية ضد القوات المدرعة العراقية وقواتها الجوية - وربما بعض التهديدات بتدمير المنشآت النفطية العراقية . ولطرد القوات البرية العراقية ، فستكون هناك حاجة إلى قوات المارينز من الأسطولين السادس والسابع ، ولقوات المشاة من الفرقتين ال ٨٢ وال١٠١» . وصوّرت هذه الخطة «جيشاً في السماء» لتحريك القوات واستخدام الجسر الجوي الاستراتيجي لقوات سلاح الجو الاميركي - المكون من ٧٠ من طائرات C-5A العملاقة و٢٣٤ طائرة C-141 الأصغر حجماً ، إلى جانب ٧٠٠ من طائرات KC-135 المستخدمة في تزويد الطائرات بالوقود أثناء تحليقها في الجو .«رأت تلك الدراسة نفسها بأن عرب الشمال (خصوصاً الفلسطينيون) في الخليج ، واليمنيون في الجزيرة العربية ، يشكلون عناصر عدم استقرار ، ويفضل العيش دون وجودهم في أول فرصة سانحة .

* تم تكوين قيادة للتدخل السريع في الخليج العربي ، وكذلك تكوين القيادة المركزية Central Command .
* في «الرسالة للأمة» لسنة ١٩٨٠ أعلن كارتر مبدأه ، والذي عبر فيه «بالاعتماد الهائل للديمقراطيات الغربية على بترول الشرق الأوسط» مهدداً باستعمال القوة لتأمينها ، ومحذراً «بأن أي محاولة . . . للسيطرة على الخليج الفارسي ستعتبر هجوماً على المصالح الحيوية للولايات المتحدة الأمريكية . . . وسوف يتم صدها بكل الوسائل الضرورية ، بما في ذلك استعمال القوة العسكرية» .
* ثم بدأنا نرى بنية تحتية جديدة من المطارات والموانئ ذات استعمال مزدوج (مدني وعسكري) وكذلك المدن العسكرية التي أنشأها أهل النفط في سائر دول الجزيرة العربية ، وكذلك زيادة في الأساطيل العسكرية التي جعلت من الخليج بحيرة أمريكية . أما كيف حصل ذلك خطوة خطوة وفق ذرائع مختلفة ، فكان وفق سيناريوهات محكمة ، فأصحاب النظام العالمي الجديد هم أصحاب هوليود ، لا تعوزهم السيناريوهات والإخراج ، واستمر التصعيد خطوة خطوة ، حتى كانت حرب الخليج الأولى ، درع صحراء انقلب بقدرة قادر إلى عاصفة .

في عام ١٩٩٠ ، كانت الولايات المتحدة في وضع فريد لم تعشه من قبل : لقد أمست القوة العظمى الوحيدة في العالم بعد الانهيار الداخلي والتفكك الذي حلّ

بالاتحاد السوفييتي ، وبات ممكناً الآن إيجاد العولمة الاقتصادية وتوسيع «سوق الشركات عبر القطرية» لتشمل العالم بأسره بوصفه أصبح مهيأ تماما . وبصفتها القوة العظمى الوحيدة الآن ، فقد بات بمقدور الولايات المتحدة ، أكثر من أي وقت مضى ، أن تتحكم في النفط وتسيطر عليه . فقد استوردت ٤٥٪ من نفطها عام ١٩٨٩ ، وتشير دراساتها أنه قد يتوجب عليها استيراد أكثر من ٦٥٪ من النفط مع نهاية عقد التسعينيات! وقد كان حوالي ٤٠٪ من العجز التجاري الأميريكي عام ١٩٨٩ ناجماً عن الواردات النفطية ، وتضاءل دور الطاقة النووية إلى أن همشت ، حيث أنها كانت مصدراً لـ٧٪ من الطاقة فقط عام ١٩٨٩ ، شكل النفط في عام ١٩٨٩ ما نسبته ٤١,٩٪ من إمدادات الطاقة للولايات المتحدة ، فيما شكل الغاز ٢٤٪ ، والفحم والكوك ٢٣,٣٪ ، والقوة الكهربائية المائية ٣,٥٪ ، وبقية المصادر ٠,٥٪ . وأصبح بمتناول يد أميركا الآن أن «تساعد» جمهوريات بحر قزوين ودول آسيا الوسطى ، على أن تنال «استقلالها عن الاتحاد السوفييتي» ، وبذلك تصبح مخزوناتها النفطية آمنة تحت السيطرة الأميركية .

وعلى طريقة التحرير الأمريكية التي أصبحت مألوفة للعالم هذه الأيام بوضوح أكثر مما مضى ، ذهبت القوات الأمريكية إلى الصومال ، خصوصاً بعد الانقلاب الذي أطاح بالنظام الموالي لها . كانت ٧٠٪ من الصومال قد أعطيت إلى أربع شركات نفط أمريكية ، وتزايدت احتمالات الاستخراج بعد تطوير الحقول اليمنية . تقول جريدة لوس أنجليس تايمز (Los Angeles Times) «بأن شركة CONOCO للبترول قد سمحت أن يصبح مركز إدارتها في مقديشو وكأنه في واقع الأمر سفارة أمريكية ، وذلك قبل هبوط قوات المارينز الأمريكية في العاصمة» .

بعد انتهاء حرب الخليج الأولى قامت مجموعة من موظفي وزارة الدفاع الأمريكية في عهد الرئيس بوش الأب بإصدار (توجيهات خطط الدفاع) «Defense Planning Guidance» وذلك سنة ١٩٩٢ . شارك في إعداد تلك التوجيهات ديك تشيني (وزير الدفاع أنذاك) ، بول ولفويتز Paul Walfowitz ، زلماي خليل زاد ، سكوتر ليبي Scooter Libby ، اريك إديلمان Eric Edelman ، وكولن باول ، وجميعهم خدموا في إدارة بوش الأول ، ثم جاءوا إلى إدارة بوش الثاني . ومن ضمن ما جاء في تلك التوجيهات : أن هدف الولايات المتحدة في الشرق الأوسط أن «تبقى الولايات المتحدة القوة الخارجية المهيمنة للمحافظة على حصولها على إمدادات النفط» . كما

أن هذه التوجيهات قد أفصحت عن أحادية القطبية للولايات المتحدة وضرورة المحافظة عليها بسائر الوسائل ، كما أشارت إلى اللجوء إلى الحروب الاستباقية وعدم ضرورة العمل ضمن أطر الأمم المتحدة ، بل ضمن مجموعات من التحالفات لذوي المصالح المشتركة .

في سنة ١٩٩٧ اتحد فريق مجموعة بوش الأول المذكور أعلاه ، وأسسوا «مشروع القرن الأمريكي الجديد» . كان من بين أعضاء هذا المشروع أيضاً دونالد رامسفيلد ، حيث وقع هو مع الآخرين في تلك السنة على رسالة إلى الرئيس كلينتون يطالبون فيها بتغيير النظام في العراق .

أطل علينا القرن الواحد والعشرون وأطل معه جورج دبليو بوش ، والذي تم ترشيحه داخل الحزب الجمهوري من جورج شولتز ، وتم تدريبه على الشؤون العامة والخارجية أثناء حملته الانتخابية من قبل كونداليزا رايس وبول ولفوتيز . كانت عملية التدريس تتم كل يوم اثنين عبر اتصال هاتفي مشترك Conference Call . وحتى بعد مرحلة التدريب هذه ، بقي الرئيس بوش قليل المعرفة بشؤون التاريخ والجغرافيا . فعندما سأله مراسل مجلة غلامور Glamor (عدد مايو ٢٠٠٠) إن كان يعرف ما هي (طالبان) ، أجاب بوش بأنه سمع بهذا الاسم من قبل . وبعد فترة من التفكير قال : أظن أنها فرقة روك آند رول! فإذا كان بوش الثاني قليل المعرفة بشؤون الدنيا والآخرة ، فإن القوى التي أوصلته إلى الحكم لينفذ أجندتها تعرف تماماً ماذا تريد . لقد علق أحد القادة البارزين الأمريكيين أثناء تنصيب كلينتون للرئاسة «تتغير الوجوه في البيت الأبيض ، أما القابضون على زمام الأمر فهم هم أنفسهم لا يتغيرون» .

عندما كان لا يزال على رأس أكبر شركة لخدمات النفط في العالم «هاليبرتون Halliburton» ، تحدث نائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني Dick Cheney في اجتماع مغلق نظمه المعهد البريطاني للبترول - لندن في خريف ١٩٩٩ عن اختلال التوازن بين العرض والطلب للبترول ، ومما جاء في حديثه القول «من الواضح لنا جميعاً بأن إنتاج النفط آيل للنضوب ، ولهذا يترتب استكشاف المزيد من الاحتياطات النفطية وتطويرها كل عام ، بما يعادل حجم الإنتاج في ذلك العام ، وذلك لتحقيق التعادل المطلوب ، وهي حقيقة لا تمس الشركات النفطية فحسب ، بل تمس القطاع الاقتصادي على مستوى العالم بشكل عام . وعلى سبيل المثال ، فإن شركة نفطية

مثل ايكسون- موبيل Exxon-Mobil مطالبة بتأمين احتياطات نفطية جديدة بحجم ١,٥ مليار برميل سنوياً لتعويض حجم إنتاجها السنوي الحالي . . وهذا يعني استكشاف حقل نفطي رئيسي جديد بحجم ٥٠٠ مليون برميل كل أربعة أشهر . أما على المستوى العالمي ، فإن الشركات النفطية مطالبة باستكشاف ما يكفي من النفط واستخراجه لتعويض الاستهلاك السنوي ، الذي يتجاوز حالياً ٧١ مليون برميل يومياً (ذلك في ١٩٩٩) ، بالإضافة إلى تلبية الزيادة على الطلب الآخذ في التعاظم ، والذي تضعه بعض التقديرات بحدود ٢٪ سنوياً ، يضاف إليها ٣٪ هي نسبة التراجع الطبيعي في الإنتاج من الاحتياطات الحالية ، وهذا يعني أننا سنجد أنفسنا عام ٢٠١٠ بحاجة إلى ٥٠ مليون برميل إضافية يومياً لتلبية الزيادة في الاستهلاك العالمي من النفط» . ويضيف تشيني قائلاً : «في الوقت الذي توفر فيه بعض المناطق في العالم فرصاً حقيقية ، يظل الشرق الأوسط ، بما يملكه من ثلثي حجم الاحتياط العالمي من النفط ، يشكل منطقة الجائزة الكبرى» .

طبقاً لحسابات تشيني فإن حجم الزيادة من استهلاك النفط عام ٢٠١٠ سيتطلب اكتشافات جديدة ، تقوم بإنتاج خمسة أضعاف ما تنتجه المملكة العربية السعودية في الوقت الحاضر . . . وهو أمر لن يتحقق كما تؤكد الدراسات كافة .

توقعات ديك تشيني قام بتكرارها هاري لونغويل Harry Longwell ، مدير ونائب الرئيس التنفيذي لشركة ايكسون موبيل ، الذي كتب في مجلة وورلد انيرجي World Energy (العدد ٣ لعام ٢٠٠٣) يقول : «الفكرة الأساسية هنا هي أن ازدياد الطلب على النفط يقابله نضوب في الإنتاج الحالي . وبلغة الأرقام ، تشير التوقعات إلى أنه بحلول عام ٢٠١٠ سيحتاج العالم إلى رفع الإنتاج بمعدل يزيد على نصف حجم الإنتاج الحالي لتلبية الزيادة المتوقعة في الطلب على النفط ، وهي زيادة تفوق قدرة المنتجين الحالية ، الأمر الذي يشكل تحدياً كبيراً لهم» . أما جون ثومبسون John Thompson رئيس شركة ايكسون موبيل للاستكشاف ، فقال أمام اجتماع للهيئة العمومية عام ٢٠٠٣ : «بحلول عام ٢٠١٥ سنكون في وضع يحتم علينا استكشاف كميات من النفط والغاز وتطويرها وإنتاجها ، تعادل ٨٠٪ من حجم الإنتاج الحالي» وهو الرقم نفسه الذي أورده تشيني من قبل . وجاء تقرير لجنة دراسة الطاقة التي أمر بتشكيلها تشيني نفسه بعد أن أصبح نائباً للرئيس ونشر عام ٢٠٠١ ، جاء على القدر نفسه من التشاؤم والتحذير ، حيث جاء في التقرير «الفرق الأهم بين الحاضر وما كان

عليه الوضع قبل عقد من الزمان هو التآكل السريع وغير العادي الحاصل للطاقات الاحتياطية في بعض قطاعات سلاسل الطاقة ، وبخاصة في قطاع النفط» .

أما وزير الطاقة الأمريكي سبنسر ابراهام Spencer Abraham فيقول في هذا الشأن «ستواجه أمريكا أزمة رئيسية في إمدادات الطاقة على مدار العقدين القادمين ، وأي فشل في مواجهة هذا التحدي من شأنه أن يهدد ازدهارنا الاقتصادي ويعرض أمننا القومي للخطر ، وسيكون له أثره الكبير في إحداث تغيرات جذرية في حياة الأمريكيين» .

نجد في الفصل الثامن من وثيقة السياسة الوطنية للطاقة ، الصادرة عن مجموعة تطوير السياسة الوطنية للطاقة التي يرأسها ديك تشيني ، إشارة واضحة إلى أهمية الشرق الأوسط كمورد نفطي رئيسي إن لم يكن الأهم في العالم . ومما جاء في الوثيقة القول «من المتوقع أن تنتج دول الخليج ما بين ٥٤ - ٦٧٪ من النفط العالمي بحلول عام ٢٠٢٠ ، الأمر الذي يستمر معه الاقتصاد العالمي في الاعتماد على نفط الدول الأعضاء في منظمة أوبك OPEC وبخاصة دول الخليج . . . ولهذا ستبقى هذه المنطقة حيوية بالنسبة للمصالح الأمريكية» .

بينما كان سعر البترول في حدود ٢٠ - ٣٠ دولاراً / البرميل توقعنا في كتابنا «حروب البترول الصليبية» بأن يتراوح سعر البترول بين ٥٠ إلى ٦٠ دولاراً للبرميل لسنة ٢٠٠٥ ، ولربما لسنة ٢٠٠٦ وهذا ما حصل فعلاً . إلاّ أنه مع ازدياد الفجوة ما بين العرض والطلب قبل دخول محطات توليد طاقة نووية قبل سنة ٢٠١٠ ، فإن السعر عندئذ سيصل إلى ما بين ١٠٠ و١٠٥ دولارات للبرميل . تبدو هذه الأرقام شبه خيالية ، لكنها ليست كذلك ، فلقد كان سعر البترول في سنة ١٩٨٠ ، معدلاً بدولار اليوم ، يساوي أكثر من ٧٥ دولاراً للبرميل . . . ذلك قبل ربع قرن حين كانت هناك وفرة في الإنتاج .

إذا كان نصيب أوبك ، وبسعر ١٠٠ دولار للبرميل ، ٣٥ مليون برميل في اليوم لسنة ٢٠١٠ ؛ فذلك يعني أن بترول أوبك سيتيح فرصة لمطابع الدولار الأمريكية أن تطبع ٣٥٠٠ مليون دولار يومياً دونما أي غطاء ، وبتكلفة خمسة سنتات لكل ورقة مئة دولار ، مادام الدولار هو العملة الوحيدة للمتاجرة بالبترول . إن مجرد السماح بتحويل تسعير البترول من الدولار إلى عملات أخرى ، سيكون بمثابة سلاح دمار شامل للاقتصاد الأمريكي والإمبراطورية الأمريكية . نعم : سلاح دمار شامل!

في تقريرها الصادر في أبريل ٢٠٠٤ ، نشرت إدارة معلومات الطاقة Energy Information Administration توقعاتها الخاصة بحجم إنتاج منطقة الشرق الأوسط من النفط للسنوات العشرين القادمة :

	مليون برميل يومياً	
البلد	إنتاج ٢٠٠١	إنتاج ٢٠٢٥
السعودية	١٠,٢	٢٢,٥
إيران	٣,٧	٤,٩
العراق	٢,٨	٦,٦
الإمارات العربية المتحدة	٢,٧	٥,٢
الكويت	٢,٤	٥,٠
قطر	٠,٦	٠,٨

وطبقاً للتقارير ، فإن حجم إنتاج دول الخليج من النفط لعام ٢٠٠١ كان يمثل ٢٩٪ من إجمالي الإنتاج العالمي ، في حين أن التوقعات ، كما يوضح الجدول أعلاه ، تشير إلى أن حصة دول الخليج سترتفع إلى ٦٠٪ من الإنتاج العالمي بحلول عام ٢٠٢٥ ، بما يعني بأن الحياة الاقتصادية للولايات المتحدة ستعتمد وبشكل كبير على الشرق الأوسط ، وكذلك الأمر بالنسبة لنجاح أجندتها الخاصة بالرأسمالية والعولمة والإمبراطورية ، ولهذا لم تعد الهيمنة على المنطقة بالوكالة بواسطة الأصدقاء أو العملاء كافية بحد ذاتها ، بل حان وقت الاحتلال المباشر ، وقد وقع الاختيار على العراق لتوافر ظروف مواتية جعلت من هذا البلد الضحية الأولى والأسهل للمخطط الأمريكي الكبير . ولو أن هناك تغييراً سيطرأ على هذه الإستراتيجية فسيكون في الأسلوب لا في الهدف نفسه ، اللهم إلاّ إذا كانت تجربة العراق المريرة قد استدعت مراجعة ، لكن المشكلة هي أن الموضوع برمته يتعلق بمصير الإمبراطورية الأمريكية ومشروع قرنها الجديد .

وعودة إلى التقرير الصادر عن لجنة دراسة الطاقة ، التي أمر ديك تشيني بتشكيلها ، والصادر في أبريل ٢٠٠١ (قبل هجمات ١١ سبتمبر) ، فإن التقرير يتحدث عن خطط أمريكية للتعامل مع مشكلة النقص المتوقع في الإمدادات

النفطية . فبعد توضيح حقيقة أن الشعب الأمريكي مستمر في المطالبة بتوفير كميات وافرة من النفط الرخيص ، دون الاستعداد لتقديم أي تضحيات ، ينتقل التقرير إلى القول بأن أمريكا تبقى أسيرة معضلة الطاقة ، الأمر الذي سيدفعها إلى الإقدام على «التدخل العسكري» لتأمين إمداداتها النفطية . وهكذا فإن خيار «التدخل العسكري» ورد قبل ١١ سبتمبر .

إن السبب في الاندفاع المفاجئ نحو العراق ، واستعجال بوش في اتخاذ قرار الحرب ، وعلى الرغم من معارضة أكثر دول العالم له ، فيتعلق بما أطلق عليه الخبراء اسم «الذروة النفطية» ويعود التوقيت وسرعة اتخاذ القرار بالحرب إلى الصدمة القاسية التي تلقتها الخطط السياسية الأمريكية الخاصة بنفط بحر قزوين ، حيث انتهت الأحلام الأمريكية بالعثور على احتياطات نفطية هائلة تعوضها عن الاعتماد على نفط الشرق الأوسط ولو مؤقتاً .

ففي منتصف التسعينات ، كان المخططون في واشنطن على قناعة بأن السيطرة المباشرة للشركات النفطية الأمريكية والبريطانية على حقول نفط أذربيجان وقازاخستان ، من شأنها أن تمنح الولايات المتحدة الوقت الكافي المطلوب للتخطيط المتأني للانتقال إلى بدائل النفط وكذلك للسيطرة العسكرية على حقول النفط الأضخم في الشرق الأوسط وبالتدريج . كانت ظروف دول حوض بحر قزوين مواتية للخطط الأمريكية ، فقد كانت تلك الدول ، الخارجة حديثاً من العباءة السوفياتية ، تعاني من الضعف والفوضى ومنزوعة السلاح تقريباً ، الأمر الذي جعلها جاهزة لسيطرة النفوذ الأمريكي . وفي عام ١٩٩٨ ، كانت النظرة الأمريكية إلى افغانستان من زاوية كونها تشكل حلقة مهمة تربط بين حقول النفط والغاز الطبيعي في حوض بحر قزوين وطرق خطوط النفط الجديدة ، الأمر الذي سيمنح الولايات المتحدة فسحة من الوقت قبل انفجار أزمة الذروة النفطية ، الخارجة عن نطاق السيطرة الأمريكية .

الواقع أن بعض الصقور في البنتاغون تحدثوا صراحة عن أن الحرب على العراق هي من أجل النفط وليس نزع أسلحة الدمار الشامل العراقية المزعومة . فهذا نائب وزير الدفاع بول وولفوتز يقول في مقابلة في سنغافورة بتاريخ ٣١ مايو ٢٠٠٣ «دعونا ننظر إلى الأمر ببساطة . . . فالفرق الأهم بين كوريا الشمالية والعراق يكمن في الناحية الاقتصادية . . . لم يكن أمامنا من خيار آخر في العراق ، فتلك البلاد تطفو على بحر من النفط» . علماً بأن الحقول المستغلة في العراق لتاريخه هي فقط ١٧

حقلاً من أصل ٨٠ حقلاً أثبتت الدراسات عن وجود كميات هائلة من البترول داخلها!

لا داعي لنا نحن لنسهب في الإشارة إلى الأكاذيب والذرائع التي استخدمت لاحتلال العراق . ولعلنا نكتفي بما كتبه بعض كبار السياسيين الأمريكيين أنفسهم . فقد قال الرئيس الأمريكي كارتر «لقد كانت حرباً لا مبرر لها على الإطلاق . ولقد تم تبريرها بناءً على ادعاءات كاذبة» . أما مستشار الأمن القومي السابق Zbigniew Brezinski زبيغيو برجينسكي فقد كتب في صحيفة The Astralian بتاريخ ١٤ اكتوبر ٢٠٠٥ : «قبل حوالي ٦٠ سنة لخص آرنولد توينبي Arnold Toynbee بحثه الكبير (دراسة التاريخ) بأن السبب النهائي لانهيار الإمبراطوريات كان (سياساتهم الانتحارية) . وبكل أسف سيدخل جورج بوش التاريخ ، بل وبكل أسف على مستقبل الولايات المتحدة ، فإن (السياسة الانتحارية) تبدو أكثر فأكثر وصفاً ينطبق تماماً على سياسات الولايات المتحدة منذ ١١ سبتمبر» . ويضيف برجينسكي : «كانت الدعوة إلى الحرب على العراق من قبل دائرة ضيقة من أصحاب القرار لأهداف مبهمة لم يتم الإفصاح عنها بعد ، لكن حججها كانت دموية وكلفتها كانت أكثر مما كان متوقعاً» .

وهكذا تم احتلال دولة عربية ذات سيادة جهاراً ونهاراً . . . بحرب استباقية ، وبحجج كاذبة . . . وسيذكر الآخرون يوماً يرونه بعيداً ونراه قريباً أنهم أُكلوا يوم أُكل الثور الأبيض .

ابتداءاً من ٦ مايو ٢٠٠٣ ، وحتى ٢٨ يونيو ٢٠٠٤ ، حكم العراق بول بريمير Paul Bremer بعد فترة قصيرة من حكم جي غارنر Gay Garner الذي عزله وزير الدفاع لتباين أرائه معه . وبول بريمير يتمتع بخبرة ٤ عقود من العمل في القطاعين العام والخاص . عمل مع جورج شولتز ، ودونالد رامسفيلد في الدولة ، وفي القطاع الخاص عمل مع شركة كيسنجر ومشاركوه كعضو مجلس الإدارة المنتدب . قبل الغزو بشهور قامت الولايات المتحدة بتكليف شركة بيرنغ بوينت Bearing Point بإعداد خطة Master Plan لإعادة هيكلة الاقتصاد العراقي ليصبح نظاماً اقتصادياً حراً . شركة بيرنغ بوينت كان اسمها KPMG Consulting قبل أن تغير اسمها ، وكانت كلفة إعداد الدراسة ٢٥٠ مليون دولار . كانت مهمة بريمير هي تنفيذ خطة Bearing Point بحذافيرها . بعد احتلال العراق كانت الخطة تقتضي تغيير النظام الاقتصادي العراقي

من سيطرة الدولة إلى سيطرة السوق . أما سيطرة السوق فهي الاسم المستعار لسيطرة الشركات عبر القطرية . كان بريمير يتمتع بصلاحيات لا حدود لها ، ويستطيع إصدار قوانين جديدة أو إلغاء قوانين قائمة بجرة قلم . وهذا ما فعله بإصداره ١٠٠ تعليمة أو أوامر لتغيير الخارطة السياسية والاقتصادية العراقية . أما تلك التعليمات فهي تحمل قوة القانون وتلغي كل ما يتعارض معها . كان الأمر الأول من أوامره المئة التي صدرت أثناء حكمه ، يقضي بالاستغناء عن خدمات ١٢٠,٠٠٠ موظف عراقي كبير في وزارات الدولة كافة ، ذلك أنه قد لا يمكن إحداث التغييرات الجوهرية المطلوبة بوجودهم . جاء بعد ذلك أمر تسريح سائر قوى وزارة الدفاع والجيش العراقي ، والبالغ عددهم أكثر من ٥٠٠,٠٠٠ شخص . تتالت الأوامر الواحد بعد الآخر ، بحيث تم تفكيك النظام السياسي والاقتصادي برمته . وهذه بعض من الأوامر والقرارات :

* الأمر (٣٩) : (أ) يسمح بخصخصة ٢٠٠ شركة عامة مملوكة من الدولة لتصبح قطاعاً خاصاً . (ب) السماح للأجانب بامتلاك ١٠٠٪ من الشركات العراقية . (ج) إلغاء تفضيل العراقيين عن غيرهم لعقود الدولة . (د) تحويل أموال الأجانب والأرباح بلا قيود أو ضرائب .
* الأمر (٥٧) والأمر (٧٧) : تعيين مفتشين عامين ومدققين من قبل الولايات المتحدة على سائر الوزارات ودوائر الدولة ، ولعقود مدتها ٥ سنوات ، وذلك لتنفيذ أوامر الاحتلال بشأن جميع البرامج والعقود والموظفين .
* الأمر (١٧) : يعطى المقاولون الأجانب ، بمن في ذلك المرتزقة المسمون مقاولو الدفاع ، الحصانة ضد القانون العراقي . حتى لو قتل أحد هؤلاء عراقياً ، فالمحاكم الأمريكية فقط هي المخولة بمحاكمتهم .
* الأمر (٤٠) : يسمح للبنوك الأجنبية بشراء حصص كبرى في البنوك العراقية .
* الأمر (٤٩) : يقضي بتخفيض الضرائب على الشركات من ٤٠٪ إلى ١٥٪ .

الشركات العراقية المنهكة منذ أكثر من عشر سنوات من الحصار الاقتصادي صار عليها أن تتنافس مع الشركات الأمريكية عبر القطرية العملاقة ، وبناءً عليه استحوذت تلك الشركات الأجنبية على عقود (إعادة الإعمار) . ولقد أحضرت تلك الشركات موظفيها من الخارج ، عدا بعض الوظائف الدُنيا فكانت للعراقيين الذين رُفعت عنهم حقوق أفضلية المواطنة للعمل داخل أوطانهم ، مما زاد في البطالة لتصبح أكثر قسوة حتى من أحلك أيام الحصار إبان النظام السابق .

ولقد تم إدخال العديد من أوامر بريمير ضمن الدستور العراقي الجديد . المادة ٢٥ تتطلب اعتماد «مبادئ الاقتصاد الحديث (أي الرأسمالي) الذي يحقق الاستثمار الكامل للموارد ، والذي يشجع تطوير القطاع الخاص» . أما المادة ٢٦ فتشجع الاستثمار (للعراقيين والأجانب على قدم وساق) في سائر المجالات ، والمادة ٢٧ تسمح بخصخصة ممتلكات الدولة . ولقد تم حذف الفقرات التي تمنع «استعمال العراق كقاعدة أو ممر للقوات الأجنبية» وحذف «منع إمكانية وجود قواعد عسكرية في العراق» . وكانت هذه الفقرات موجودة في المسودة الأولى للدستور .

كانت المرحلة الثالثة هي إصدار قانون النفط ، والذي يتم السماح بموجبه لشركات البترول الأجنبية بالسيطرة على نفط العراق . لقد أحضرت الإدارة الأمريكية شركات البترول الأمريكية للتشاور معها قبل ستة شهور من غزو العراق . كذلك قامت «مجموعة مستقبل قطاع النفط والطاقة في العراق» التابعة لوزارة الخارجية ، قامت بالتوصية بأن يتم فتح الأبواب «لشركات النفط العالمية بأسرع وقت ممكن بعد الغزو» . كان أحد أعضاء هذه المجموعة العاملة في واشنطن إبراهيم بحر العلوم ، والذي أصبح وزيراً للنفط العراقي بعد الاحتلال مرتين ، أما رئيس الوزراء المؤقت إياد علاوي فقد قدم في سبتمبر ٢٠٠٤ مبادئ لقانون النفط الجديد في العراق ، اقترح فيه «إنهاء التخطيط المركزي وهيمنة الدولة على الاقتصاد» وحث «الحكومة العراقية لتتوقف عن إدارة عمليات قطاع النفط» . كما أنه أوصى بالخصخصة حيث وجه الأمور لتكون الصناعة «بشكل كامل مبنية على القطاع الخاص ، بحيث يتم التدرج أيضاً بخصخصة عمليات تسويق النفط ومنتجاته ، كما تكون سائر التوسعات للمصافي أو المصافي الجديدة مقامة على أساس القطاع الخاص المحلي منه والأجنبي» . كما تم التوصية بأن يتم تطوير الحقول الجديدة غير المستغلة من قبل شركات النفط الدولية ، علماً بأن الحقول المستغلة في العراق هي ١٧ حقلاً من أصل ٨٠ حقلاً نفطياً كبيراً مثبتاً لمخزون هائل من النفط . وهكذا فإن المادة ١٠٩ من الدستور العراقي الجديد تؤكد على هذا التوجيه ، حين تقول بأن الدولة العراقية ستدير الحقول الحالية فقط ؛ ولقد قام عادل عبد المهدي بالإعلان عن قانون النفط الجديد في واشنطن .

خطة الشرق الأوسط الكبير تحمل في ثناياها تأسيس منطقة تجارية شرق أوسطية حرة تسمى مفتا MEFTA ، على غرار NAFTA للقارة الأمريكية الشمالية . والخطة تقضي بالسماح لكل دولة على حدة لكي تتمتع بامتيازات «النظام العام للتفضيل»

Generalized System of Preferences ، وذلك بدخول جنة التصدير بميزات خاصة لسوق الولايات المتحدة ، باتفاقات ثلاثية بين الولايات المتحدة والدولة المعنية وإسرائيل!

بعد حرب الخليج الأولى سنة ١٩٩١ ، استطاع العراقيون والشركات العراقية بإمكانات متواضعة ، وضمن حصار قاس ، إعادة أنظمة الكهرباء والماء إلى مستوى مقبول خلال ثلاثة شهور . أما الشركات عبر القطرية فلم تستطع بعد ثلاث سنوات وعشرات بلايين الدولارات إرجاع خدمة الكهرباء والماء ، مما حدا بأحد العراقيين لأن يقول لإحدى المجلات الأمريكية : لدينا الأنهر وليس لدينا الآن ماء لنشربه ، ولدينا البترول وليس عندنا الآن بنزين . هذه هي بركات الديمقراطية والحرية الأمريكية ، والتي وصفتها الكاتبة الهندية المبدعة أروندهاتي روي بأنها ديمقراطية سريعة الذوبان Instant- Mix Democracy : اشتر واحدة وخذ أخرى بالمجان ، يتم إيصالها للشعوب كما يتم إيصال البيتزا للبيوت ، ولكن على رؤوس صواريخ الكروز . هذا هو النظام العالمي الجديد الذي بات علينا أن نموت به حباً وشغفاً . . . . أو أن نموت .

يعود الإرث السياسي والعسكري الذي يطبقه بوش حالياً إلى سلفه الأقدم جايمس مونرو ، الذي أصدر عام ١٨٢٣ عقيدته القائمة على تعيين الولايات المتحدة نفسها وصية على مقدرات الأمريكيتين والنصف الغربي من العالم ، مع منحها الحق الكامل بالتدخل . وطبقاً لشهادة دين راسك وزير خارجية كندي أمام الكونغرس الأمريكي ، فقد وصلت حالات التدخل التي أقدمت عليها الولايات المتحدة في شؤون الدول الأخرى ١٠٢ حالة خلال الفترة من ١٧٩٨ - ١٨٩٥ .

في عام ١٨٩٣ ، ضربت أمريكا حالة من الكساد العظيم استمرت معظم سنوات ذلك العقد ، وكان الخروج منها من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية بحاجة إلى الدخول في حرب ، أي حرب . . . فالركود العظيم وضع أمريكا في حالة صراع طبقي ، ووضع اقتصادي خانق . وهنا كتب ثيودور روزفلت ، الذي أصبح رئيساً للولايات المتحدة في العقد الأول من القرن العشرين ، إلى صديق له يقول : «أريد أن أُسِّر لك بشيء . . . أنا في وضع يجعلني أرحب بأي حرب . . . أعتقد أن هذه البلاد بحاجة إلى حرب» .

عندما وجدت الولايات المتحدة بأن ثورتها الصناعية أدت إلى فائض في الإنتاج يحتاج إلى أسواق أجنبية ، قررت سلوك سبل الاستعمار ، فكانت الحرب الأمريكية

الإسبانية عام ١٨٩٨ ، حيث أقدمت أمريكا على غزو كوبا وجزر الكاريبي الأخرى ، واحتلت الفلبين . أما الدوافع السياسية والاقتصادية الحقيقية لاحتلال الفلبين ، فكانت تلك التي عبر عنها بوضوح السيناتور البرت بيفيردج Albert Beveridge ، بتاريخ ٩ يناير ١٩٠٠ ، بالقول : «سيادة الرئيس . . . هذا وقت الصراحة . . . لقد أصبحت الفلبين لنا وستبقى كذلك إلى الأبد . . . وخلف الفلبين تنتظرنا أسواق الصين اللا محدودة . . . ولن نتراجع عن أي منهما ، ولن يتخلى الأمريكيون عن المهمة الملقاة على عاتقهم من السماء ، باعتبارنا أوصياء على الحضارة البشرية باسم الله . . . . إلى أين نتجه بحثاً عن مستهلكين للفائض من منتجاتنا؟ الإجابة في الجغرافيا . . . فالصين هي المستهلك الطبيعي لنا . . . لقد منحتنا الفلبين قاعدة على أبواب الشرق برمته . .» .

كما أن بوش لم يكن أول رئيس أمريكي يزوّر الحقائق في سبيل تبرير الحروب ، أو يستخدم العامل الديني في استنفار التأييد للحرب . وكما كان عليه الحال في استخدام هجمات ١١ سبتمبر كمبرر لشن حرب على العراق ، لأسباب سرعان ما ثبت زيفها ، فإن الحرب الأمريكية الاسبانية الاستعمارية عام ١٨٩٨ تم خوضها بناءً على ادعاء بأن العدو هو الذي فجر المدمرة الأمريكية مين Maine في هافانا – كوبا ، ليتبين من التحقيقات لاحقاً (بعد احتلال كوبا بالطبع) بأن الانفجار الذي تعرضت له المدمرة لم يكن من فعل الإسبان بل كان مرده لأسباب داخلية ، قيل بأنها قد تكون حادثاً فنياً على الأغلب . وهنا يبرز السبب الرئيسي وراء الحرب الأمريكية الإسبانية عام ١٨٩٨ ، والذي لم يكن انفجار المدمرة ، بل انفجار الثورة الصناعية وحاجة أمريكا لأسواق الشرق الأقصى وبخاصة الصين ، ولتأمين حركة الملاحة البحرية للسفن الأمريكية إلى تلك المنطقة ، بل احتلال الفلبين . وهنا يظهر كيف أن الرئيس مكنللي ، كما هو الحال مع بوش ، ادعى بأنه تحرك بوازع ديني ، حاملاً رسالة سماوية تبرر له احتلال أراضي الآخرين وضمها ، وكيف أنه تعرض لإلهام مفاجئ جعله يسارع لضم الفلبين . ومما قاله الرئيس مكنللي أمام مجموعة من زوار البيت الأبيض بهذا الشأن : «أود أن اقول لكم شيئاً حول موضوع الفلبين ، فالحقيقة أنني لم أكن أريد الجزر الفلبينية ، وعندما هبطت علينا هدية من السماء ، لم أكن أدري ما أفعل بها . . . حاولت الحصول على مشورة الديمقراطيين والجمهوريين ولم أخرج بفائدة تذكر . فكرت في البداية بالاكتفاء بالعاصمة مانيلا Manila ثم لوزون Luzon ، وبعد

ذلك قلت في نفسي لم لا نسيطر على باقي الجزر! شغلني هذا الموضوع معظم الليالي ، ولا يراودني أي شعور بالخجل . . . إذا قلت لكم أيها السادة بأنني كنت أركع على ركبتي وأصلي لله العظيم طالباً منه الرشد ، وفعلت ذلك في أكثر من ليلة ، وفي إحدى الليالي جاءني الإلهام . . . من أين ، لا أدري ولكن هذا ما ألهمني به الله» .

ولقد نتج عن الاحتلال الأمريكي أن ذبح الجيش الأمريكي أكثر من ٦٠٠,٠٠٠ من أفراد المقاومة الفليبينية .

بعد تلك الرؤيا السماوية التي نزلت على مكنللي ، استدعى الرئيس الأمريكي مهندسي الجيش الأمريكي ، وطلب منهم تغيير الخرائط بشكل تظهر فيه الفلبين جزءا من أراضي الولايات المتحدة . . وهكذا أصبحت الفلبين تحت الاحتلال الأمريكي ، إلى أن احتلها اليابانيون في الحرب العالمية الثانية بعد ذلك بخمسين سنة ، وبقيت القواعد العسكرية الأمريكية في اليابان وألمانيا منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية وحتى يومنا هذا .

أصبح البنتاغون الأكثر نفوذاً في تقرير السياسة الأمريكية في الخارج . ومن ناحية عملية أصبحت مهمة القوات المسلحة الأمريكية هي الاستيلاء على المصادر الطبيعية في الدول المغلوب على أمرها من الإمبراطورية الأمريكية . وقسمت العالم إلى أباطرة عسكريين صغار Mini-Emperors من الجنرالات ، جعلتهم قادة مراكز القيادة العسكرية الأمريكية :

* تم توسيع القيادة المركزية الوسطى (CENCOM) ليشمل دول نفط أواسط أسيا ، بالإضافة إلى دول نفط الشرق الأوسط العربي .
* وتم توسيع مهام القيادة الأوروبية Eurocommand لتشمل غرب أفريقيا ، لتأمين حقول نيجيريا ، حيث ستقوم الولايات المتحدة ببناء قاعدة ضخمة في جزر ساو تومي Sao Tome حيث هناك عمليات حفر وتطوير لحقول واعدة في المياه بين تلك الجزر ونيجيريا .
* وتقوم قيادة الجنوب Southcom بحراسة خطوط النفط التابعة لشركة النفط Occidental في كولومبيا ، كما تقوم بمساعدة ميليشيا وطنية لتفويضها بهذه المهمة .
* وتقوم قيادة الباسيفيك Pacific Command بتوظيف مجموعة من الطرادات العسكرية البحرية لمراقبة خطوط إمدادات النفط في الممر المائي بين ماليزيا

وسومترا .

* كما أقامت الولايات المتحدة قواعد عسكرية على طول أنابيب النفط الممتدة من أواسط آسيا إلى تركيا حتى قبل البداية في إنشاء الخط ، والذي تم استكماله حديثاً .
* ولإيصال النفط بالأنابيب إلى البحر الأبيض المتوسط ، تم التوقيع مؤخراً في نهاية ٢٠٠٤ على مذكرة للسماح ببناء خط أنابيب ينقل البترول من تركيا عبر ألبانيا ، ومكدونيا ، وبلغاريا ، وهو خط Trans-Balkan Pipeline حيث تم إقامة قواعد عسكرية لحماية هذا الخط المستقبلي .
* وتم تغيير النظام في أفغانستان بعد فشل إقناع الطالبان بخط UNOCAL لنقل غاز تركمستان كابول إلى كراتشي .
* كما تم سنة ٢٠٠٤ تكوين «فرقة للتدخل السريع» في كازاخستان لحماية منشآت النفط في بحر قزوين تابعة للقيادة الوسطى .

وهكذا أصبحت القوات المسلحة الأمريكية في الخدمة المباشرة لشركات النفط . بل إن شركة إكسون Exxon قد كونت قوات محلية لحماية منشآتها النفطية وحقول الغاز في إتش Aceh تدفع نفقاتهم ، ويقوم ابناء Aceh بتسمية هذا الجيش جيش Exxon ، وهذا ما كانت تفعله شركة الهند الشرقية .

أصبحت نظرية انهيار الإمبراطورية الأمريكية ، وبطريقة فجائية كما انهار الاتحاد السوفيتي ، مقبولة من العديد من الأكاديميين والسياسيين الغربيين أيضاً ، فهذا Eric J. Hobsbawn (اريك جيه هوبسبون) يحاضر في جامعة هارفارد بتاريخ ١٩-١٠-٢٠٠٥ متنبئاً بالسقوط الذريع للإمبراطورية الأمريكية ، وكما ورد في صحيفة جامعة هارفارد ٢٠-١٠-٢٠٠٥ (Harvard Crimson) ، حيث تنبأ بأن الإمبراطورية الأمريكية ستسبب الفوضى (Disorder) والوحشية (Barbarism) بدلاً من السلام والاستقرار ، ومما قاله هوبسبون «يكاد يكون من المؤكد سقوط الإمبراطورية الأمريكية ، فهل تتعلم من دروس التاريخ أم أنها ستحاول الاحتفاظ بمركزها العالمي الذي يزداد تآكلاً ، معتمدة على قوتها السياسية الفاشلة وقوتها العسكرية التي لا تكفي لتنفيذ أغراض الحكومة الأمريكية الحالية؟» . هوبسبون أيضاً هو مؤرخ متميز ، تخرج من جامعة كامبردج سنة ١٩٣٩ ودرّس في جامعات لندن ، ستانفورد ، MIT ، كورنيل ، وكتابه «عصر التطرف» تمت ترجمته إلى ٣٦ لغة .

سيكون انهيار الإمبراطورية الأمريكية مفاجئاً ؛ لقد خلقت العولمة ما يسمى Interdependencies أي تبادل الاعتماد على الآخر ، فأصبح الاقتصاد الأمريكي رهينة تحويلات خارجية من الصين واليابان ، يمكن أن يؤدي توقفها لسبب أو لآخر إلى انهيار النظام الأمريكي والرأسمالي العالمي . كذلك لو كان بمقدور دول النفط تحرير العملة الرسمية لشراء النفط بعيداً عن الدولار لانهار الاقتصاد الأمريكي ومعه الإمبراطورية الأمريكية ، فذلك سلاح دمار شامل ، حيث أن إجبار العالم على شراء الدولار لشراء البترول يعطي مطابع الدولار الأمريكي إمكانية شراء ٨٥ مليون برميل يومياً بسعر ٧٠ $ / البرميل أي ما يساوي ٥,٩٥٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار كل يوم وبدون غطاء . . . أي بكلفة ٥ سنتات لكل مئة دولار يتم طباعتها . . .! لكن هذا يحتاج إلى إجماع عربي ، في وقت أصبحت الفرقة بيننا قد وصلت إلى ما بين المرء وظله .

سيكون انهيار الإمبراطورية الأمريكية مفاجئاً وسريعاً على غرار انهيار إمبراطوريات شركاته العملاقة ، كما انهارت شركة ENRON أو شركة LTCM . شركتا السيارات العملاقة جنرال موتورز وفورد هما على شفا الانهيار ، ولقد تم تصنيف سنداتهما مؤخراً بأدنى الدرجات Junk Bonds في حين أن أرباحهما تأتي من فروعهما المالية التي تعمل بالإقراض وأعمال المال الأخرى . ما بين سنتي ٢٠٠٠ و٢٠٠١ انهار سوق المال ، ولعل الجدول أدناه يبين إمكانية سرعان الانهيار :

	من	إلى
سيسكو سيستمز Cisco systems	٥٩٠ مليار $	١١٨ مليار $
مايكرو سوفت Microsoft	٦٤٠ مليار $	٣٦٠ مليار $
ديل كمبيوتر Dell Computer	١٥٤ مليار $	٧٢ مليار $
إنتل Intel	٥١٠ مليار $	٢١٩ مليار $
صن مايكرو سيستمز Sun Microsystems	٢٠٨ مليار $	٦٢ مليار $
أوراكل Oracle	٢٦٠ مليار $	٨٣ مليار $

يقول الكاتب الأمريكي Kevin Phillips ، وهو أحد أقطاب الحزب الجمهوري في آخر كتبه (الدولة الدينية) ، «قوة قائدة كالولايات المتحدة هذه الأيام قد أصبحت دولة ثيوقراطية (دينية غير علمانية) . . . فرئيس الدولة المنتخب يعتقد أنه يتكلم نيابة عن

الله ، والحزب الحاكم يمثل المتدينين الذين يعتقدون بضرورة تبني الحكومة لشريعة الدين ، وعلى رأس ذلك كله هناك البيت الأبيض الذي يتبنى أجندة مبنية على النبوءات الدينية» . ويضيف «منذ انتخابات ٢٠٠٠ ، وخصوصاً انتخابات ٢٠٠٤ ، أصبحت ثلاثة أعمدة هي الأساس في السياسة الأمريكية : عقدة النفط وانعكاساته على الأمن القومي والمنتفعون منه ، واليمين الديني المتطرف وقوته الانتخابية المؤثرة والكبيرة ، وقطاع المال القائم على الإقراض والديون في الداخل والخارج . . .» . ويضيف كيفين «ولقد رتبت الولايات المتحدة قوتها العسكرية منذ سبتمبر ١١ ، ٢٠٠١ حول الدفاع عن حقول النفط ، وأنابيبه وخطوط إمداداته البحرية . أما سياسة الولايات المتحدة بالنسبة للشرق الأوسط فتأخذ بعداً آخر إضافة إلى النفط وهو ما يسمى بمحاربة الإرهاب ، فالبيت الأبيض يغازل المتدينين والناخبين الذين يرون بأن الأراضي المقدسة - فلسطين - ما هي إلاّ أراض لمعركة مصير المسيحية . ولذلك فإن المكونين الأساسيين للسياسة الأمريكية في الشرق الأوسط هما النفط والنبوءات الإنجيلية . . .» .

القابضون على السلطة من وراء ستار في الولايات المتحدة من أصحاب التجمع النفطي الصناعي العسكري ، قدّموا لواشنطن والعالم سنة ٢٠٠٠ طاقماً رائحته البترول . فالرئيس جورج دبليو بوش يأتي من إحدى أكبر الولايات التي تنتج البترول في الولايات المتحدة - تكساس - وهو ووالده من أصحاب شركات البترول ، ونائب الرئيس ديك تشيني كان لتوه الرئيس التنفيذي لأكبر شركة لخدمات البترول - هالبيرتون - ، ومستشارة الأمن القومي كونداليزا رايس جاءت لتوها من عضوية مجلس إدارة شركة شيفرون تكسسو العملاقة ، ولقد دُشنت ناقلة نفط كبرى باسمها . النفط الذي يحرك طائرات B52 ، F16 ، والغواصات الحاملة لصواريخ كروز بدأ بالنضوب داخل الولايات المتحدة .

كان العراق ، لولا أعمال المقاومة التي لم يحسب لها الأمريكيون أي حساب في خططهم ، هي الحلقة الأولى من مسلسل التغيرات لدول أخرى بالقوة العسكرية حيناً ، وبالجزرة حيناً آخر . وكانت الخطط تستهدف أصدقاء واشنطن تماماً كما تستهدف أعداءها .

إذا كانت قراءة التاريخ هي أداة لاستقراء الحاضر والمستقبل ، فماذا يكون استقراؤنا لأعظم وأعتى قوة في التاريخ بأساطيلها وأسراب طيرانها ، وترساناتها

النووية ، وهيمنتها الاقتصادية والسياسية ، وجبروت وكالاتها الاستخبارية الخمس عشرة ، كونها لم تستطع أن تهزم مقاومة مكونة من السنة ، وهم حوالي ٢٠٪ من سكان بلد صغير كالعراق لا يساوي في مجموع سكانه ٩٪ من عدد سكان الولايات المتحدة ، ولا يساوي اقتصاده ٣٪ من حجم الاقتصاد الأمريكي؟ أجاب عن هذا السؤال الكاتب الأمريكي المعروف جيمس رايزن James Risen في كتابه الأخير حالة حرب State of War كان آخر جملة فيه : «تموت الأحلام بصعوبة ، وأما أحلام إدارة بوش (الابن) فلقد ماتت في أماكن مثل الفلوجة والرمادي وتل عفار» . جواب أوجهه إلى النخبة من «المضبوعين» أو «المتبطحين» ممن يسمون بالنخبة في العالم العربي . ودعنا نذكرهم ناصحين لو نفعت الذكرى بما جاء في الصفحة الرابعة من كتابنا «إمبراطورية الشر الجديدة» : «بينما كان حلفاء الإمبراطورية البريطانية العرب يقاتلون الدولة العثمانية إبان الحرب العالمية الأولى ، كانت حكومة صاحب الجلالة تخطط سراً لنظام ما بعد الحرب ، نظام دويلات سايكس بيكو . وأعطيت فلسطين ممن لا يملك لمن لا يستحق . وكان حلفاء الإمبراطورية العرب أول الضحايا : فكلام الإمبراطوريات في الليل يمحوه النهار . لقد علمنا التاريخ قديمه وحديثه بأن حلفاء الإمبراطورية الجديدة اليوم لن يكونوا أكثر حظاً من حلفاء الأمس ، فاليوم ينتظر حلفاء الإمبراطورية الجديدة العرب «خريطة طريق» للشرق الأوسط الجديد يرسمها الصهاينة والصهاينة المسيحيون ، الذين استولوا على حكم الإمبراطورية الجديدة . وإلى أين ستأخذنا وتأخذهم هذه الخارطة؟ كانت آنئذٍ اسمها اتفاقية سايكس بيكو ، واليوم فإنها اتفاقية شارون بوش .

فليس للإمبراطوريات أصدقاء ولا صداقات . مات ماركوس في منفاه ، وضاقت الأرض بما رحبت بقبر يواري جثمان شاه إيران . جندت الولايات المتحدة ألوف المتطوعين البسطاء ليجاهدوا معها ضد الكفار السوفييت في أفغانستان . وبعد أن قُضي الأمر ، أين أصبح هؤلاء؟ منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر في غوانتنامو! ثم أين هو سوهارتو؟ وأما مانويل نورييغا فلقد بدأ حياته مخبراً ثم عميلاً من الدرجة الممتازة لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، حيث أوصلته إلى حكم جمهورية بنما . أما اليوم فهو السجين رقم ٤١٥٨٦ في أحد سجون ميامي الفيدرالية بولاية فلوريدا .

شعارات الحكم في عهد صدام حسين كانت الحرية ، الوحدة ، والاشتراكية . وخلال عشرات سنين حكمه لم ينعم العراق لا بالحرية ولا بالوحدة ولا

بالاشتراكية . وشعارات النظام الإمبريالي الأمريكي وغزواته الاستباقية كانت الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان . وبعد أكثر من ثلاث سنوات في العراق ، وقرن كامل من التدخل الأمريكي في الشؤون العالمية ، لم ينعم العراق ، ولا العالم من قبله ، لا بالحرية ولا بالديمقراطية ولا بحقوق الإنسان ، والتي تم انتهاكها الآن حتى في عقر الدار الأمريكية .

المحتويات

الإهـــداء

إلى ذكرى ناديا يونس ، الصديقة العزيزة التي قُتلت أثناء قيامها بواجبها للأمم المتحدة في بغداد بتاريخ ١٩ آب سنة ٢٠٠٣ .

وإلى

أديب الجابر ، أول مرشد لي في السياسة العراقية ، رجل يؤمن بمبادئ عظيمة دفع ثمنها فادحاً تحت حكم صدام .

وإلى

هيوم حوران ، الزميل القديم وصديق العمر ، الذي كان تلميذي سابقاً ، والذي حاول جاهداً أن يجد طريقة تعيد السلام إلى العراق .

تمهيد

بوصفي مؤلفاً ، كنت أشعر دائماً أن من حق القارئ أن يعرف ما الذي يحاول المؤلف أن يفعله وكيف يريد أن يفعل ذلك .

إنني أحاول هنا أن أقدم «صورة» عن العراق كاملة الآن إلى أقصى درجة ممكنة ، بحيث يستطيع القارئ أن يقيم الوقائع والأحداث اليومية التي غالباً ما تكون مشوشة . والفهم الأفضل مطلوب وضروري إذا أردنا مستقبلاً أسلم وأكثر تعقلاً وإنسانية للشعب في هذا المجتمع الجريح المضطرب ، وسعينا للوصول إلى علاقة بهم تكون أقل خطورة وكلفة وأكثر إيجابية وفائدة . وما وراء العراق في حد ذاته ، فإن الأحداث التي تقع في ذلك البلد ، سوف تلعب دوراً بارزاً في تشكيل طبيعة تفكير وطريقة تعامل الأمريكيين في أفريقيا وآسيا إلى سنوات طويلة قادمة . وليس فهم العراق إلا الخطوة الأولى نحو إدراك العالم الجديد الذي لا يتمتع بالكثير من الشجاعة ، والذي سنواجهه نحن وأولادنا .

كيف يمكن لنا أن نفهم العراق؟ أعتقد ، بوصفي مؤرخاً ، أن معرفة الحوادث في سياقها وتتابعها عبر الزمن يُعد عاملاً أساسياً في تصورنا للحاضر ، وقد تأثرت بعلماء الآثار القديمة (الأركيولوجيين) في الرجوع إلى البدايات ، بدلاً من مجرد اعتراض الأحداث في مكان ما من مسارها . وتعلمت من علماء الآثار القديمة أيضاً أن أحفر وأنقب تحت سطح الأفعال والوقائع لكي اكتشف أبعادها الاجتماعية ، بحيث أن القارئ سوف يجد أن هذا الكتاب قد أُلقيت شباكه على مساحات عريضة وأغوار عميقة ؛ لكي يضع الوقائع والمشكلات في سياقها التاريخي الأساسي أو المسبِّب .

واظبت على هذا العمل طوال مدة تزيد على نصف قرن من الزمان ، وقد ذهبت إلى العراق في أول زيارة سنة ١٩٤٧ ، وعشت هناك كزميل لمؤسسة روكفيلر خلال الفترة من ١٩٥١ - ١٩٥٢ ، وعدت إلى ذلك البلد عشرات المرات ، واطلعت على

جميع مواقع البلاد وزواياها . ولأنني أتكلم لغة أهل البلاد فقد أجريت مناقشات طويلة مع عدد لا يحصى من العراقيين . وكنت قد درست اللغتين العربية والتركية وآدابهما في جامعة اكسفورد ، وتوليت فيما بعد تدريس التاريخ والسياسة واللغة العربية وآدابها في جامعتي هارفارد وشيكاغو . وأخيراً ، كنت مسؤولاً عن تخطيط السياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط خلال إدارة كينيدي .

سيجد القارئ في هذا الكتاب زبدة بحوثي وخلاصة دراساتي ، وعصارة تجاربي عن العراق طوال نصف قرن من الزمان ، بالإضافة إلى تأملاتي الشخصية عن العراقيين على امتداد تاريخهم الطويل العريق ، فضلاً عن تصوراتي المدروسة عن المستقبل . وباعتباري مؤرخاً ومخططاً للسياسة الرسمية ، أرتجف هلعاً عندما أستعيد في ذاكرتي تلك المقولة الشهيرة للفيلسوف الألماني هيجل ، ومفادها «لم تتعلم الشعوب والحكومات شيئاً أبداً من دروس التاريخ ، ولا تصرفت في ضوء مبادئ مشتقة من تجاربه» . دعونا نبتهل أننا سنستطيع أن نثبت أن هيجل كان خاطئاً في تلك المقولة . وإلا ، فإننا سنكون ، كما أفاد الفيلسوف الأمريكي جورج سانتايانا ، محكومين بقدر لا يرد ولا يقهر ، يدفعنا بقوة حتمية إلى تكرار الأخطاء القديمة التي ارتكبتها الأجيال السابقة والأمم الأخرى .

مقدمة المؤلف

أول سؤال يخطر على بال القارئ قد يكون «لماذا العراق مهم؟» ومثل جميع الأسئلة البسيطة ، فإن هذا السؤال له أجوبة معقدة . وتتوقف تلك الأسئلة جزئياً على مَنْ الذي يسأل ، ومتى يسأل ، وماذا لديه في عقله . وسأبدأ الآن فوراً بالأمريكيين .

منذ شباط ٢٠٠٣ ، كان الغزو الأمريكي للعراق واحتلاله قد كلّفا أمريكا أكثر من ألف قتيل وخمسة آلاف جريح مصاب بإصابات خطرة[١] ، وأحدثا تأثيراً سلبياً على المصالح الأمريكية في العالم أجمع . والتكاليف لم تنته بعد ، والكلفة المالية الكلية قد ترتفع إلى نصف تريليون دولار أمريكي على الأقل . وسيزداد عدد القتلى والجرحى من الأمريكيين . وحجم هذه الزيادة غير معروف حتى الآن . ويعتقد معظم المراقبين أن إعادة بناء ما خسرته أمريكا مما أسماه الرئيس ايزنهاور «الاحترام الحميد من الإنسانية» سيستغرق سنوات عديدة . وفي حين أن الاحترام سريع الزوال ، إلاّ أنه ليس قليل الأهمية . فالأمم تعتمد كثيراً على ما سمي عن حق «بقوتها الناعمة» بقدر اعتمادها على قوتها الاقتصادية أو العسكرية وربما أكثر أحياناً . فالاحترام ، وحتى «الحب» كما يغريني القول ، الذي شعر به الآخرون نحو أمريكا ، كان - تقليدياً - أحد أهم وأثمن العوامل الإيجابية التي امتلكتها البلاد . وأخيراً ، كما أوضحت فضائح تعذيب المعتقلين والأسرى والسجناء ، والاستخفاف بالقانون الدولي ، والهجمات على الحريات المدنية الأمريكية ، فإن هذه الحرب ، مثل جميع النزاعات العنيفة ، قد جعلت أغلى وأعز خصيصة من

---

(١) حتى لحظة كتابة المقدمة . ولكنها كلفة تجاوزت الآن الألفين وستمائة قتيل ، وربما ٢٠ ألف جريح بينهم عدد غير قليل من المقعدين - المترجم .

خصائص أمريكا تتعرض إلى التآكل ، وهي الشخصية الوطنية التي قامت على الإيمان بالحرية والعدالة والسلوك المهذب .

اعتقد الأمريكيون ، بوجه عام ، أن الحرب ضد العراق كانت مبررة . وأخبرتهم حكومتهم أن العراق لديه أسلحة دمار شامل ، وأنه كان يخطط لهجوم على الولايات المتحدة ، وأنه كان ينشط في دعم الإرهابيين الذين اعتدوا على مركز التجارة العالمي والبنتاغون . وعندما ثبت أن هذه الاتهامات لم تكن صحيحة ، أصرت إدارة بوش أن السبب الأهم كان الطبيعة الشريرة والاستبدادية للنظام العراقي . تلك التهمة كانت صحيحة . ولكن من الواضح أنها لم تكن مقتصرة على العراق . فهناك أنظمة ، بما في ذلك أنظمة تمتعت بدعم أمريكي قوي من الإدارتين الديمقراطية والجمهورية معاً ، قد ارتكبت أعمالاً مسيئة مريعة بحق مواطنيها . ولم يكن هذا ، كما يعلم كل شخص تقريباً الآن ، هو السبب الحقيقي للهجوم الأمريكي .

هناك أسباب أكثر رجحاناً نوقشت علناً في أمريكا والخارج معاً . ومن بينها أن العراق يمتلك ثروة نفطية هائلة ، وأن إنتاج النفط العراقي هو الأقل كلفة في العالم قاطبة . وضمان استمرار تدفق النفط من الشرق الأوسط بأسعار مقبولة ، كان هدفاً أساسياً للحكومة الأمريكية طوال نصف قرن من الزمان . وعندما سيتم أخيراً الكشف عن عملية صنع القرار في إدارة بوش ، فمن الأرجح أن النفط سيحتل موقعاً بارزاً بين الأسباب التي أدت إلى تلك الحرب . وبوصفه نائباً لوزير الدفاع ، صرح بول وولفوويتز في قمة الأمن الآسيوي بسنغافورة في ٣ حزيران ٢٠٠٣ ، أن العراق كان معروفاً بكونه «يسبح» في النفط . ومع ارتفاع تكاليف الحرب ، ومع ابتعاد احتمال تحقيق الأهداف المعلنة للسياسة الأمريكية ، ومع ثبوت خطأ بيانات الحكومة ، أظهرت استطلاعات الرأي العام أن العديد من الأمريكيين قد بدأوا يفقدون ثقتهم بحكومتهم . وهذا أيضاً ينبغي أن يحسب بوصفه واحداً من تكاليف ذلك النزاع .

بالنسبة إلى العراقيين ، أخذ هذا النزاع وضعاً مختلفاً تماماً . وبالنسبة لهم ، فإن التكاليف والفوائد ليست مسألة إحصائية خالصة فقط . ومع ذلك ، فإن الإحصائيات مثيرة للاهتمام . وفي المرحلة الأولى ، مرحلة الغزو الفعلي والضربات الجوية ، قتل عشرة آلاف عراقي على الأقل ، وربما ضعف ذلك العدد عانوا من إصابات بليغة . ومن المؤكد تقريباً أن الأضرار التي أصابت الممتلكات جراء ذلك تزيد على ٢٠٠ بليون دولار ، نجمت بصورة رئيسية من حملة قصف جوي أشد وطأة مما تعرض له أي بلد

على الإطلاق باستثناء الأسلحة الذرية[١] . والآثار الأخرى التي ترتبت على عقد كامل من الزمان من الحصار الاقتصادي وسنتين من الاحتلال العسكري ، تبدو أقل وضوحاً[٢] .

وترعرع جيل كامل من الأطفال إلى مرحلة البلوغ ، محرومين من التغذية والعناية الصحية التي نالها أباؤهم وأمهاتهم عندما كانوا في أعمار مماثلة . ومن المحتمل أن نصف مليون طفل من هؤلاء قد أصابهم ضرر دائم ، وأجهضت أنماط الحياة أو تبدلت . وذلك الشعور المجرد ولكن الحقيقي «بالشرف» الوطني قد أهين . وآليات القانون والنظام ، وإن كانت بالتأكيد غير كاملة ، قلبت رأساً على عقب . وجيل كامل خسر سنوات حاسمة من تطوره .

وما يؤكد كثيرون أنهم قد كسبوه هو نهاية وضعت حداً نهائياً لطغيان صدام حسين . ومع ذلك ، فإن البعض[٣] يعتقدون الآن أن التغيير لم يكن كاملاً تماماً كما أعلنوا هم وأعلنا نحن في البداية ، بعد أن شاهدوا أمثلة من البربرية في معاملة السجناء والمعتقلين . وآخرون يقلقون ، وأنا منهم ، من أن الفترة الحالية من غير دكتاتور قد يثبت أنها كانت مجرد فترة بين هذا الدكتاتور والدكتاتور التالي ، حتى إن هناك البعض ممن يعتقد أن صدام إذا أطلق سراحه من السجن ، فإنه قد يعود مجدداً .

والنزاعات العديدة التي نشبت منذ الحرب العالمية الثانية كان ينبغي أن تعلمنا أن الحرب تجعل الإنسان متوحشاً . والعادات المكتسبة أثناء الصراع والمبررة بها يصعب التخلص منها حتى عندما يعود السلام . وكما سأوضح بالوثائق ، فإن العراق قد عانى من تاريخ طويل من العنف . وحتى في فترات السلام النسبي ، كانت لديه تجربة قليلة في النظام المدني البنّاء . واليوم ، فإنه يخوض صراعاً ضد الغزاة الأجانب من جهة ، وصراعاً آخرَ من جهة ثانية بين أولئك الناس من مواطنيه الذين يقبلون أن يعملوا معنا وأولئك الذين لا يقبلون . وبهذا المعنى أيضاً ، ما يحدث في العراق قد

---

(١) أكد بعض الخبراء الغربيين أن المتفجرات التي ألقيت على العراق في حملة قصيرة نسبياً ، تزيد أربع مرات عما ألقي على الرايخ الثالث طوال الحرب العالمية الثانية - المترجم .

(٢) تقول تقارير الأمم المتحدة إن مليون ونصف مليون عراقي توفوا بسبب الحصار الاقتصادي ، نصف مليون منهم من الأطفال - المترجم .

(٣) ازداد عددهم ازدياداً مذهلاً بمتوالية هندسية - المترجم .

يكون مؤشراً على مستقبله ، أو ربما مؤشراً على ما سيحدث في بلدان أخرى إذا تواصلت الحملة الصليبية الأمريكية .

إعادة بناء العراق قد تزوده بتسهيلات أفضل بدلاً من تلك التي دمرها القصف . كثير من العراقيين لا يعتبرون التسهيلات أهم وأغلى من استقلالهم . ويبدو ذلك واضحاً من شراسة هجماتهم على التسهيلات الجديدة ، وأيضاً على أولئك الذين يسعون إلى بنائها . ومثل بقية الشعوب ، يبدي العراقيون ميلاً واضحاً إلى وضع قيمة أعلى على الاستقلال بالقياس إلى الأشياء المادية ، حتى ولو كانت هذه الأشياء ضرورية من أجل طريقة أفضل في الحياة .

وتلك الطريقة الأفضل في الحياة تتوقف في النهاية على ظهور شكل من أشكال الحكومة التمثيلية ، التي تقوم على التسامح المتبادل وشيء من احترام سيادة القانون . والمسألة هل أنهم سيحققون ذلك تحت الاحتلال أو النفوذ الأمريكي هي مسألة مشكوك فيها . وهناك شيء مؤكد واحد : وهو أن مثل هذه الأمور لا يمكن أن تتحقق إلاّ بالتطورات الداخلية ، ولا يمكن أن يفرضها الأجانب . وهناك درس من الماضي يبدو مهماً هنا . فالتجربة العراقية فيما اسميته «العراق البريطاني» و«العراق الثوري» تثبت أن مفاهيم الحكومة التمثيلية وحكم القانون تحتاج في حد ذاتها إلى الحماية . وإذا تعرضت إلى التشويه بممارسات غير تمثيلية وغير قانونية وغير ديمقراطية ، فإنها ستكون مرة أخرى ، كما كانت فيما سبق ، كسيحة عند ولادتها .

بالنسبة إلى العالم ككل ، فإن حرب العراق قد دشنت تحولاً رئيسياً : وقد حذر الرئيس المصري حسني مبارك في عبارة ذكية ، من أنها خلقت مائة بن لادن بينما كانت في الظاهر قد شنت بهدف تدمير بن لادن الأصلي . وجعلت مهمة الإرهابيين أسهل ، لأنها أدت إلى تذمر عدد كبير من الناس واستيائهم ، في مناطق لم تكن تضم أي إرهابيين فيما سبق . والحرب قد استنزفت من الموارد ما كان مخصصاً للصراع ضد الجوع والإدمان على المخدرات والأمراض وحماية البيئة ، وأهدرتها على ما يسمى «الأمن» تلطيفاً . كما أن تلك الحرب قد أدت إلى انخفاض الاحترام للقانون والعدالة والحرية . وهكذا فإن الوقائع في العراق وحوله قد أحدثت موجات من التأثير على امتداد العالم ، من أمريكا اللاتينية إلى أندونيسيا ، ومن آسيا الوسطى إلى أفريقيا الجنوبية ، ومن إسبانيا إلى الفيليبين .

السؤال الثاني الذي قد يسأله القارئ هو : «ما هو العراق؟» دعونا نأخذ العراق

أولاً بوصفه دولة . وقد بولغ كثيراً في الحديث عن العراق باعتباره «دولة مصطنعة» . وذلك صحيح ، ولكن معظم الدول ما تزال كذلك أو كانت كذلك إلى وقت قريب . وقليل منها يرجع تاريخ احتفاظه بشكله الراهن إلى أكثر من قرن . وقليل منها متجانس في تكوينه . خذ الصين مثلاً (التي تتألف من ٥٦ أمة) أو روسيا (التي تتألف من ١٢ قومية على الأقل حتى بعد تفكك الاتحاد السوفيتي) ، أو الهند (التي تتألف من عشرات من القوميات بالإضافة إلى مكوناتها من الدول) ، أو إندونيسيا (التي تتألف من ١٠٠٠ قومية تقريباً) ، وجميع الدول الإفريقية القائمة الآن هي «دول مصطنعة» أقامتها القوى الأوروبية بحيث تلبي متطلبات مصالحها ومطامعها . هل هذه هي حالات استثنائية خاصة؟ كلا ، فحتى دول تاريخية مستقرة مثل فرنسا وإسبانيا قد اضطرت الآن إلى الاعتراف بطبيعتها متعددة القوميات .

عاش العراقيون طوال قرون تحت الإمبراطورية العثمانية ، وطوال آلاف السنين تحت أنظمة متنوعة أخرى . وسأناقش هذه التجارب التكوينية . وباختصار وبكلمة وجيزة ، أصبح العراق دولة بنهاية الحرب العالمية الأولى ، ليس بفضل جهوده الخاصة ، ولكن بفضل توجيهات الحكومة البريطانية . وكانت تلك الدولة العراقية تتألف من ثلاثة أجزاء ، كل منها كان في السابق ولاية من ولايات الإمبراطورية العثمانية . وعاش فيها الأكراد المسلمون من سنيين وشيعيين الذين يتكلمون باللغة الكردية وينتمون إلى العرق الهندو - أوروبي ، وكانوا يقطنون المنطقة الشمالية ، والعرب المسلمون السنيون الذين يتكلمون بلغة سامية هي العربية ويقطنون في المنطقة الوسطى ، وخليط من العرب المسلمين السنيين والعرب المسلمين الشيعين ، الذين يتكلمون جميعاً باللغة العربية ويقطنون المنطقة الجنوبية . وقد عاش هؤلاء بوجه عام مجتمعين بعضهم مع بعض في دولة وطنية منذ سنة ١٩٢١ حتى الوقت الحاضر ، ولم تكن العلاقات بينهم متجانسة أو مستقرة . ولكنهم وجدوا أن تلك العلاقات أكثر قبولاً لديهم من البدائل المتوافرة . وقد تعلموا بالتجربة أن الأجانب ، أو هم أنفسهم ، إذا وضعوا نبرة التأكيد والتشديد على خلافاتهم ، فإنهم غالباً ما يدفعون ثمناً باهظاً للفشل في إيجاد قواسم مشتركة وقضايا جامعة .

أرض العراق ، مثل شعبه ، تتميز بالتنوع والتباين ، ولكنها موحدة . وهذه الوحدة الإقليمية تقوم على عاملين اثنين هما : حقيقة النظام النهري للنهرين دجلة والفرات ، وحقيقة أنه لولاهما لكان العراق كله تقريباً قد أصبح صحراء قاحلة جرداء ، باستثناء

الشمال وجزء من الشرق ؛ لأن السماء لا تجود بالمطر على هذه البقعة إلاّ بأقل من ٨ انشات أو ٢٠ سنتيمتراً في السنة الاعتيادية من الكميات التي تحتاجها الزراعة .

والمساحة الكلية للبلاد ، كما أصبحت عند تأسيس الدولة في سنة ١٩٢١ ، تقرب من ١٧٢٠٠٠ ميل مربع ، أو ٤٣٧٠٦٥ كيلو متراً مربعاً . وهذه المساحة هي أكثر قليلاً من مساحة كاليفورنيا ، وأقل قليلاً من ثلثي مساحة تكساس . وعلى الأطراف الشمالية والشرقية من البلاد ، تمتد سلاسل جبلية تشغل ٥ بالمائة من المساحة الكلية . وسلسلة جبال زاغروس تشكل قوساً يمتد على الحدود التركية والإيرانية ، يبلغ طولها حوالي ٢٥٠ ميلاً أو ٤٠٠ كيلو متر ، وعرضه ١٢٥ ميلاً أو ٢٠٠ كيلو متر . وتهطل كميات كافية من الأمطار على جبال زاغروس التي كانت مهد الثورة الزراعية ، التي جعلت من الممكن أن تنمو الحضارة العراقية القديمة الأولى في فجر التاريخ .

الجبال الشاهقة التي تصل إحدى قممها إلى ارتفاع ١٢٠٠٠ قدم تقريباً أو ما يعادل ٣٦٠٧ أمتار ، الأبرد من السهول ، تتميز بسفوحها الوعرة ووديانها العميقة ، وتقطنها شعوب مستقلة نشيطة ، قوية الشكيمة ، محبة للقتال نعرفها اليوم باسم الأكراد . ولا يعيش جميع الأكراد في العراق ؛ فنسبتهم تصل إلى واحد من كل عشرة إيرانيين ، وواحد من كل تسعة سوريين ، وواحد من كل خمسة أتراك . وإذا نظرنا إلى كردستان ، بلاد الأكراد ، فسنجد أنها أكبر من العراق . وتبلغ مساحتها حوالي ٢٠٠٠٠٠ ميل مربع ، أو ما يعادل ٥٢٠٠٠٠ كيلو متر مربع ، وهي مساحة تعادل تقريباً مساحتي كاليفورنيا وبنسلفانيا مجتمعتين . ومساحة كردستان ، وتنوع تضاريسها ، وفشلها في الوصول إلى دولة واحدة ، وموقعها الجغرافي ، كانت وتبقى من المؤثرات القوية على العراق ، بل على الشرق الأوسط بأسره .

في المنطقة الوسطى من البلاد ، هناك سهل منبسط يشكل الربع تقريباً من المساحة الكلية للعراق ، أي حوالي ٤٧٠٠٠ ميل مربع ، أو ما يعادل ١٢١٥٠٠ كيلو متر مربع . وهذه المنطقة هي طبيعياً (أي قبل أن يصار إلى إرواء بعضها) صحراء استوائية تتميز بفصول من الصيف شديد الحرارة عديمة المطر . وحوالي ربع تربتها صالح للزراعة من الناحية النظرية . ولكن بسبب الحرارة الشديدة للشمس المحرقة ، فإن التبخر يكون سريعاً ، وبسبب سوء تصريف المياه فإن الملوحة هي مشكلة قائمة في كل مكان . والمنطقة الواقعة إلى الجنوب من بغداد كانت ، منذ أن بدأ التاريخ ، صراعاً بين الحياة والموت . والجنوب ، وهو خزان ماء العراق ، كان إلى وقت قريب مجرد مستنقع واسع ،

وعند أسفل الجنوب ، حيث يلتقي النهران ، يقع المنفذ الوحيد إلى الخليج الفارسي .

حياة العراق تعتمد على أنظمة مياه النهرين دجلة والفرات . وحوالي ١٢٥٠٠ ميل مربع فقط ، أو ٣٢٣٧٥ كيلو متراً مربعاً - أي ما يعادل تقريباً مساحة ولايتي ماساشوستس وكونيكتيكوت مجتمعتين - يمكن أن يروى . وكل أرض زراعية أخرى ينبغي أن تسقى من مياه النهرين . ونهر الفرات ينبع في تركيا ويجري عبر سوريا ، وأقل من نصف مياهه ينبع في العراق . وعندما يصل إلى بغداد ، يكون حجمه بقدر حجم نهر اركنساس في ليتل روك تقريباً . أما نهر دجلة ، الذي ينبع معظم مياهه في الجبال العراقية ، فحجمه بقدر حجم نهر ميسوري في مدينة كانساس تقريباً . وهذان النهران وروافدهما ، قد أتاحا زراعة ما يكفي من القمح والشعير ، بالإضافة إلى بعض الخضراوات والأرز والتمور التي تسد الحاجات الغذائية لسكان قليلي العدد . ومنذ وقت أقرب ، كان على العراق أن يستورد معظم ما يستهلكه . وهكذا ، وعلى الرغم من صورة العراق بوصفه «جنة عدن» ، فإنه بلد فقير .

فقير بما يوجد على سطح الأرض فقط ، أما تحت السطح فهناك عدد من أحواض النفط التي يحتمل أن تكون في جملتها أكبر أحواض من نوعها في العالم . وأول حقل جرى تطويره كان في كركوك في الشمال الكردي . وجرى تطوير حقول أخرى في الجنوب بعد الحرب العالمية الثانية . ومن المعتقد أن هناك بحراً واسعاً من النفط ما يزال غير مستغل تحت المنطقة التي سُميت مؤخراً «المثلث السني» حول بغداد . وهذا الحقل قد يحتوي لوحده كمية من النفط تساوي تلك الموجودة في جميع حقول المملكة العربية السعودية . والنفط كان نقمة ونعمة معاً للعراق : نقمة لأنه أثار مطامع الآخرين ، ونعمة لأنه أتاح الموارد التي أنفقت في تنفيذ برامج رئيسية للتطوير الاقتصادي والاجتماعي ، وأدت أحياناً إلى إثراء الشعب .

عندما كان على العراقيين أن يعتمدوا على الزراعة كلياً تقريباً ، كان عددهم قليلاً . وعندما عشت في ذلك البلد للمرة الأولى في الخمسينيات ، كان عدد العراقيين حوالي ٥ ملايين نسمة . وقد تضاعف عدد السكان خمس مرات في غضون نصف القرن الماضي من الزمان ، على الرغم من الحروب والعقوبات وعمليات القمع ، حتى وصل اليوم إلى حوالي ٢٤ مليون نسمة[1] . وحوالي واحد من كل

---

(١) يصل اليوم إلى ٢٧ مليون نسمة تقديراً - المترجم

ثلاثة يعيشون في بغداد والموصل والبصرة . وبما أن حوالي نصف العدد الكلي للسكان يتألف اليوم من أشخاص تبلغ أعمارهم أقل من ١٥ سنة ، فإن الزيادة ، وبالأخص في المدن ، ستكون سريعة .

والخلاصة أن العراق والعراقيين ، كائنة ما كانت الظروف والأحوال ، كانوا وسيبقون ، عاملاً مهماً لاقتصاد العالم كله ، واستقراره ، وسلامه .

السؤال الثالث هو «ما الذي يميز العراق؟»

أو بعبارة أخرى ، ما الذي يجعل العراق مختلفاً عن المكسيك أو فرنسا أو روسيا؟ هذا السؤال أساسي ومتكرر في هذا الكتاب . والجواب يوجد في تاريخه . والخصائص التي تميزه بوجه خاص هي أصداء من أقدم الأزمنة تنطوي على توجهات ومواقف ومخاوف وآمال . وحتى عندما لا «يعرف» العراقيون تاريخهم ، فإنهم مسيرون به ومتجاوبون معه . ونحن الذين نأتي من بلاد بعيدة ينبغي أن نصغي بانتباه لهذه الأصداء إذا أردنا أن نفهم العراقيين المعاصرين . وهذا هو السبب ، من بين أسباب أخرى ، الذي جعل هذا الكتاب يهدف إلى تقديم صورة عن المسار الطويل للتاريخ العراقي .

هذا المسار الطويل قد دخل في الواقع إلى صلب تكوين أرض العراق . وفي حين لا يوجد إلاّ عدد قليل من الأنصاب الكبرى مثل أهرامات مصر ، لأن العراقيين استخدموا الطابوق المفخور في البناء بدلاً من الحجر ، فإن الطابوقة المفخورة ذاتها أصبحت نوعاً من التاريخ الحي . ترتفع تلول طينية إلى علو شاهق فوق السهل المنبسط في شمال العراق . وتبدو كما لو كانت براكين خمدت منذ وقت طويل ، وبنيت فوقها مدن حديثة . والناس العاديون الذين يعيشون فيها ويقضون حوائجهم اليومية لا يتملكهم إلاّ شعور غامض بأن ما يوجد تحت أقدامهم ليس براكين أو تلولاً ، بل مئات الأقدام من الخرائب والأنقاض التي تمثل تاريخ أسلافهم المغطى بالأتربة والأحجار . ومع قدوم كل جيل جديد من السكان عاش ومات ، وابتنى البيوت وهدمها ، وأحضر التجهيزات ورمى النفايات ، كان التل يكبر ويزداد ارتفاعاً . والناس اليوم لا يعرفون الكثير عن أولئك الذين عاشوا في المدن الموجودة تحت أقدامهم . ولكن حياتهم قد تشكلت بمعالم التل ، وأيضاً إلى حد لا يمكن معرفته ، بطريقة لا واعية ، بذكريات أولئك الذين عاشوا هناك من قبل .

وهذا الكتاب هو جزئياً محاولة للتنقيب في هذه التلول من الذكريات للتوصل

إلى فهم أسس الحاضر ، وللتوصل إلى ما أعتقد أنه أفضل تصور ممكن ، ابدأ من البداية ذاتها . الفصل الأول يبحث كيف جاءت الشعوب القديمة إلى العراق ، وما الذي فعلته هناك لكي تبني وتقيم «الحضارة» . وفي الفصل الثاني أبحث مجيء الإسلام ، وقيامه بإعادة تشكيل المجتمع العراقي ، والتراث الذي تركه . والفصل الثالث يبحث في تكوين الدولة الحديثة تحت الحكم البريطاني المباشر وغير المباشر من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٥٨ . والفصل الرابع المعنون «العراق الثوري» أبين فيه ما الذي حدث بعد إسقاط الملكية ، وتقليص النفوذ البريطاني ، والتيارات الاستبدادية التي كانت كامنة بالفعل ، ولكنها تضخمت تحت سلسلة من الديكتاتوريين انتهت بصدام حسين . والفصل الخامس يغطي فترة السيطرة الأمريكية من حرب الخليج سنة ١٩٩١ حتى الإعادة الجزئية للسلطة إلى حكومة نصبتها الولايات المتحدة . وأخيراً في الفصل السادس ، أقوم بجمع هذه التيارات لكي أقدم تقديراتي واستنتاجاتي عن مستقبل البلاد وعلاقتها ببقية العالم .

الفصل الأول
العراق القديم

قبل حوالي ١٢ ألف سنة ، بدأ أسلاف سكان العراق اليوم يخرجون من ظلمات ما قبل التاريخ . ونحن لا نستطيع أن نراهم بوضوح ، ولكن لدينا فكرة عن طريقة معيشتهم . كانت تلك الأقوام تعيش في جماعات تتألف من ٥٠ شخصاً أو ما يقارب ذلك . وكانت تقيم على امتداد سفوح الجبال التي تفصل العراق الحديث عن سوريا وتركيا . ولم يكونوا يستوطنون القرى الدائمة الثابتة ، بل كانوا يأوون إلى أكواخ متنقلة مغطاة بجلود الحيوانات . وكان الرجال يصطادون الحيوانات البرية ، في حين كانت النساء يجمعن الحشائش والنباتات البرية ويستخرجن منها البذور التي يطحنها ويحولنها إلى مواد صالحة للأكل .

وكانوا يستخدمون مناجل بدائية حافتها الداخلية مصفوفة بشظايا من أحجار الصوان الحادة ويتجولون في الوديان ، بحثاً عن جميع المواد الصالحة للأكل التي يلتقطونها ويجمعونها ، ويدفعهم الجوع إلى تناول كل ما يجدونه من تلك الأشياء .

علماء الآثار القديمة والمتحجرات النباتية أجروا دراسات على مواقع مخيماتهم فعثروا على بقايا مائة نوع مختلف من أنواع البذور . وكانت الحيوانات والبذور متوافرة بكثرة ، ولكن كل يوم كان يحمل لهم مجازفة . ولا بد أن المجاعة كانت الخوف المزمن الذي لازمهم وأقضّ مضاجعهم . وعلى الرغم من أن حياتهم في المعدل المتوسط كانت سهلة نسبياً ، إلاّ أنهم كانوا يعيشون بالفعل معيشة الكفاف . وقد يحدث تغير طارئ في المناخ يؤدي إلى هجرة الحيوانات البرية التي يعتمدون عليها في غذائهم إلى أماكن بعيدة لا يمكن الوصول إليها ، أو يجعل الأعشاب والنباتات البرية تذبل وتذوي .

وما إن يستهلكوا جميع موارد الغذاء في مكان ، بحيث لا تعود ثمة حيوانات

يمكن اصطيادها أو بذور يمكن جمعها والتقاطها ، حتى تنتقل قبائل بأكملها إلى مكان آخر جديد بعد أن تجمع حاجياتها القليلة وتحملها معها . وفي كثير من الأحيان ، كانت هذه القبائل تخبئ في مواقعها القديمة كميات من البذور في حفر أو سلال مبطنة بالطين ، على أمل الرجوع إليها في وقت لاحق . ومن المدهش ، في مثل هذه الظروف ، أنهم قد تركوا تراثاً غنياً ؛ لأنهم أصبحوا أول المزارعين من البشر .

لا أحد يعرف بالضبط كيف بدأوا هذه المبادرة الثورية الجديدة ، ولكن من المحتمل أن هذه الثورة الزراعية قد حدثت جزئياً بالمصادفة من حين إلى آخر ، شخص ما ، ربما كان طفلاً ، قلب سلة أو أسقط سهواً حفنة من البذور . ومن المحتمل أيضاً ، أن بعض البذور على الأقل التي خزنوها في السلال أو الحفر قد امتصت مياه الأمطار . والكثير منها بالطبع كان قد تعفن وفسد . ولكن ، عبر السنوات الطويلة ، كان بعضها ينمو ويتبرعم ويتحول إلى ما يسميه البستانيون المعاصرون «النبتات التلقائية» . رجال القبائل راقبوا ذلك ، وخصوصاً النساء ، وكان طبيعياً أن يجدوا من الملائم أن تنتشر النبتات التلقائية في مخيماتهم أو حولها وفي الثقوب المائية حيث كان يسهل التقاطها وجمعها .

في أوقات مختلفة ، عندما وحيثما تهطل أمطار غزيرة في الجبال على امتداد المناطق الشمالية مما يشكل الآن العراق ، بدأ بعض الأشخاص يذرون ويغربلون البذور أو البراعم . ونحن نعلم ، في ضوء النتائج ، أن ما كان ربما مصادفة قد تحول بالتأكيد إلى خطوة واعية مقصودة . وبعصي مدببة مثل تلك التي يستخدمونها في استخراج الدرنات من الجذور (والتي استخدمها الرجال كرماح أطلقوها على الماعز البري) ، أحدثوا حفراً صغيرة في الطين الطري بجانب ثقب مائي أو على جرف جدول ، وأسقطوا فيها بضع حبات . ومن المحتمل أن البذور قد ماتت ولم تنبت في معظم الأحيان ، ولكن بعضها تفتح ونبت . والمحظوظون من هؤلاء ، أو الذين قاموا بعملهم على الوجه الصحيح ، كانت لديهم فرصة أفضل من جيرانهم الأكثر تخلفاً للبقاء في مواجهة المجاعات المتكررة من فترة إلى أخرى . الخوف من الجوع كان معلماً عظيماً . ويعتقد علماء المتحجرات النباتية أن شعوب هذه القبائل المغامرة - والجائعة - قد حققت خلال أجيال قليلة أول الإنجازات الفذة في التدجين . وكانت منافع هذه التجارب واضحة إلى الحد الذي جعل الأمثولة تنتشر على نطاق واسع وتنتقل من مخيم إلى مخيم . وفي وقت ما ، حوالي سنة ٦٠٠٠ ق . م . بدأت «الزراعة» .

وخلال هذه السنوات أيضاً ، فإن الطرائد التي كانت وفيرة فيما مضى ، أصبح العثور عليها واصطيادها أكثر صعوبة . بعض الجماعات الصغيرة المتناثرة على امتداد سفوح سلسلة جبال زاغروس وفي وديانه - المنطقة التي عرفت بالهلال الخصيب بسبب غزارة أمطارها - كانت قد بدأت عملية سميت «الترويض» ، وقد روّضت جزئياً قطعاناً من الماعز ، إلى حد بعيد كما يفعل اللابلانديون[١] اليوم مع حيوانات الرنة[٢] التي ما تزال برية . وعلى الرغم من أن الماعز تُعد من الحيوانات التي تستهجن وتلعن اليوم لأنها تنشر الخراب في الأنظمة البيئية الهشة ، إلاّ أنها حملت فائدة جمة إلى هؤلاء المزارعين الأوائل . ومن تراكمات عظامها في مواقع مخيماتهم ، نعلم أن لحم الماعز كان يشكل شطراً كبيراً من غذائهم . وقد قتلوا أعداداً هائلة من الماعز . ولكن لا بد أن بعض الصيادين توصلوا إلى الاستنتاج أن قتل أعداد من الماعز أكثر مما يستطيعون أن يأكلوا ستتمخض عنه جثث هامدة متعفنة تجتذب الحيوانات المفترسة التي تقتات باللحوم . وبما أنه لم تكن هناك من فائدة في قتل جميع الحيوانات ، فقد تكون هناك طريقة لتأجيل موت بعضها على الأقل . وكان الاحتفاظ بها سهل نسبياً ، لأن الماعز تمتلك قدرة فائقة على التكيف وتستطيع أن تتكاثر بالقليل من العلف . والماعز ساهمت مساهمة كبرى في بقاء رجال القبائل أولئك ، الذين تجشموا عناء تدجينها ، لأنها زودتهم ، بالإضافة إلى اللحم ، بالحليب الذي بدأ رجال القبائل يشربونه ، والوبر للملابس ، والشحم الحيواني للإضاءة والطبابة ، والعظام لصنع الأدوات ، والأعصاب للربط ، والروث للوقود .

جمع قطعان الحيوانات وتربيتها ، وبعد ذلك تدجينها ، خلقا فوراً وضعين جديدين كان لهما تأثير كبير ودائم . وللمرة الأولى ، أصبحت لدى المستوطنات الصغيرة موارد للغذاء المتوازن مضمونة نسبياً . وعدد أقل من الناس أصبحوا يموتون بسبب الجوع ، وعدد أكبر من الناس أصبحوا يعيشون مدداً أطول . ومع ازدياد عدد السكان ، تأكدت الاتجاهات الأولية واكتسبت المزيد من الرسوخ . وزراعة المحاصيل جعلت الاستقرار في مكان واحد ممكناً وضرورياً معاً . ولكن ترويض الحيوانات أو

(١) اللابلانديون : شعب مترحل يعيش على صيد الاسماك والثديات البحرية في شمالي اسكندينافيا وفنلندا - المترجم .

(٢) الرّنة : نوع من الأيائل - المترجم .

جمعها في قطعان كانت تتطلب درجة من الحركة . ومن هنا ، فإن عمليات تقسيم الأعمال التي مارسها أولئك القدماء منذ وقت طويل ، أصبحت أكثر وضوحاً ورسوخاً . وفي حين مكثت النساء مع الشيوخ والأطفال في القرية ، فإن الشبان ذهبوا إلى الخارج ، للصيد أو جمع القطعان ، وكانوا يغيبون أسابيع أو شهوراً في كل مرة . هذا النمط من المعيشة الذي أصبح سمة غالبة انطبعت بقوة من جيل إلى جيل في التجربة اليومية ، إلى الحد الذي أصبحت فيه طريقة مشتركة للحياة ، بقيت قائمة إلى ما قبل سنوات قليلة في جميع قرى العراق .

عند ذاك ، في وقت ما حوالي سنة ٦٠٠٠ ق . م . ، أصبحت جبال العراق وسفوحه وسهوله أكثر حرارة وجفافاً . والمناطق المرتفعة ، التي شهدت ظهور الزراعة ، لم يعد بوسعها أن تفي بالحاجات الغذائية للناس الذين أخذت كثافتهم السكانية تزداد باستمرار . ومن أجل البقاء ، هاجر كثيرون إلى الأماكن التي تتوافر فيها مياه أغزر وأكثر . ومن المحتمل أن الحيوانات أرشدتهم إلى الطريق في هجرتها الجماعية السنوية من الأراضي المرتفعة في الصيف ونزولها إلى السهول في الشتاء . ويحتمل أن الصيادين كانوا قد أقاموا بالفعل مخيمات وقتية على ضفاف الأنهر الكبيرة . ومع نمو التجمعات الصغيرة إلى أحجام تفوق مواردها أو هجرة الرجال بسبب النزاعات المحلية المستعصية ، فإن نساءهم وأطفالهم كانوا يتبعونهم . وحتى لو كانت هذه التحركات وقتية أصلاً ، فإن العديد من الناس بدأوا يمكثون في مواقعهم ويستقرون في أماكنهم .

وفي حين أن معظم مناطق السهول لم تكن في مثل جاذبية الجبال ، فإن جاذبيتها بدأت تزداد تدريجياً . والأساليب التي جعلت الزراعة ممكنة في المناطق الشمالية الباردة ، استطاعت أن تحقق النتائج الإيجابية نفسها في أهوار الجنوب الحار ومستنقعاته . وبدلاً من الأمطار ، كانت المياه تأتي من النهرين في فيضانات موسمية . وكان بعض الماء يتبقى في شبكة من الجداول والبرك التي تشكلت بمحاذاة المجاري الرئيسية . وما إن انتشرت هذه الأخبار بالتواتر ، حتى تقاطر الجبليون إلى الجنوب . وكانت حياتهم في البداية قاسية جداً ، ولكن بعد خمسة قرون جافة وحارة ، تبدل المناخ مرة أخرى . وبعد أن أصبحت الأمطار أكثر غزارة وانتظاماً ، بدأت جماعات صغيرة من رجال القبائل الذين تحولوا إلى مزارعين بدائيين ، تتحرك على مسافات أبعد باتجاه الجنوب نحو الأراضي الواقعة بين دجلة والفرات . واستقرت الجماعات المذكورة في تلك المناطق ، وشيدت عشرات من القرى الصغيرة . وهناك ،

وطوال مئات من السنين ، استقر الشعب ، الذي أطلق عليه علماء الآثار القديمة اسم «العبيديين» (نسبة إلى اسم أحد مواقعهم) ، حرفياً في طين النهرين العظيمين . وبدأ هؤلاء الثورة الثانية الكبرى في الزراعة ، بحفر الترع الضحلة والسدود البدائية للسيطرة على المياه . والزراعة الأكثر تطوراً التي مارسوها أرغمتهم على نحت كلمة تعني «الحقل» . ولكي يضعوها موضع التنفيذ ، اخترعوا أداة ثورية جديدة هي سلف المحراث . وعندما أدت خيرات النهرين إلى ازدياد ثرواتهم ، بدأوا في تحويل طاقاتهم ، التي كانوا فيما مضى قد أوقفوها على الزراعة ، إلى ميادين أخرى . ونحن نعرف ذلك لأن المهاجرين اللاحقين إلى المنطقة ، وهم أناس يتكلمون لغة مختلفة ، استعاروا كلماتهم التي تدل ليس فقط على الحقل والمحراث ، بل أيضاً تدل على النجار ، والنساج ، والخزاف ، والحداد ، والبناء ، ولعل ما هو أهم وأخطر من أي شيء آخر بالنسبة إلى مستقبل العراق ، أنهم تعلموا كيف يصنعون الطابوق من الطين والقش . وهكذا وضعوا حرفياً الأساس الذي قام عليه العراق . وفي منطقة فقيرة بالخشب وخالية تماماً من الحجر ، أتاح الطابوق للمرة الأولى أن تبنى القرى الثابتة . وبعضها سيتحول إلى بلدات ، والقليل منها سيتطور إلى مدن .

بينما واصل العبيديون عملهم في حقولهم ، بدأت مجموعة أخرى من البشر في الوصول إلى جنوب العراق ، ولعلهم أتوا من المنطقة نفسها في الشمال . ونحن نطلق على هذه الجماعة اسم السومريين نسبة إلى إحدى مستوطناتهم .

السومريون كانوا أحد أكثر الشعوب إبداعاً واستثارة للإعجاب في التاريخ . ومع ظهورهم على مسرح الزمن ، نستطيع نحن أن نبدأ الحديث عن «التاريخ» . ومعظم ما حققوه في مختلف المجالات أرسى الأسس الاجتماعية والاقتصادية والدينية للحضارة العراقية اللاحقة . ومع ذلك ، فالمفارقة هي أننا لا نستطيع إلاّ أن نخمّن هويتهم . ولغتهم هي أفضل دليل لدينا . فاللغة السومرية لا تنتمي إلى عائلة اللغات الهندية- الأوروبية التي تشمل اللغة الإنجليزية ، واللغات الرومانسية[1] ، واليونانية ، والروسية ، والفارسية ، والهندية[2] ، وهي أيضاً ليست لغة سامية مثل العربية ، أو العبرية ، أو الأكدية ، بل إنها تنتمي إلى عائلة لغوية أخرى يسميها اللغويون «لغات ملزنة وشبه

(١) أي اللغات الناشئة عن اللاتينية - المترجم .

(٢) المقصود لغة شمال الهند الأدبية والرسمية - المترجم .

المندمجة ذات الأحرف اللينة المتناغمة» . والسومرية تشترك في هذه الخصائص مع اللغات التركية والفنلندية والهنغارية والعيلامية وعائلة اللغات الدرافيدية[1] في الهند . وهذه القرابة اللغوية توحي أن الناطقين بلغة مشتركة أقدم ، ومن المحتمل أنهم بدو من جنوب أواسط آسيا ، كانوا قد انتشروا قبل قرون على قوس واسع يمتد من فنلندا عبر أوروبا مروراً بالعراق إلى الهند .

وعندما دخلت إلى عصر الكتابة ومرحلة التدوين ، حوالي سنة ٣٠٠٠ ق . م . كانت اللغة السومرية قد نقلت من اللغة العبيدية عدداً من الكلمات ، بما في ذلك أسماء القرى . وهذا يدل على أن السومريين قد مروا بعملية شبيهة بتلك المعروفة في أمكنة أخرى وأزمنة لاحقة . الوافدون «البرابرة» يمضون سنين ، وحتى أجيالاً وقروناً ، في القيام بأعمال يدوية خدمية بينما هم يتعلمون حضارة المقيمين وتكنولوجيتهم . وكانت هذه هي السمة السائدة لدى القبائل الجرمانية ، وأيضاً لدى القبائل التركية في الإمبراطورية البيزنطية والقبائل المغولية في المناطق الشمالية من الصين . وحقيقة أن اللغة السومرية تحتوي على كلمات تدل على حِرَف مقتبسة من العبيديين ، تبيّن أن السومريين الوافدين قد فعلوا شيئاً شبيهاً بذلك في العراق . وبعد ذلك ، مثل الجرمان والأتراك والمغول ، أصبحوا أقوى ساعداً وأكثر جرأة واستعداداً للاقتحام ، حتى استولوا في النهاية على المستوطنات القائمة . والعديد من القرى التي تحمل أسماءً عبيدية تطورت بسرعة إلى مدن سومرية .

وما إن عاش السومريون في المدن ، حتى تفجرت مواهبهم في فورة رائعة من الإبداع المذهل غير المسبوق ، واقتبسوا أساليب العبيديين في الزراعة ، وطوروها . فأعادوا تنظيم الجداول والبرك ، وأنشأوا شبكة أوسع وأكفأ للري . وسرعان ما أدت هذه الشبكة إلى إنتاج فائض أكبر من الغذاء ، وهذا أدى بدوره إلى تكاثر عدد السكان . ومع ازدياد حجم المدن حوالي الألفية الرابعة قبل الميلاد ، ضعفت وشائج النسب والجيرة الحميمة ، ولم تعد كافية لمنع النزاعات الهدامة . وبدأ عدد قليل من المجتمعات يتوصل إلى بدائل لآليات التهدئة التي كانت تقوم على النسب . ومن بين أقدم وأنجح هذه الآليات كانت الوطنية المبنية على الدين . ومن الناحية الفعلية ، كانت كل مدينة ، أو على الأقل المدن التي استطاعت أن تحافظ على بقائها ، حوّلت

(١) لغات جنوب الهند وشمال سيلان – المترجم .

نفسها إلى نحلة دينية ترتكز إلى مقام أو معبد . وضمن المساحة التي ترسمها أحجارها الحدودية ، عمدت تلك المجتمعات إلى تتويج إله على عرش المعبد بوصفه «مالك» المدينة . أما حظوظ المدينة وأقدارها فإنها فُهمت وفُسِّرت برضى الإله أو غضبه . فإذا وقعت كارثة ، فسيعلم الجميع أن الإله كان غاضباً . وكان التحدي يتمثل في معرفة ما يريده الإله .

بعض الناس زعموا أنهم يمتلكون هذه الموهبة الفريدة . ونحن لا نعرف كيف أقنعوا مواطنيهم ، ولكننا نعرف أنهم فعلوا ذلك . هؤلاء «المفسرون» سرعان ما أصبحوا مهنة متخصصة ، كان أبناء المجتمع يتوجهون إليهم للقيام بالطقوس الرامية إلى كسب الرضى الإلهي . وكان هؤلاء يعملون باسم الإله ويديرون بيته ، أي المعبد ؛ ولهذا أعطوا أنفسهم حق المطالبة بالعطايا للإله . وهكذا استطاعوا أن يجمعوا ممتلكات «أداروها» نيابه عنه . فأصبحوا أغنياء ، وأصبحوا من ثم أقوياء . ولأنهم أصبحوا أقوياء ، أصبحوا أيضاً يتمتعون بالاحترام . والخلاصة ، أنهم كانوا روّاد أسلوب أوتوقراطي[1] في الحكم أصبح سمة غالبة في العراق إلى هذا اليوم .

بينما أقامت شعوب عديدة مراكزَ للحج ، فإن استمرارية المدن المقدسة في العراق ملفتة للنظر ومثيرة للانتباه . نيبور ، معبد الإله انليل ، كان قد تأسس خلال الأزمنة العبيدية ، وكان مسكوناً طوال ما يقارب ٥٠٠٠ سنة . وفي حين أننا لا نستطيع سوى أن نخمن كيف وإلى أي مدى استطاع هذا المسار الطويل للتجربة الإنسانية أن يترك طابعه على القيم والمواقف اللاواعية لشعب من الشعوب ، أعتقد أننا ينبغي أن نفترض أنه قد أحدث مثل ذلك التأثير بالفعل . وبكيفية من الكيفيات ، وبطرق لا نفهمها ، تتكون الحضارات وتحافظ على بقائها واستمرارها في خضم الأحداث المضطربة والتقلبات العنيفة التي يشهدها التاريخ . وفي العراق ، نيبور والمدن «المقدسة» الأخرى ، أصبحت النماذج اللاواعية للمدن الشيعية المقدسة اللاحقة – كربلاء ، والكاظمين ، والنجف . ومثل هذه المدن الشيعية المقدسة ، كانت نيبور بمثابة مدرسة أيضاً ، حيث كان الكتبة والكهنة يتدربون .

كانت الخلافات حول أولوية الألهة ، باعتبارهم شعارات المدن ورموزها ، تبرر في كثير من الأحيان الحروب والنزاعات المسلحة مع جيران يعبدون آلهة أخرى .

---

(١) استبدادي – المترجم .

وأصبحت الحروب بين المدن كثيرة ومتكررة . وهذه بدورها أيضاً أرست أنماطاً ستتردد أصداؤها في التاريخ العراقي . وفي سياق القتال ، كما في المهن والحرف الأخرى الجديدة ، أثبت بعض الرجال أنهم أقدر من سواهم . مثل هذا المقاتل عرف بأنه «رجل كبير» (باللغة السومرية : «الوكال») . وربما كان اللوكال أصلاً مالك أرض شكل العاملون لديه في أرضه قوة عسكرية جاهزة تحت تصرفه . وقيام اللوكال بالدفاع عن مدينته عند الحاجة عَزز ثروته وسلطته . وهكذا ، حدث حوالي السنة ٢٨٠٠ ق . م . أن تحولت القدرة الشخصية إلى مؤسسة . وهذا هو ما أطلق عليه السومريون اسم «نام لوكال» أي «القدرة التي تجعل الرجل رجلاً عظيماً» ، أو بعبارة أخرى مجازاً ، (الملوكية) . وما إن توطدت عبادة «الرجل العظيم» وأصبحت راسخة بقوة ، حتى استطاعت أن تكتسب من الديمومة والاستمرارية ما أبقاها حية في عقول العراقيين منذ ذلك الحين .

وبما أن السهل الميزوبوتامي[1] ، مثل اليونان القديمة ، كان منقسماً إلى عشرات من دويلات المدن الصغيرة المتناحرة ، كان هناك مجال واسع فسيح للرجال العظماء . وقادوا مدنهم ضد خصومها ، محاولين التجاوز على أراضيهم أو الاستيلاء على ممتلكاتهم أو التسلط على رعاياهم . على هذا النحو ، أدى التنوع السياسي والديني إلى إطلاق العنان ، على نطاق غير مسبوق ، للقوة التي ستقوم بتشكيل المجتمع العراقي – الحرب .

وفي هذه الحرب ، كان أتباع اللوكال ضروريين ، ولكنهم لم يكونوا يكفون للدفاع عن المدينة . فالأعداء قد يأتون بسرعة فائقة لا تتيح مجالاً لاستدعاء القوة الدفاعية من الحقول . لذلك بدأت المدن التي تستطيع أن تتحمل التكاليف الباهظة في إقامة موانع دفاعية واقية ضد الأعداء الطامعين والخطرين . والقوة العاملة التي كانت قد حشدت لحفر شبكات ري واسعة سرعان ما جرى تحويلها إلى بناء الأسوار . وكان معظمها صغيراً بسبب صغر المدن التي تحميها ، ولكن بعضها أصبح ضخماً . وكان

---

(١) كان المؤرخ اليوناني القديم (هيرودوتس) هو الذي أطلق اسم (ميزوبوتاميا) على العراق القديم ، وهي كلمة مركبة من كلمتين يونانيتين قديمتين هما (ميزوس) أي (ما بين) ، و(بوتاموس) أي النهر . و(بوتاميا) هي صيغة التثنية للنهر في اليونانية القديمة . فأصبحت ميزوبوتاميا تعني (بلاد الرافدين) ، أو بعبارة أخرى (بلاد ما بين النهرين) – المترجم .

أبرزها السور الذي أقيم حول المدينة الصاعدة اوروك (ايرينح التوراتية) ، والذي وصل طوله في النهاية إلى ٦ أميال أو ١٠ كيلو مترات . وكانت أجزاء منه مزدوجة ومعظمها أو كلها تصل إلى ارتفاع ٢٣ قدماً أو ٧ أمتار . والجهد الذي بذل في تكديس ملايين من الطابوقات لبناء السور كان هائلاً . ولا يمكن أن تقوم بتنفيذ مثل هذه الأعمال إلا المجتمعات الكبيرة . وحوالي سنة ٢٥٠٠ ق . م . ، وصل تعداد سكان أوروك إلى حوالي خمسين ألف نسمة . والمدن الصغيرة لم تعد تستطيع أن تتنافس . ومن هنا ، عبر القرون اللاحقة ، ابتلعت أوروك المستوطنات المجاورة لها والمحيطة بها . وعندما توجه الناس إلى المكان الذي يأمنون فيه على أنفسهم ، انكمش عدد المدن التي كانت تجاور أوروك من ١٢٦ إلى ٢٤ فقط .

تستطيع الأسوار أن تحمي أصحابها من الأعداء الخارجيين . ولكن النزاعات المحلية ، والحسد ، والغضب ، لا تقل في خطورتها عن الأعداء الخارجيين . ومع ازدياد أعداد السكان وتراكم الثروات ، أصبح من اللازم التوصل إلى نظام يحكم توزيع السلع والمقتنيات بين الساكنين ، بالإضافة إلى الدفاع عنهم ضد الأجانب والغرباء . النظير الداخلي للسور كان صك الملكية . كان هذا الصك في أول الأمر مجرد مجموعة من الرموز والصور . ولكن بعد حوالي ٣٠٠٠ ق . م . ، بدأ السومريون تدريجياً في استخدام نوع من الاختزال . وبدلاً من محاولة رسم صورة دقيقة للشيء كما هو بالفعل ، ضغطوا على لوح من الطين الطري بقلم رأسه على شكل مثلث ، وأحدثوا علامات تشبه المسامير مدببة من طرف وعريضة من الطرف الآخر . . وأصبحت هذه العلامات تدريجياً أكثر تجريداً وأخذت شكلاً معيناً من الكتابة يعرف بالكتابة المسمارية . وكانت أصلاً بسيطة ومعينة ، ولكنها أصبحت على نحو متزايد معقدة ومجردة أكثر فأكثر .

طبقة جديدة من الكتبة ظهرت إلى الوجود ، بوصفهم مخترعي الكتابة ومعلِّميها . وكان هؤلاء أول بيروقراطية في التاريخ . وقد توافرت لدينا معلومات عنهم لأن بعض نصوصهم التعليمية قد وصلتنا سالمة ، ولأن الناس ، حتى في ذلك الزمن البعيد ، كانوا يجأرون بالشكوى من انتهاكاتهم ومفاسدهم وتعاليهم . وكان العراقيون قد تعلموا بالفعل منذ ذلك الوقت المبكر أن يبقوا بعيدين عن الحكومة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . وكان ذلك درساً لم يغب عن ذاكرتهم مهما كانت الحكومات المركزية التي حكمتهم طوال الأربعة آلاف سنة اللاحقة . وحتى في العشرينيات

والثلاثينيات من القرن الماضي ، حاول الناس أن لا يوقعوا على الوثائق أو يدخلوا في معاملات مع الحكومة ، حتى ولو كان من الواضح أن ذلك يعود عليهم بالفائدة . وكما سنرى ، دفع العراقيون ثمناً فادحاً جراء هذا الموقف عندما فرضت عليهم أنظمة قانونية جديدة .

ولأن الكتابة ازدهرت هناك ، فإننا نعتقد أن العراق كان مجتمعاً حضرياً حتى في الأزمنة القديمة . كانت المدن مراكزَ للدين والحكومة والتجارة ، ولكنها كانت هشة . وعبر القرون ، قامت تلك المدن وازدهرت وتدهورت وهجرها ساكنوها . وكانت حياة الفلاح المزارع تتسم بديمومة أكثر . والعبيديون لم يكونوا يشعرون بالغربة في عراق ١٩٠٠ . فالعراقي المعاصر استخدم الأدوات نفسها ، وحرث التربة نفسها ، وزرع المحاصيل نفسها ، وسار على نغمة الفيضانات الموسمية نفسها . وبالنسبة إليهم ، الواقع الشرس للحياة كان المناخ . فالمنطقة الجنوبية من العراق تتميز بأقسى مناخ في العالم . وتحت أشعة الشمس المحرقة ، تذبل النباتات ويتهاوى البشر . وهذا الواقع الموسمي قد دخل في صلب تكوين الدين . فالإله تموز ، مثل الإله اليوناني أدونيس ، كان يعتقد بأنه «يموت» في كل سنة . هبط أدونيس إلى هيدس[(١)] . ولكن هيدس صعد إلى تموز عندما اشتدت حرارة الصيف وأصبحت لاهبة . والعراقيون القدامى اجتمعوا ليندبوا موته كما يجتمع الشيعة المعاصرون ليندبوا استشهاد الإمام الحسين . ولكن على خلاف الشيعة الذين يعتقدون أن عليهم أن ينتظروا يوم القيامة للتحرر من شعورهم بالحزن والفجيعة ، فإن القدماء اعتقدوا أن الألهة عشتار هبطت إلى هيدس لكي تجلب ماء الحياة مع اقتراب فصل الربيع . وبالنسبة إليهم ، كما للمصريين القدماء ، فإن دورة الحياة – الموت – الحياة كانت ظاهرة موسمية ، فرضها الإله وأدارها الإله .

في العراق ، كان الفقراء يتعرضون دائماً إلى استغلال شنيع ، وكانوا يرغمون على القيام بالأعمال في القنوات والترع والبوابات ، ويستدعون للخدمة في القوات العسكرية ، وقبل كل شيء ، كانوا يرغمون على بناء الأسوار والمصاطب بالطابوق المفخور ، وفي نهاية الأمر ، على تشييد تلك الأبنية العراقية الأكثر تميزاً ، أي الزقورات . وكان الطلب على العمالة نهماً . ومن أجل بناء مصطبة واحدة فقط من مصاطب أوروك ،كان التقدير أنه تطلب خمسة ملايين ونصف المليون ساعة عمل –

(١) هيدس هو العالم السفلي في المعتقدات اليونانية القديمة – المترجم .

أي ما يعادل قوة عاملة تتألف من ١٥٠٠ رجل يشتغلون ١٠ ساعات في اليوم لمدة سنة كاملة . ولم يكن بوسع سكان مدينة كبيرة مثل أوروك أن يلبوا هذه المطالب . ومن هنا ، وفي وقت مبكر من تطور المدن والبلدات الأكبر ، نجد شخصاً جديداً يظهر على المسرح الاجتماعي : العبد .

لا أحد يعرف كيف ظهرت العبودية ، ولكنني أعتقد حدساً أنها كانت امتداداً للعملية المعروفة تماماً بالنسبة لتدجين الحيوانات . والكلمة السومرية التي تعني «العبد» لها علاقة بالكلمة التي تعني «الأجنبي» ، مما يدل على أن العديد من العبيد في العراق ، كما في اليونان ، كانوا من أسرى الحرب . وكان من السهل تصنيفهم في البيئة الحضرية ، لأن فئات المدينة كانت معزولة بالفعل بعضها عن بعض من حيث الطبقة والوظيفة . وهكذا أصبح العزل آلية للسيطرة الاجتماعية ، ولكنها لم تكن كفؤة ولا كافية ، لأنه في رحاب المدينة ، كان على شعوب مختلفة أن تعيش معاً في جيرة دائمة .

وللمحافظة على التوزيع القائم للملكية ، فإن الكهنوت والملوكية ، على الرغم من أنهما كانا يظهران أحياناً كما لو أنهما يتنافسان على التفوق ، اضطرا إلى العمل معاً . ولم يقوما معاً بتنظيم الإنتاج والمحافظة على الأمن فقط ، بل أيضاً قدّما تفسيراً عن سبب وجود النظام . والنخبة الحضرية كانت تعتقد أنها قد ولدت في أحضان نظام دولي . وأمام تحدي المدن الأخرى وتحفيزها ، فإنهم رأوا ذلك النظام باعتباره يمثل هيمنة إلهية توضح وتبرر التجربة الدنيوية في وقت واحد . وأقاموا نظاماً كاملاً تحتل فيه كل مدينة مكانها ، ويجد فيه كل تقلب من تقلبات الأقدار الإنسانية تفسيره ، ويتولى فيه كل شخص دوره ، من العبد إلى الحاكم . . . وعلى هذا النحو ، أقام العراق أول نظام للقانون .

قوانين حمورابي ، ملك بابل من ١٧٩٢ إلى ١٧٥٠ ق . م . ، هي أشهر هذه القوانين . ولكن هناك ثلاثة قوانين أخرى معروفة على الأقل تعود بالفعل إلى أزمنة أقدم[1] . واعتقد حمورابي أن قوانينه شاملة بحيث أن رعاياه سيجدون فيها الأجوبة عن جميع الأسئلة التي تخطر على بالهم . وسيجدون فيها كيف ومتى ينبغي أن يتزوجوا ، وما الذي سيحدث للأملاك بعد الموت ، وكم هي الفوائد التي ينبغي دفعها

(١) قوانين عشتار وانتمينا واروكاجينا من أوائل ملوك قدماء السومريين – المترجم .

للأنواع المختلفة من الديون ، وأجوبة عن شريحة واسعة من الموضوعات التي تشملها ٢٨٢ من البنود (الباقية) . ولم تكن هناك من حاجة للإضافة إلى القانون . وكانت الحاجة قليلة إلى مفسرين له .

وبعد أن اعتاد العراقيون القدماء ، جيلاً بعد جيل ، على الخضوع إلى قوانين صارمة للسلوك ، كان من السهل على العراقيين اللاحقين أن يدخلوا إلى حظيرة الإسلام ، والذي يحدد الأجوبة بدوره عن جميع الأسئلة القانونية والاجتماعية والجنائية وحتى على المسائل المطبخية . والأجوبة يجسدها القرآن (الكريم) . وعلى نحو مماثل للحكام القدماء ، واعتقد علماء الفقه الإسلامي أن محاولات تعديل ما كان يعتبر في ذلك الحين كلام الله (تعالى) المنزل ، بأنه غير ضروري ، بل إنه بدعة وكفرٌ .

الله الإسلامي ، مثل الله العهد القديم ، كائن بعيد وصارم ، وأفضل تصور له هو أنه مشرع يطالب مخلوقاته أن تعيش بموجب صيغة دقيقة . وهذا لم يكن ليبدو شيئاً غير مألوف لعراقي كان يعيش قبل أربعة آلاف سنة . أما كيف تبقى الأفكار والأذواق والمخاوف والعادات ، وتستمر في الوجود ، فهو سؤال من الأسئلة التي لم نجد لها أجوبة بعد في التاريخ . لا أحد يعرف كيف دامت ولكننا نعرف أنها تدوم بالفعل .

بالإضافة إلى التأكيد على (الرجال العظماء) وعلى قوانين صارمة للسلوك ، تأمل الحلم الأبدي المتمثل في حديقة [جنة - المترجم] عدن ، حيث كانت الحياة بسيطة ونقية وهانئة . وفي أكثر أشكالها المحسوسة تحديداً ، نحن نعلم أن الحدائق كانت دائماً من أخص الخصائص المتميزة في حضارة الشرق الأوسط طوال آلاف من السنين . وإذا أخذنا بنظر الاعتبار العوامل القاسية للمناخ ، وتوافر الحيوانات التي استحوذ عليها في وقت مبكر سكان زاغروس ، الماعز ، كان لا بد من حماية الحدائق من الحيوانات الهائمة والبشر الجياع . الحدائق كانت وسائل الترف للأغنياء والأقوياء . ومن هنا ، كان الذين يملكونها ينظرون إليها بوصفها ملاذات مسيّجة ومحمية . وكان الفرس يسمونها «المواقع المحاطة بسور» . ومن المحتمل أنهم اقتبسوا هذه التسمية من اسم أقدم . وكانت الكلمة الفارسية هي (بايري - دايزا)[١] . وبعد ذلك ، عندما شاهدها جنود الاسكندر الأكبر اليونانيون ، وقد انهكهم بلا شك الحر والتعب والعطش ، أخذوا الكلمة الفارسية . وبالنسبة إليهم ، كانت الحدائق بالفعل (بارا

---

(١) Pairi-Daeza

دايسوس)[١] . وهكذا انتشر المفهوم . الجنة هي مكافأتنا السماوية . والمسلمون الأوائل الذين أتوا من جفاف جزيرة العرب ، والذين يثمنون عالياً الحدائق الخضراء والمياه الجارية بوصفها «سماوية» ، أخذوا المفهوم نفسه ، بحيث أن القرآن [الكريم] قد وصف السماء بأنها «جنات تجري من تحتها الأنهار» .

العراق ليس فقط قد أثر في الإسلام (وتأثر به) ، بل إن موضوعات عدة في الإنجيل تعود له ويمكن تتبعها مباشرة فيه . فالفيضان الذي أنقذ نوح منه أسلافنا والحيوانات هو صدى أسطورة عراقية . وتقول تلك الأسطورة إن الإله انكي حذر رجلاً يدعى اوتانابيشتيم من أن عليه أن يبني لنفسه فلكاً لأن الآلهة كانت غاضبة على البشر ، فقررت أن تدمرهم . ولعل ما يلفت النظر أكثر أن العراق أعطانا قصة هوراشيو الجر[٢] النهائية - قبل موسى (عليه السلام) بعدة قرون . فقيل إن الطفل سرجون قد عثر عليه في سلة صغيرة طافية وسط نباتات البردى في نهر الفرات .

في هذا الوقت ، كانت تحدث إضافة أخرى إلى السكان العراقيين ، تماماً مثلما تسلل السومريون إلى المجتمع العبيدي ، كذلك كانت شعوب ناطقة بالسامية تهاجر شرقاً من ناحية البحر الأبيض المتوسط عبر الأراضي المضيافة نسبياً لما يسمى الآن شمال سوريا . مجموعة من هؤلاء المهاجرين نعرفهم اليوم باسم الآشوريين واصلت سيرها شمالاً ، بينما المجموعات الأخرى ، الذين نعرفهم اليوم باسم الأكديين ، تابعت سيرها على ضفة الفرات جنوباً إلى السهل السومري . وبدأ الجنوبيون يتجمعون حول المدن السومرية القائمة . وكما فعل السومريون مع العبيديين ، قام الأكديون بالأعمال اليدوية الخدمية ، وتعلموا ، وفي النهاية دخلوا إلى المدن . وفي أواسط القرن الرابع والعشرين ق . م . ، قيضت لهم الأقدار زعيماً . وكان رجلاً موهوباً على درجة عالية من العبقرية ، جعلت حتى الحضارة السومرية السائدة تمنحه منزلة طليعية رفيعة في سجلاتها التاريخية . ذلك الزعيم كان سرجون الأول .

سرجون هو أول رجل دولة ظهر على مسرح التاريخ . وكان يتحلى بالجرأة والذكاء ؛ فاستطاع أن يستخدم النظام السومري ، وأن يبقى بعيداً عن تأثيره وغريباً

---

(١) Paradeisos

(٢) Horatio : ١٨٣٤ - ١٨٩٩ . كاتب أمريكي متخصص في قصص الأطفال . ترك ١٥٥ كتاباً . اكتسب شهرة واسعة ، أبطاله كانوا دائماً ينتصرون على الفقر والظلم - المترجم .

عنه في وقت واحد على حد سواء . وإذا اعتقدنا أن الأسطورة صحيحة ، فإنه ، كما تقول الأسطورة ، أقدم على خطوة بارعة هي بناء قاعدة سياسية بالطريقة الوحيدة التي كان يفهمها أبناء ذلك الزمان . فشيد مدينة اكد ليسكنها أتباعه الأكديون الناطقون بلغة سامية . وكانوا يوفرون نواة سياسية صلبة متجانسة ومتماسكة ذاتياً ، للإمبراطورية التي كان قد بدأ في إقامتها[1] . ولم يكن عهد حكمه آخر مرة يكون فيها العراقيون على استعداد للتنازل عن حريتهم إلى زعيم قوي يعدهم بالأمن والازدهار . وفي أيامنا هذه ، سنرى أن صدام حسين سار بطريقة لا واعية على خطى سرجون في تركيز حكمه على نواة داخلية تربطها وشائج القرابة . ومدعوماً بهذه النواة الداخلية ، هاجم سرجون المدن السومرية القديمة الواحدة تلك الأخرى ، وهدم أسوارها . وفي ٣٤ معركة ، دحر خصومه ، كما فعل صدام حسين أيضاً في عصر لاحق ، وقام بتوحيد جنوب العراق[2] . وتقدم بعد ذلك شمالاً للحصول على المواد الخام في سوريا ، وأجزاء من الأناضول ، وما يسمى اليوم كردستان . واندفاعاته العسكرية الهجومية إلى الخارج دشنت أول فتوحات إمبريالية كبرى في التاريخ . وكانت مثيرة ومذهلة ، ولكن كلفتها كانت عالية . ومع الغضب الذي استولى على المدن بسبب تعرضها إلى أعباء جديدة ، وشعورها بالاستياء من موظفي سرجون ، تمرد بعضها وأعلن الثورة . ومرة أخرى ، كما سيفعل صدام حسين ، فإنه قمع تلك المدن بقسوة ، وأخمد ثوراتها بقبضة من القوة العاتية . ولكنه استطاع ، على خلاف صدام حسين ، أن ينقل دولته إلى ورثته . وقام حفيده نارام سين ، الذي حكم من حوالي سنة ٢٢٥٤ إلى سنة ٢٢١٨ ق . م . ، بتطوير المفهوم الجديد للعراق الموحد تحت زعيم إمبراطوري إلى أقصى الإمكانيات وأكمل الأبعاد وأبعد الحدود .

وأرسى نارام – سين ، بوصفه زعيماً إمبراطورياً ، نمطاً من الحكم اتبعه الحكام واحداً بعد الآخر إلى أيامنا هذه . وأطلق على نفسه لقباً تفخيمياً . وأعلن أنه «ملك الكل» . وبعد قرون لاحقة ، سيعلن سرجون الثاني بأنه «ملك العالم» . وعندما أصبح كورش ملكاً على بابل سنة ٥٩٣ ق . م . اتخذ اللقب نفسه بدوره . وفي زماننا ، أعلن

---

(١) الإمبراطورية الأكدية هي أول إمبراطورية في التاريخ – المترجم

(٢) منذ ذلك الحين أصبح جنوب العراق يعرف باسم أرض سومر وأكد ، بعد أن كان يعرف باسم أرض سومر فقط – المترجم .

عبد الكريم قاسم بأنه «الزعيم الأوحد» ، وأحب صدام حسين أن يدعى «الرئيس البطل» . ويبدو واضحاً أن العراقيين كانت لديهم رغبة دفينة متأصلة أن يكونوا – وأن يبجلوا – «الرجال العظماء» منذ أن نحتوا للمرة الأولى مصطلح (لوكال) .

اللغة السومرية ، مثل اللغة اللاتينية في الغرب الوسيط ، سرعان ما غطتها وحلّت محلها لغة من اللغات السامية . هذا المزيج من السومرية والأكدية ، الذي نعرفه بوصفه الحضارة البابلية ، سيبقى ماثلاً في عقول الرجال ، على تعاقب القرون ، باعتباره تجسيداً للتاريخ الحضاري للعراق ، وسيحتل في ذلك التاريخ المنزلة الرفيعة التي أولاها الأوروبيون في وقت لاحق من تاريخهم الحضاري للعصر الكلاسيكي في اليونان القديمة .

بينما كان يتكشف النسيج الغني بالأشكال والألوان في سهول الجنوب ، كان هناك مجتمع آخر تتزايد قوته في جبال الشمال . الآشوريون الأصليون التقيناهم بالفعل فيما سبق ، بوصفهم فرعاً من الساميين الذين توجهوا إلى العراق على حافة الهلال الخصيب انطلاقاً مما يعرف اليوم بسوريا . وكانوا ، مثل أبناء أعمامهم الذين توجهوا إلى الجنوب ، قد تأثروا تأثراً قوياً بالحضارة السومرية ، وكانوا قد أقاموا دولة – مدينة صغيرة بالقرب من الموصل المعاصرة . ومثل العراقيين الآخرين ، كان جيرانهم يعرفونهم في الدرجة الأولى بأنهم مزارعون وتجار . وبعد ذلك ، منذ حوالي سنة ١٣٥٠ ق . م . تحولوا في تغيير رئيسي إلى دولة عسكرية . وعلى الرغم من شدة بأسهم وقوة شكيمتهم ، إلاّ أنهم لم يستطيعوا أن يجاروا قوة الإمبراطورية الكبرى التي أقامها الحثيون . وهكذا لم يتسن لهم أن يمدوا قوتهم العسكرية إلى أقصى حدودها إلاّ عند مجيء فترة من الفوضى في القرن العاشر ق . م . وكان ذلك الإنجاز واحداً من أعظم الإنجازات العسكرية المأثورة على مدى الزمان .

كانت مساحة آشور حوالي ٥٠٠٠ ميل مربع فقط ، أو ١٢,٩٥٠ كيلو متراً مربعاً (حوالي مساحة كونيكتيكوت) . وكان مناخها قاسياً . وكانت مواردها المحلية ضئيلة . ومثل مقدونيا موطن الإسكندر الأكبر ، كان عدد سكانها الأصليين قليلاً ، ومن المحتمل أنه لم يزد على مائة ألف نسمة . ومثل مقدونيا الإسكندر أيضاً ، أصبحت آشور آلة للحرب . وأعلن حكامها أن الحرب هي الوضع الطبيعي ، وأنها عادلة ، وأنها مفروضة من الله ، وأن آشور هي تجسيدها الدنيوي . الشعوب الأصغر والأضعف ينبغي أن تخضع . والعبارة الآشورية التي تدل على الخضوع هي «المشي على الأطراف

الأربعة» (ايلي اربي ريتي باسالو)[1] ، أي أن يصبح الإنسان مثل الحيوان المدجن . وأولئك الغرباء الذين يرفضون مكانهم المناسب في النظام العالمي الآشوري ، ينبغي محوهم من الوجود ، وينبغي أن تدمر مدنهم تدميراً تاماً (حتى تُسوى بالأرض) ، وينبغي حتى الاستيلاء على آلهتهم .

المذابح وعمليات استعباد الأسرى والمغلوبين كانت موضعاً للتمجيد في جداريات وتماثيل ضخمة استخدمها الملوك في تزيين قصورهم وأبنية مدنهم . والمشاهد المريعة المتتالية تمثّل المهزومين الذين يجري تقطيعهم وقتلهم ، والقرى وهي تستباح ، وميادين القتال التي تغطيها أجساد المقتولين ، والأسرى الذين يقومون بأعمال السخرة تحت مراقبة الجنود .

والدعاية ، بالإضافة إلى التقنية العسكرية الممتازة ، كانتا قد استغلتا إلى أقصى حد للتعويض عن الحجم الصغير للجيوش . في سنة ٨٨٩ ق . م . ، توكلتي - نينورتا الثاني بدأ ما سيكون نصف قرن من الفتوحات غير المسبوقة . وهو وخلفاؤه المباشرون ينبغي أن يصنفوا في خانة بعض أعظم الجنرالات والإداريين على مدى الزمان - وأكثرهم تعرضاً إلى قلة معرفة الناس بهم . وكانوا مدفوعين بهاجس للنصر أصبح بالفعل ديناً وطنياً ، يختلف جذرياً عن روابط الولاء والانتماء التي شدت السومريين إلى دويلات مدنهم ، اختلاف أسلحتهم الحديدية «المفولذة» عن أسلحة السومريين الأوائل المصنوعة من الطين المفخور .

الحكام الآشوريون اللاحقون احتفظوا بإرث أسلافهم التجار . وعندما يحتلون مدينة أو يستولون على منطقة ، كانوا يكتبون ويعلنون قائمة جرد بالأسلاب والغنائم . ولكنهم كانوا يسعون ليس فقط إلى الاستيلاء على الأسلاب والغنائم ، بل أيضاً ، كما أفاد أحد أباطرتهم ، «محو الخصائص المحلية» . ولكي يحققوا هذا الهدف ، عمدوا في جانب من سياستهم إلى تهجير وإعادة توطين ما يقارب الخمسة ملايين نسمة من أجزاء في إمبراطوريتهم إلى أجزاء أخرى . هذا التدوير السريع للشعوب ، أدى ، من بين تأثيرات أخرى ، إلى تحقيق نوع من التجانس بين شعوب العراق . كان هناك نمط معين ، اتبعه صدام ، دون وعي بالتاريخ ، في جلب العرب إلى كردستان ونقل الكرد إلى المحافظات الشيعية في زمننا الراهن .

---

(١) Eli erbi ritti pasalu

وعلى الرغم من أن حكمهم كان ذكياً من الناحية العسكرية ، إلاّ أنه كان من المحتوم أن يستنفد الآشوريون مواردهم . ومع ازدياد سمنة سكانهم بفعل غنائم الفتوحات وأسلابها ، بدأت الدولة المترهلة في استخدام أعداد كبيرة من المرتزقة الذين جلبوهم من الجبال المجاورة التي تحيطهم . وما حدث لا يمكن توثيقه ، ولكنه لا بد أن يكون قد لعب دوراً في تشكيل ما يمكن أن يوصف بأنه السابقة التاريخية لما يسمى اليوم «كردستان» . ومع تزايد اعتماد الدولة على الأجانب ، تخلت الدولة عن سابق تمسكها بالاقتصار على شعبها والتأكيد على حقه الحصري ، وبدأت تفتح الأبواب أمام هؤلاء الأجانب للاندماج في مجتمعها . وهؤلاء الأجانب بدورهم ، مثل السومريين ، والساميين ، والآخرين ، سرعان ما تعلموا «أسرار» القوة ، وكانوا على استعداد ، عندما تسنح الفرص وتساعد الظروف ، أن يستخدموها ضد الآشوريين الذين فقدوا تلك الحيوية التي ترافق الصعود إلى مراقي القوة والسلطان ، وتلك الهالة التي جعلتهم يمسكون بمقاليدهما . وجاءت النهاية على نحو مفاجئ . وخيرات آشور وسمعتها أصبحت أهدافاً أكثر من كونها دروعاً . وبحلول العام ٦١٦ ق . م . ظهرت آشور بوصفها قوة صغيرة بين قوى أخرى . آشور ، الدولة في داخل جيش والجيش من حيث هو دولة ، هزمت في ميدان المعركة ، ولم تقم لها قائمة بعد ذلك إلى الأبد ، وأصبحت أثراً بعد عين .

ومن المدهش ، أن بقايا دويلات المدن السومرية القديمة وفلولها ، المتركزة الآن على بابل ، كانت هي التي سددت الضربة النهائية القاضية إلى آشور . وبعد أن دمرها الآشوريون سنة ٦٨٩ ق . م . أعيد بناء بابل التي وصلت إلى ذروة المجد حوالي سنة ٦٠٠ ق . م . تحت حكم نبوخذ نصر الثاني . ونبوخذ نصّر مشهور على نطاق واسع بأنه شيد الحدائق المعلقة – استجابة كما يقال للحنين الذي كان يساور زوجته إلى موطنها في جبال إيران – وبأنه أخمد ثورة مملكة يهوذا على حكمه . واستولى على القدس في سنة ٥٩٧ ق . م . وكان عليه أن يخمد ثورات أخرى في السنوات العشرين التالية . واقتدى بالنمط الآشوري ، فساق جماعة بعد أخرى من اليهود إلى المنفى في العراق . وبعد ألفين من السنين ، كان بعض اليهود العراقيين يعتقدون أنهم ينحدرون من صلب أولئك الذين ساقهم نبوخذ نصّر إلى البلاد .

نبوخذ نصّر لم يزحف على فلسطين فقط ، بل إنه أنشأ إمبراطورية مترامية الأطراف لن تعمر طويلاً امتدت إلى مصر ، وشملت البلدان الواقعة على ساحل البحر

الأبيض المتوسط ، حتى وصلت إلى إيران . ولكن دويلات المدن الصغيرة كانت على درجة من الصغر لا تقوى معها على الوقوف بوجه الإمبراطوريات الكبرى في العالم المضطرب الذي تركه الآشوريون خلفهم . ومن هنا ، وعلى الرغم من مرور بابل بفترة من إحياء الحضارة السومرية - الأكدية القديمة ، إلاّ أن أيامها باتت معدودة . ونحن نعرف عن هذه الفترة أكثر مما نعرف عن سابقاتها من الفترات العديدة الأقدم والأكثر أهمية ، لأن العهد القديم يتطرق لها ويتحدث عنها . ولكن مركز القوة كان قد انتقل إلى الشرق . وهذا الخليط من الشعوب الذي يعرف بالميديين والفرس كان قد أسَّس دولة جديدة ستصبح في زمنها أعظم إمبراطورية في العالم .

في سنة ٥٣٩ ق . م . استطاع الإمبراطور الفارسي الجديد ، كورش ، أن يهزم الجيش البابلي ويدخل إلى بابل . وفي ذلك الوقت ، كانت بابل مدينة مزدهرة يضاهي تجارها من آل ايكيبي في ثرائهم ثراء آل روتشيلد في زمانهم . وقد أعجب كورش وخلفاؤه ببابل حتى جعلوها العاصمة الإدارية للإمبراطورية . ولكن ما هو أهم أن كورش حاول أن يجمع بين الحضارتين الفارسية والعراقية . والمساعي التي بذلها في هذا السياق أرست أسس المأزق الهائل الذي يواجهه العراقيون اليوم .

إحدى النتائج التي نجمت عن هذه المساعي ، أن الفرس أعادوا إنتاج التقليد العراقي القديم في الاجتماع للقراءة أو الاستماع إلى «القراء» . والسابقون من هؤلاء الرجال كانوا فيما مضى يقرأون ما نعرفه بوصفه الملحمة البابلية عن الخليقة . وفي وقت لاحق من إيران القديمة ، القراء كرروا قراءة الملحمة (الفارسية) الوطنية (الشاهنامة) ، وأنشدوا «مرثية الماجي» «الكهنة الزرداشتيون» . وبعد مجيء الإسلام ، استبدلوا النص القديم بنص يناسب الدين الجديد ، ولكن الشكل النمطي بقي ثابتاً واستمر . القراء (بالفارسية : الروزة - خانيون) أصبحوا يقرأون عن استشهاد الإمام الحسين . ونظراؤهم في أمكنة أخرى ، الرابسود[١] في اليونان القديمة الذي كان يقرأ أشعار هوميروس ، أو (البارد) الذي أنشد الملاحم الكنية[٢] أو (السويغو - ماج)[٣] في إيرلندا والنرويج الذي قرأ الملاحم ، كانوا يشتركون جميعاً في مهمة توطيد الهوية

---

(١) Rhapsode

(٢) Bard

(٣) Soygu-Maj

الحضارية والمحافظة على تقاليد شعوبهم واستمرارها في الحياة . وفي العراق ، جرى توطيد التقاليد على نطاق واسع نسبياً . والكهنة الزرادشتيون الفرس ، المعروفون باسم الماغي ، كانوا قد تمركزوا في مدينتهم الخاصة قرب نيبور .

ولعلنا لا نلوي أعناق القرائن كثيراً إذا افترضنا أن الكهنة الزرادشتيين القدماء كانوا نموذجاً للكهنة الشيعة المعاصرين ، الذين كانوا بدورهم يمتلكون مدنهم الخاصة في إيران والعراق ، والذين كان ينظر إليهم بوصفهم حراس المعرفة المقدسة . وتعود إلى هذا السبب جزئياً تلك الاستمرارية الملفتة للنظر ، التي حافظت على حياتها في الحضارة العراقية والتي هي موضوع هذا الكتاب .

امتد تأثير الفرس على العراق إلى المستقبل البعيد في مجالات أخرى أقل أهمية . ولعل من أهمها أنهم أرسوا قواعد نظام ملكية الأرض التي تبناها جوهرياً الغزاة المسلمون في زمان لاحق ، مما قرر النمط الأساسي للحياة بالنسبة إلى معظم العراقيين طوال الألفين القادمة من السنين . وأخيراً ، وقد استخدمت مصطلح «العراق» في جميع صفحات هذا البحث ، أجد من المناسب أن أعترف أن الفرس هم الذين نحتوا هذا الاسم . فكلمة «العراق» العربية اشتقت في الواقع من كلمة «ايراغ»[1] الفارسية التي تعني ببساطة «الأراضي الواطئة أو المنخفضة» .

عندما كان الفرس يستمتعون بالعراق ، كانوا يطمعون باليونان . وحينما راقبا المدن العراقية وهي يدمر بعضها بعضاً وتحولها إلى أشلاء متناثرة ، مما جعل احتلالهم لها واستيلاءهم عليها سهلاً وميسوراً ، فإن داريوس وكسرى حاولا أن يطبقا درس العراق على اليونان . وفي منعطف من المنعطفات الكبرى في التاريخ فإنهما قد فشلا . ولكنهما فتحا الطريق للنجاح أمام أحد خلفائهما . مقدونيا ، التي كان يحكمها حينذاك الملك فيليب ، كانت نسخة غربية من الدولة الآشورية ، دولة كانت صناعتها هي الحرب . وعندما انسحب الفرس ، كان فيليب ملك مقدونيا مستعداً للشروع بالهجوم على المدن اليونانية الأخرى . وعندما كان على وشك إحراز النجاح في استراتيجيته اليونانية ، اغتيل فيليب . وقرر جيشه أن لا يدع شيئاً أو أحداً يحرمه من النصر النهائي ، فاختار ابنه الإسكندر خلفاً له .

في السنوات الإحدى عشرة الباقية من حياته ، سيحاول الإسكندر أن يفتح

---

(١) Eragh

الإمبراطورية الفارسية المترامية الأطراف . وفي سنة ٣٣٤ ق . م . عبر الإسكندر (مضيق البسفور) إلى آسيا . الحاكم الفارسي عرض السلام . ولكن الإسكندر كان يطلب المجد . فهاجم الجيش الفارسي بجيشه الصغير المنضبط في غاوغاميلا ، وهي موقع قريب من المدينة العراقية الحديثة أربيل . وبعد هذا النصر ، توجه الإسكندر إلى مصر ، ومن ثم قفل راجعاً ، ودخل بابل في سنة ٣٣٠ ق . م . ومن بابل زحف عبر إيران إلى أفغانستان ، ثم واصل زحفه إلى الهند . وهناك واجه ثورة ، وبدأ يزحف عائداً إلى اليونان . وعندما وصل إلى العراق ، أقام احتفالاً هو الأغرب من نوعه على مدى الزمان لكي يرمز إلى لقاء الشرق والغرب ، كما فهمهما . فأمر بزواج جميع الجنود من النساء اللواتي تبعن الجيش للقيام بالخدمات الضرورية ، في احتفال عُرف بأنه «عرس العشرة آلاف» ، بينما تزوج هو نفسه من إحدى بنات الملك الفارسي . وكانت خطته التي رمز إليها بهذه المبادرة ، هي خطة كورش نفسه - أن يجعل بابل عاصمة للعالم .

وعندما توفي بعد ذلك بوقت قصير ، لم يترك الإسكندر وريثاً ، وانشق جيشه إلى جماعات . وكل قائد استولى على جزء من إمبراطوريته . وسلوقس أخذ لنفسه بابل وما حولها ، ولم يكن ممن يهتمون بصوفية الإسكندر في أيامه الأخيرة . فاعتبر بابل مجرد قاعدة وثوب ونقطة انطلاق إلى إمبراطورية عالمية . ولكنه وجدها تعاني من فقر مدقع ، وقد انهكتها الحرب ، بحيث لم تعد تستطيع أن تلبي حاجاته . وسرعان ما رحل عنها وتركها وشأنها .

في هذا الوقت ، وبعيداً إلى الشرق عن العالم الذي كان المقدونيون يعرفونه ، كانت هناك قوة كبرى تتجمع من قبائل آسيا الوسطى ، وستصبح معروفة في التاريخ باسم الإمبراطورية الفرثية التي ظهرت إلى الوجود خلال القرن الثاني ق . م .

واستولى الفرثيون على بابل سنة ١٤٤ ق . م . وفي موقع على دجلة ، إلى الجنوب من بغداد الحديثة ، يدعى بالفارسية (تيسبون)(١) ونعرفه بالاسم اليوناني (ستيسيفون)(٢) ، شيدوا عاصمتهم . وقاعة العرش الواسعة في أحد أضخم مبانيها ما يزال معظمها قائماً . ويصل ارتفاع قبتها إلى ١٢١ قدماً أو ٣٧ متراً . وهي أعلى قبة

---

(١) Tespon

(٢) Ctesiphon ويدعى بالعربية حالياً (سلمان باك) - المترجم

مبنية بالطوب ما تزال قائمة في العالم . ولا بد أن الزوار الذين كانوا يدخلونها كانوا يشعرون برهبة شديدة ، وبالأخص البدو القادمين من الصحراء الذين كانت تجاوزاتهم على الأرض الحضرية المأهولة قد بدأت تتزايد .

الفرثيون اعتبروا أن نهر الفرات يشكل حدودهم الغربية . ومن حين إلى آخر قاتلوا الرومان في العراق . وكان أحد أشهر وأعظم معاركهم معركة كارثاي (حران) في شمال العراق سنة ٥٣ ق . م . وخيالتهم أبادت الكتائب الرومانية البطيئة الحركة التي كان يقودها الجنرال الروماني كراسوس . وكانت معركة كارثاي أعظم هزيمة عانتها روما . وتواصلت الحرب في العراق كراً وفراً . وبعد ذلك ، في سنة ٢٢٤ بعد الميلاد ، أزاحتهم جماعة أخرى من الغزاة الفرس الذين أسسوا الإمبراطورية الساسانية ، وأصبح العراق مركز سلطتهم . وعلى شاكلة الفرثيين والرومان ، اشتبك الساسانيون في قتال شبه دائم طوال أجيال مع الرومان الشرقيين ، أو البيزنطيين . ومع تركيز اهتمامهم الواحد بالآخر ، سمحوا للدفاعات التي تحميهم من جهة الجنوب أن تتداعى وتتهاوى . وعند ذاك ، في سنة ٥٧٠ بعد الميلاد ، وفي مكان بعيد ، خارج العالم الذي كان معروفاً لديهم ، ولد نبي الإسلام . وحياته ستؤدي إلى دخول العراق في مرحلة جديدة .

الفصل الثاني
العراق الإسلامي

بعيداً إلى الجنوب الشرقي من العراق، وفي المدينتين الواحتين التجاريتين مكة (المكرمة) والمدينة (المنورة)، كان يولد دين جديد. وعندما وصل الإسلام إلى العراق تفاعل مع الأفكار والمؤسسات التي كانت سائدة حينذاك في ذلك البلد، مما أدى إلى تغييرها، ولكنه هو نفسه تغير أيضاً. ومن المستحيل أن نفهم التاريخ العراقي والأحداث الجارية الآن بدون أن نفهم كيف كان العراق وكيف أصبح.

سأحاول هنا أن أختار تلك العناصر التي أعتقد أنها جوهرية للتاريخ العراقي.. وأبدأ بالمكان الذي ولد فيه الإسلام، مكة (المكرمة).

إذا نظرنا إلى مكة من أوروبا، فستبدو بعيدة إلى درجة مذهلة. والسفر إليها من فرنسا أو إيطاليا كان رحلة شاقة محفوفة بالمخاطر تستغرق العديد من الشهور بالسفن الشراعية وقوافل الجمال. ولكن مكة لم تكن بلدة ريفية إلى هذا الحد الذي يوحيه هذا الوصف. وإذا نظرنا إليها من زاوية منظورها هي نفسها، فسنجد أنها كانت نقطة مركزية وبؤرة أساسية في شبكة معقدة من الطرق التجارية. وكانت القوافل تذهب إلى اليمن وتأتي منها بانتظام، حيث كان التجار المكّيون يلتقون مع التجار من الهند ومن جزر التوابل. وكانت هناك قوافل أخرى تعبر صحراء النفوذ الكبرى إلى ملتقى نهري دجلة والفرات عند الخليج الفارسي، حيث كان التجار المكّيون يلتقون التجار من بلاد فارس ومن آسيا الوسطى. وبعضهم شد الرحال إلى دمشق، حيث كانوا يقايضون السلع والبضائع مع التجار من جميع أطراف الإمبراطورية البيزنطية الواسعة، ومن المدن الجديدة في جنوب أوروبا.

وكانت التجارة تجري في الاتجاهين. ومكة قد زارتها على الأقل جماعات من المسيحيين واليهود. والعرب جاءوا من جميع أطراف شبه الجزيرة العربية للمشاركة

في المهرجانات السنوية ، وحضور المناسبات الشعرية[1] والعبادة في المقام المقدس ، الكعبة . من هنا ، إذا حكمنا بمقاييس الزمان والمكان ، فسنرى أن مكة كانت مركزاً عالمياً .

كانت مكة مدينة مادية غارقة في ماديتها إلى درجة مفرطة . وكانت مجتمعاً يسوده التجار ، لا تبدي أي اهتمام بالفقراء والمحرومين ، وعيونها مشدودة تماماً إلى المتاجرة ، ولا شيء غير المتاجرة . وإلى أن بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، كان محمداً (صلى الله عليه وسلم) تاجراً ، ويفترض أنه شارك زملاءه في قيمهم . ولكنه وجد بعد ذلك أن موقف مواطنيه يبعث على القلق الشديد . وكان من حين إلى آخر يغادر مكة إلى الصحراء ، يصوم ويستغرق في تأمل عميق حول خطايا البشر .

عند هذه النقطة ، يتوقف المؤرخ غير المسلم لحظة لكي ينظر إلى تجارب محمد الشخصية ودوافعه – معرفته بالعالم ، وغربته عن مجتمعه ، وصوفيته . ولكن بالنسبة إلى المسلم المؤمن ، فإن هذه الصفات الشخصية تبدو غير واردة وغير مهمة . والمهم أن الله بحكمته ، التي لا يحيطها عقل بشري ، كان قد أنزل على محمد أوامره بالوحي الإلهي فيما يخص الشؤون البشرية والدنيوية . ولكن المسلمين وغير المسلمين يتفقون بأن محمداً عندما بلغ الأربعين من عمره ، بدأ التبشير برسالته الدينية ، وكما أخبر أقرباءه وأصدقاءه ، وكما يؤكد القرآن (الكريم) ، قائلاً «اقرأ بسم ربك» . ويقال إن محمداً المذهول والخائف تمتم قائلاً «ولكن ماذا أقرأ؟» ، ولكنه قضى فترة من القلق والإحباط دون أي توجيه آخر . وفي غضون هذه الفترة ، كان في كثير من الأحيان يذهب إلى الصحراء وحيداً منفرداً بنفسه متأملاً وصائماً . وأخيراً ، تجددت له الرؤى . وعند ذاك بدأ ينقل ما يوحى إليه إلى الذين يودون الاستماع إليه ، في سيل من السور والآيات التي استمرت تنهمر عليه حتى وفاته سنة ٦٣٢ بعد الميلاد ، وهي التي جمعها أتباعه بعد وقت طويل ، فأصبحت هي القرآن (الكريم) .

لم يمنح محمد نفسه فضلاً شخصياً في هذه الوصايا ، بل وصف نفسه بأنه مجرد رسول يبلغ كلمة الله . وأفاد أن هناك رجالاً من السابقين كانوا أنبياء حقيقيين . وأضاف أن هؤلاء يشملون ليس فقط الأتقياء الورعين من العرب ، بل يهوداً من العهد القديم ، وقبل كل شيء ، السيد المسيح . ونعلم من القرآن أن السيد المسيح يتقدم على

---

(١) سوق عكاظ – المترجم

محمد (صلى الله عليه وسلم) في رضى الله . وفي حين أن القرآن (الكريم) ينكر أن يكون السيد المسيح ابن الله «الذي لم يلد ولم يولد» ، فإنه يبيّن أيضاً أن السيد المسيح قريب من الله ، إلى الحد الذي أصبح فيه الرجل الوحيد من بين جميع الرجال الذي سمح له باجتراح المعجزات . والإسلام لا ينسب مثل هذه الصفة إلى محمد . ومحمد يقول إنه لم يفعل شيئاً سوى أنه قام بتبليغ رسالة الله إلى العرب بلغتهم العربية ، وهي الرسالة نفسها التي سبق أن أنزلها الله على موسى ، ومن بعده على عيسى .

استشاط أغنياء مكة غضباً . وكانت مكة مركزاً للعبادات والعقائد الوثنية التي بررت سيطرتهم على المدينة ، والتي دخلت في صلب نسيج تجارتهم في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية . وكانت رسالة محمد في نظرهم هي الخيانة بعينها ؛ فقرروا أن يقتلوه ، وكان ذلك محفوفاً بالمخاطر الجمة طالما كان أقرب أقربائه يحمونه . وهذا هو السبب الذي دفع بزعماء المدينة إلى الضغط عليهم للتبرؤ منه . وعندما ظهر أنهم على وشك أن يفعلوا ذلك ، وهو فعل كان سيجعله خارجاً على القانون حسب الأعراف المحلية ، بادر هو إلى الهرب من المدينة .

بعد شهور قليلة ، قام سكان بلدة صغيرة هي المدينة (المنورة) ، التي عرفت في وقت لاحق باسم «مدينة الرسول» ، بدعوة محمد للتوسط في نزاع محلي طال أمده . ومنحته تلك الدعوة ، هو والجماعة المكية الصغيرة التي لبت دعوته واعتنقت رسالته ، فرصة جديدة . وكانت عملاً يتصف بالحكمة أن أرسل محمد أتباعه يسبقونه إلى المدينة بحيث أنه عندما وصلها كان نبياً مسلحاً .

البلدة التي دخلها كانت بدائية أكثر بكثير من مكة ، وكانت تشبه البلدات الزراعية الصغيرة المشتغلة بتربية قطعان المواشي في العراق خلال فترة العبيد قبل آلاف السنين . وبالفعل ، فإنها لم تكن مدينة على الإطلاق إلاّ بالكاد ، وكانت عبارة عن مجموعة متناثرة من المساكن البسيطة ، ولم تكن لديها مؤسسات حضرية ، وعانت من الانقسام ، المرير أحياناً ، إلى قبائل عدة من العرب وجالية صغيرة من اليهود .

كانت المهمة الأولى التي تولاها محمد هي أن يوحد أتباعه[1] ، ولكي يحقق

(١) من المهاجرين والأنصار – المترجم .

هذه الغاية ، فإنه جعل كل فرد من الأنصار يتخذ فرداً من المهاجرين أخاً له . ومثل معظم ما فعله محمد ، أصبح ذلك سابقة بالنسبة إلى المستقبل ، فأصبح فرضاً على جميع المسلمين أن يكونوا إخوانا بعضهم لبعض . وعلى هذا الأساس ، عقد سلاماً بين القبائل العربية والجالية اليهودية عرف في صيغة تعظيم باسم «دستور المدينة» .

في ضوء ما تقدم ، أصبحت نبرة التأكيد على القانون وحماية غير المسلمين من الخصائص المتأصلة في المجتمع الإسلامي .

المهمة الثانية التي تولاها محمد كانت حماية المدينة من غارات البدو . وكان محمد رجلاً حضرياً لا يثق أبداً بالبدو الذين كانوا يقبضون أجراً من المكّيين (الذين استخدموهم في حراسة القوافل) ، والذين كانوا يشنون الغارات على المناطق الزراعية عندما يعانون نقصاً في التجهيزات التموينية والمواد الغذائية . ومحمد لم تكن لديه قدرة عسكرية على مواجهتهم مجتمعين . ولكنه كان يعلم أنهم كانوا يتقاتلون فيما بينهم . وهذه الحقيقة ليس فقط أنقذت مجتمعه في ذلك الوقت ، بل إنها أحدثت تأثيراً عميقاً على التاريخ العراقي إلى أيامنا الراهنة . ومن خصائص التاريخ العربي أنه لم ينل قسطاً كافياً من الفهم ، ويمكن أن نراه باختصار كما يلي في أدناه .

بسبب محدودية الموارد في الصحراء ، لا يمكن أن تكون أية جماعة من الجماعات كبيرة الحجم كثيرة العدد . و«القبيلة» التي تتألف من المئات أو الآلاف كانت مجرد وحدة نظرية . أما من الناحية العملية ، فلم تكن هناك جماعة يفوق عددها الخمسين شخصاً أو ما يقارب ذلك العدد ، يمكنهم البقاء بعضهم مع بعض ، لأن حيواناتهم ستستهلك العشب والماء في المنطقة القريبة التي تحيطهم وتجاورهم . الوحدة الفعّالة ، أي الجماعة التي يخيم أفرادها معاً ، ويقومون بتربية قطعان الحيوان في مشاركة شاملة ، ويحمي أحدهم الآخر ، كانت في العادة تتألف من سلالة رجل واحد عبر عدد قليل من الأجيال . ولم يكن من الممكن أن يكون هناك قتال داخل هذه «العشيرة» (بالعربية : قوم) ، بينما لم يكن من الممكن أن يكون هناك سلام دائم بين العشائر .

ما فعله محمد هو أنه أعاد صياغة المجتمع المسلم المبتدئ في شكل عشيرة . وكما هي الحال في عشيرة تقوم على النسب ، لا يمكن أن يكون هناك قتال في عشيرته الجديدة التي تقوم على الدين . «الأخوة» لديهم التزام متقابل أن يحمي أحدهم الآخر . ولكن ، على خلاف العشيرة التقليدية ، التي لم يكن لديها من سبيل

للاصطفاف مع العشائر الأخرى ، فإن المجتمع الجديد رحّب بالراغبين في الدخول إلى حظيرته بشرط اعتناقهم الإسلام . وسرعان ما أصبح المجتمع الجديد ، «العشيرة الدينية» أكبر من أية عشيرة سلالية . وما حدث بعد ذلك كان تلقائياً تقريباً ، فالقوة المتحدة للمجتمع الإسلامي الجديد بكاملهما استُخدِمَت ضد القبائل البدوية فرادى ، كل قبيلة على حدة ، قبيلة بعد أخرى . وكل قبيلة وجدت نفسها غير قادرة على مقاومة خصومها التقليديين ، القبائل البدوية الأخرى من جهة ، والمسلمين من جهة أخرى . وبما أنها لم تجد طريقة في أعرافها للاندماج مع خصومها التقليديين ، فإنها تعرضت إلى خطر الانسحاق بين مطرقة هؤلاء وسندان المجتمع الإسلامي الجديد . والطريقة الوحيدة التي يمكنها بها أن تحمي نفسها كانت الانضمام إلى الطريق الوحيد الذي يرحب بها : المسلمين . وكل إضافة جديدة زادت من قوة المسلمين وجعلتهم جماعة مرهوبة لا يمكن مقاومتها . وهكذا اجتاح أتباع محمد جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية مثل عاصفة رملية في الصحراء . وعندما انتقل إلى رحمة الله في سنة ٦٣٢ بعد الميلاد ، أي بعد مرور ١١ سنة على هجرته من مكة ، كانت شبه الجزيرة العربية بأكملها تقريباً قد أصبحت خاضعة إلى «عشيرته» .

ومع أن النجاح في الصعود إلى القوة كان مذهلاً ، إلاّ أن السقوط كان يحتمل أن يكون أسرع . وكان البدويون ينظرون إلى محمد نظرتهم إلى شيخ العشيرة . وكانوا يمنحون ولاءهم له شخصياً ، وليس للدين الجديد . وقد تهجم القرآن (الكريم) على البدو بقوله إنهم دخلوا إلى الإسلام ، ولكن لمّا يدخل الإيمان إلى قلوبهم . وعلى الرغم من أن محمداً قد أدرك كم كان مجتمعه هشاً ، فإنه لم يخطط لمواجهة ما لا بد أنه أدرك بأنه سيحدث عند وفاته . وبالنسبة إلى الحلقة الداخلية من أتباعه ، فيبدو أنهم كانوا يبجلونه إلى الحد الذي جعل وفاته تصيبهم بصدمة رهيبة دفعتهم إلى الذهول والشلل . ولم تكن لديهم سوابق يرجعون إليها ويعملون بها .

ما حدث بعد ذلك كان حادثاً عرضياً جزئياً ، فأقرب المقربين إلى محمد كانوا يعرفون أنه كان يخطط للقيام بغزوة باتجاه الشمال في الأراضي البيزنطية . وقرروا أن يحترموا خطته وأن يضعوها موضع التنفيذ . وكان لا بد من شن الغارة . وقد شنت بالفعل وكانت ناجحة . وعندما عادت القوة التي شنت الغارة ، وجدت البدو المجاورين على وشك مهاجمة المدينة . ونحن لا نعلم تماماً ما الذي حدث بعد ذلك ، ولكن يبدو أن البدو قد أخذتهم الدهشة بالأسلاب والغنائم التي أحضرها الغزاة بحيث

أنهم أعادوا اكتشاف ولائهم بسرعة .

التداعيات لم تكن غائبة عن أذهان أتباع محمد ، ذلك أنهم أدركوا أن عليهم أن يجدوا زعيماً للاستمرار في الجوانب المدنية على الأقل من أعمال محمد . ولكي يحققوا هذه الغاية ، اختاروا الرجل الذي كان أحياناً يقود الصلوات اليومية عندما كان محمداً يشعر بوعكة صحية . وكان هو الشخص الذي «يقف أمام المصلين» (ويدعى بالعربية «الإمام») . وهكذا اختير هذا الرجل ، أبو بكر «الصديق» ، والد إحدى زوجات محمد ، ليكون خليفته . وقرر أبو بكر فوراً أن يستخدم المناورة التي استخدمها محمد لكي ينقذ المدينة ، وذلك بأن يشن غارة على الأراضي الغنية في الشمال .

الإغارة على الأراضي الغنية في الشمال كان عملاً تقليدياً لدى البدوي الجائع الرث الذي يعيش في الصحارى العربية . ومنع تلك الغارات كلياً كان مستحيلاً . والبدو كانوا سريعي الحركة ، ويستطيعون على ظهور جمالهم أن يهاجموا ويسلبوا وينسحبوا إلى الصحراء قبل أن يستطيع المشاة بطيئو الحركة البيزنطيون الرومان أو الساسانيون الفرس أن يحشدوا جنوداً للدفاع . ومن هنا ، وجدنا أن هاتين الإمبراطوريتين العظيمتين اختارتا تشكيل قوات بادية تتألف من عرب للقيام بدوريات حراسة ضبطاً للأمن على الحدود الصحراوية . البيزنطيون اعترفوا بجماعة معروفة لدى زعمائهم باسم الغساسنة كانوا ينتشرون على امتداد الحدود المقررة للمنطقة التي تشمل اليوم سوريا والأردن ، وتولوا دعمهم وتمويلهم ، بينما فعل الفرس الشيء نفسه مع جماعة تعرف باسم اللخميين[(١)] الذين كانت عاصمتهم تقع في بلدة صغيرة هي الحيرة في العراق . وكان هذا التدبير أقل كلفة وأكثر فاعلية من تركيز حاميات عسكرية في جميع المواقع التي يحتمل أن يهاجمها البدو . كان عمل هذا النظام ناجحاً طوال عقود من السنين . ولكن حدث في السنوات الأولى من القرن السابع بعد الميلاد أن هاتين الإمبراطوريتين حاربت إحداهما الآخرى حتى انهكهما القتال ودفعهما إلى التوقف . في سنة ٦١١ كان الفرس قد هاجموا الأراضي البيزنطية ، وفي سنة ٦١٤ احتلوا القدس . واستجمع البيزنطيون قواهم ، وقاتلوا الفرس دفاعاً عن أراضيهم . ولكن انغماسهم في القتال أدى إلى إيقاف تحصيل الضرائب ، ودمر المحاصيل ، وقتل العديد من الناس أو طردهم من مساكنهم . والإمبراطوريتان معاً عانتا

(١) المناذرة - المترجم

من شح في الأموال ونقص في النقود ، إلى الحد الذي أرغمهما على التوقف عن دفع الهبات المالية ، التي كانتا تدفعانها إلى «حراسهم» من العرب . والفرس من جانبهم تخلوا كلياً عن اللخميين ونصبوا رجلاً فارسياً حاكماً للحيرة . وكان هذا التصرف قصير النظر في أحسن الأحوال ، ولكن ما فعله البيزنطيون كان أسوأ . وكانوا منذ وقت بعيد قد تسامحوا مع طائفة مسيحية ، التي كان ينتمي إليها عملاؤهم الغساسنة . ولكنهم انقلبوا على هذا الموقف في تحوّل حاد ، وحاولت السلطات البيزنطية أن ترغمهم على اعتناق المذهب الأرثوذكسي اليوناني . لا العرب البيزنطيون ولا العرب الفرس كانوا راغبين في الدفاع عن أسيادهم القدماء . وما أراده التخطيط حاجزاً أصبح جسراً .

بعد سلسلة من عمليات جس النبض التي أظهرت مواطن الضعف ، بدأت العمليات الهجومية العربية بجدية في سنة ٦٣٣ . وفي غارة سريعة ، استخدمت تكتيكات يجيدها البدو ، المفاجأة وسرعة الحركة ، وصل المهاجمون إلى مشارف العاصمة الفارسية طيسفون ، القريبة من بغداد الحديثة ، ومن ثم عبروا الصحراء مباشرة إلى دمشق ، وفاجأوا الحامية البيزنطية ، ونهبوا المدينة . وبعد ذلك ، أخذ العرب يحومون حول القوات البيزنطية ، وهزموها تدريجياً ، مجموعة بعد أخرى . واستمرت المعارك والانسحابات والغارات وعمليات الحصار شهراً بعد آخر . وبينما كانت القوات البيزنطية تتعرض إلى الاستنزاف بفعل تواصل السير والقتال ، كانت القوات العربية تتزايد مع كل مواجهة ، لأن البدو كان يغريهم بالقدوم من جزيرة العرب ما يسمعونه من حكايات عن الثروات الهائلة الجاهزة لكي يأخذوها ويستولوا عليها . وقعت المعركة الحاسمة في منتصف صيف سنة ٦٣٦ عندما سحق العرب جيشاً بيزنطياً يقوده الإمبراطور بنفسه على مقربة من نهر اليرموك[1] في منطقة تقع اليوم في الأردن الحديث .

من المحتمل أن الخليفة لم يكن أقل دهشة بهذه النتيجة من الإمبراطور . وجاء إلى القدس ، موضع الإسراء والمعراج ، لكي يشرف بنفسه على تنظيم الفتوحات . والسابقة الوحيدة لدى أبي بكر حينذاك كانت ما فعله محمد في المدينة . وقد اقتبس ذلك المثال وطبقه في خطوطه الأساسية . العرب المعتنقون للدين الجديد كانوا

---

(١) معركة اليرموك - المترجم

سيشكلون المجتمع الإسلامي ، في حين أن غير المسلمين - من يهود ومسيحيين معاً ، «أهل الكتاب «الإنجيل»» - كانوا سيعيشون في سلام ، ويديرون شؤونهم الخاصة ، ويمارسون شعائر أديانهم ، تحت حماية المسلمين . ولم تجر أية محاولة في وقت لاحق بهدف تحويلهم عن معتقداتهم الدينية أو إغرائهم أو إرغامهم على اعتناق مبادئ الدين الجديد ، لا هناك ولا في العراق . وكما قال القرآن ، كان الإسلام دين العرب الذي دعاهم إليه محمد بلسانهم ، العربية . وعلى أي حال ، فإنهم كانوا منصرفين تماماً إلى فتح العالم ، ولم يكن لديهم وقت يصرفونه في الدين . وبالاستدارة إلى الشرق ، استطاعت القوات العشائرية العربية أن تنزل هزيمة نكراء بالجيش الفارسي[١] ، وأن تحتل العاصمة الساسانية الفارسية طيسفون . وتهاوى الحكم الفارسي في العراق وانتهى إلى الأبد .

في سنة ٦٤٤ أخذ سجين فارسي بالثأر ، فاغتال عمر الخليفة الثاني «من الخلفاء الراشدين - المترجم» . ومرة أخرى اجتمعت الدائرة الداخلية من أتباع محمد ، واختارت ، لكي يخلف عمر ، رجلاً ضعيفاً طاعناً في السن سرعان ما سيطر عليه ذووه وأقرباؤه ، أعداء محمد القدماء ، الأمويون ، وأحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم ، وكانوا يشكلون الأوليغاركية[٢] المكية . الخليفة عثمان أثبت أن الدم أقوى من الدين ، وبدأ يوزع الأسلاب التي غنمتها الجيوش العربية المنتصرة ، بالإضافة إلى المناصب الرئيسية في الولايات ، على ذويه وأقربائه وأبناء عشيرته ، واستشاط أتباع محمد غضباً . وخلال سنوات قليلة ، كان لا بد من إخماد ثورات في العراق وأمكنة أخرى . وأخيراً ، وفي سنة ٦٥٥ ، قامت جماعة غاضبة من العرب باغتيال عثمان .

ويمكن أن يقال إن هذه الجماعة تمثل الجيل الذي نشأ في السنوات العشرين التي أعقبت وفاة محمد . ومن المحتمل أن شطراً كبيراً من سخطهم يعود إلى شعورهم بأن ما كسبه الآخرون كان أكثر بكثير مما كسبوه هم ، ولكن كان هناك سبب أهم ، ذلك أن طبيعة «العشيرة» الإسلامية قد تغيرت . وبعد أن توسعت أكثر بكثير من نطاقها الأصلي ، تحولت إلى أمة .

---

(١) معركة القادسية - المترجم .

(٢) Oligarchy : حكم القلة - حكومة تهيمن عليها جماعة صغيرة همها الاستغلال وتحقيق المنافع الذاتية - المترجم .

أساس المجتمع الجديد ، كما تصوره محمد وخلفاؤه ، كان بالطبع هو الإسلام . والانضمام كان متاحاً وسهلاً . وكان الافتراض لدى محمد وأتباعه الأوائل أن أولئك الذين سيعتنقون الإسلام سيكونون عرباً .

وعندما كانوا يتلفظون بكلمة «المسلم» فإنها كانت تعني «العربي» أيضاً . والمسلمون ينبغي أن لا يحاولوا إدخال غير العرب إلى حظيرة الإسلام ، بل ينبغي أن يشجعوهم على أن «يتشبهوا» بالمسلمين في مجتمعاتهم ذاتها . وكان ذلك هو الأساس الذي قام عليه التسامح مع اليهود والمسيحيين .

ومن المؤكد أن التسامح لم يرض أولئك الذين شاهدوا أن المنتفعين الرئيسيين من النظام الجديد كانوا هم العرب . والانضمام إلى الجماعة المسيطرة أصبح الهدف الأهم للشعوب المفتوحة . وبعض الذين اعتنقوا الإسلام كانوا أطفالاً ولدوا من آباء عرب وأمهات أجنبيات ، بينما كان الآخرون يونانيين ، وفُرساً ، وأشخاصاً ينتمون إلى جماعات اثنية أخرى ، بدأوا يتكلمون العربية ويتبعون العادات العربية . وكانت الطريقة العربية التقليدية لانضمام الأفراد إلى أي مجتمع هي أن يصبحوا «موالين لها ومحسوبين عليها» . وكان لدى العرب عددٌ من الأوصاف التي تدل على هذا الوضع . والوصف الذي كان أكثر شيوعاً في زمن عثمان وفيما بعد كان «الموالي» . وعلى الرغم من أن وضعهم يمكن تفسيره على نحو تقليدي ، فإن الموالي كانوا يحتلون موقعاً لا سابق له . فبوصفهم أشخاصاً اعتنقوا الإسلام كانوا «مقبولين» باعتبارهم إخوة مسلمين . ولكن بوصفهم من غير العرب ، كان من الواضح أنهم لا ينتمون إلى النخبة الحاكمة . وأولئك الذين كانوا يمتلكون مهارات ضرورية وخبرات نادرة ومعلومات مهمة ، مثل البيروقراطيين والإداريين الفرس ، كان الفاتحون يستبقونهم في مواقعهم ويتمتعون بما يرافقها من امتيازات . ولكن الأكثرية الساحقة لم تكن تمتلك هذه الخصائص والمواهب ؛ فكان يتم تصنيفهم في الدرجة الثانية .

بالنسبة إلى أولئك الأشخاص «المهمّشين» من ذراري الفاتحين المولودين من آباء عرب وامهات عراقيات ، كان ذلك التمييز باعثاً على سخط أشد بوجه أخص . وكان بعضهم من ذوي الثقافة الرفيعة ، الذين أثار حفيظتهم أن يروا البدو الأميين الجهلة يستهلكون خيرات بلد كان يعود إلى أسلاف أمهاتهم . وسيتحول سخطهم إلى قوة أساسية في الأحداث المستقبلية . وهناك رواسب ما تزال باقية حتى اليوم . في مثل هذا الجو المتجهم المضطرب كان ابن عم محمد وزوج ابنته قد حاول أن يقيم خلافته .

كان علي ، في سياق زمانه ، معتدلاً . وقد خاصمته ثلاثة أطراف : الأصوليون الذين أصبحوا يعرفون بالخوارج ، وعدد قليل من المنافسين من أتباع محمد الأوائل ، والأمويون الذين انتفعوا من حكم عثمان . واستطاع علي أن يتغلّب بسهولة نسبية على الحرس القديم . وكان الأصوليون تهديداً أكثر خطورة ، وكانوا يوالونه في بادئ الأمر ، ولكنهم طالبوه أن يدين عثمان بوصفه «طاغية» ، ويبرر بذلك اغتياله . وعندما لم يفعل بالضبط ما طلبوه ، خرجوا عن جيشه . وبفعل خروجهم أصبح جيشه في وضع عسكري غير متكافئ مع الأمويين . وكان عثمان قد جعل زعيمهم حاكماً على دمشق ، وكان معاوية بن أبي سفيان سياسياً محنكاً وإدارياً قديراً ، واستغل الوقت الذي قضاه حاكماً على دمشق استغلالاً ذكياً ، وكان هو وحده الذي يقود جيشاً جيد التنظيم .

المشهد الرئيسي للعمل كان يقع في العراق الذي كان علي قد ذهب إليه محاولاً كسب دعم القبائل العربية التي استقرت هناك . علي كان يحتاج إلى جيش ، ولكنه أدرك أن النصر الساحق ، حتى لو كان ممكناً ، فإنه سيدمر الهدف نفسه الذي يسعى إلى تحقيقه . لذلك حاول أن يستخدم مزيجاً متغيراً من القتال والتفاوض . وكما حدث مع المعتدلين في كثير من الأحيان ، فإنه أسيء فهمه ، وجلب على نفسه خصومة الطرفين . وبعد سلسلة من المعارك الضاربة والهدنات والمؤتمرات ، اغتاله قاتل مسلم[1] في العاصمة الجديدة للعراق ، الكوفة ، سنة ٦٦١ .

وفاة علي فتحت الطريق أمام بني أمية ؛ وقد انتهزوا فرصتهم ، واستفادوا من نموذج ملوك الغساسنة في خضوعهم للنفوذ البيزنطي ، فأسسوا «مملكة عربية» جديدة كبرى ، وأكسبوا سلطتهم فيها ما تحتاجه من شرعية وشعبية بسلسلة من الفتوحات العسكرية الرائعة في أفريقيا ، وجنوب أوروبا ، وآسيا الوسطى . وحققت الخلافة الأموية نجاحاً عسكرياً يندر أن تحققه أية إمبراطورية أخرى . ولكن من الناحية الداخلية ، كانت القصة مختلفة تماماً . نذر السخط والاستياء التي كانت قد بدأت في الجيل الذي جاء بعد وفاة محمد ، أخذت تنتشر وتصبح أكثر مرارة . والشعوب المفتوحة ، وبالأخص تلك التي تقطن العراق ، اجتذبها الإسلام ، ولكن الحكومة العربية جعلتها تنفر ، وقد عبرت تلك الشعوب عن ذلك النفور بطريقتين : فمن

---

(١) رجل من أصل فارسي ، كان قد اعتنق الإسلام مؤخراً ، يدعى عبد الرحمن بن ملجم – المترجم .

جهة ، أكدت بقوة إيمانها بالإسلام . ولكنه كان إسلاماً قامت بتعريفه في صيغة غير عربية . ومن جهة أخرى ، شاركت تلك الشعوب في حركات ثورية .

ومعارضتهم للدولة تركزت على مؤسسة الخلافة . بعد اغتيال علي ، أمسك معاوية بمقاليد السلطة دون منازع على الإطلاق . واتخذ ترتيبات من شأنها أن يخلفه ابنه يزيد بعد وفاته التي حدثت في سنة ٦٨٠ . وبما أن يزيد لم تكن لديه أية علاقة بمحمد ، أو بأتباعه ، أو بدينه ، نشبت ثورات في العراق . وقام أبناء القبائل العرب هناك ، وأبناؤهم من أمهات عراقيات ، بدعوة الحسين بن علي وحفيد محمد ، للقدوم إلى الكوفة ، معلنين وعدهم بدعمه ، ولكنه لم ينل إلاّ القليل من الدعم ، وسرعان ما حاصره جنود موالون ليزيد . وعندما رفض أن يستسلم ، عمد هؤلاء إلى قتله . وتاريخ «استشهاده» في اليوم العاشر من شهر محرم في سنة ٦١ الهجرية أصبح التاريخ الأهم على الإطلاق في تقويم «شيعة علي» منذ ذلك الحين . وبالنسبة إليهم ، أصبح ذلك اليوم يوماً للعار الدائم ، يوم إخفاقهم في دعم الرجل الذي تسكن في جسده «روح الله» . «استشهاد» الحسين لم يضع حداً للثورة على يزيد . ومحاصرة المدينة «المنورة» ومكة «المشرفة» انتهت بإعدام العديدين من أقرب المقربين إلى محمد من صحابته . وعندما لم يعد هؤلاء على قيد الوجود ، استطاع يزيد أن يوطد دعائم دولة بني أمية التي بقيت قائمة طوال قرن لاحق تقريباً ، ولكنه كان قرناً من ثورات متكررة ونشاطات ثورية سرية كانت للشيعة فيها اليد الطولى ، وكانوا من أثبت عناصرها وأكثرهم التزاماً .

و «استشهاد» الحسين أطلق العنان في صفوفهم للقوى الروحية العارمة التي كانت لها آثار عميقة وباقية . وأصبح الحسين الرمز الأبرز المثير للمشاعر في حركة ثورية ستطيح بالخلافة الأموية هي الحركة الهاشمية .

الهاشمية كانت الحركة الأكثر تطرفاً من بين عدد من الحركات المعادية للأمويين ، وأغلبها من الشيعة ، التي ظهرت وتنامت بالأخص في جنوب العراق في السنوات الأولى من القرن الثامن . ومن الكوفة امتدت الحركة إلى جميع الأجزاء الشرقية من الإمبراطورية الأموية ، وانتشرت بين العرب والموالي الذين اعتنقوا الإسلام ولكنهم كانوا ما يزالون يبدون تجاوباً مع التأثير القوي للزرادشتية والبوذية ، اللتين كان يعتنقهما أسلافهم . ومن خلالهم ، تغلغلت الأفكار والممارسات الصوفية في الحركة الثورية . وكان الغموض الذي أحاط بالحركة في حد ذاته قد أكسبها

جاذبية عاطفية كانت غائبة في الحركات المنافسة . وتدفق الناس للانضمام إلى صفوفها التي ترفع الرايات السود من جميع أنحاء بلاد فارس والعراق . وبحلول العام ٧٤٧ كانت قد أصبحت موجة عارمة كاسحة لا يمكن وقفها أو صدها . وسقطت المدينة تلو الأخرى في قبضة المتمردين الزاحفين على الطرق المؤدية إلى العراق . وفي سنة ٧٤٩ ، عبروا نهر الفرات ، وتقدموا إلى الكوفة المكان الذي بدأت فيه حركتهم وانطلقت منه .

عندئذ حدث شيء غريب . في الطريق المؤدي إلى الكوفة ، تعرضت الحركة الثورية إلى الخطف . وبينما زحف أنصارها لكي يعيدوا حزب علي إلى الخلافة ، فجأة تغير ذلك الهدف واستبدل بهدف مختلف هو دعم فرع آخر من سلالة محمد . ونحن لا نعلم كيف حدث ذلك ، ولكننا نعلم أن أولئك الذين قاتلوا من أجل القضية الشيعية شعروا أنهم تعرضوا إلى الخداع ، وحرموا من ثمار نصرهم ، وسيصبح ذلك موضوعاً مستمراً في التجربة الشيعية عبر القرون التالية .

الرابحون كانوا ينتسبون إلى فرع من عائلة محمد يعود إلى عمه العباس ، ويعرفون في التاريخ باسم العباسيين . التغيير كان أهم بكثير من مجرد استبدال فرع من العشيرة بفرع آخر . وما إن قام أول زعيم عباسي باستلام السلطة حتى ظهر سنياً وليس شيعياً . ولئلا يبدو ذلك مجرد أمر مبهم ، ينبغي أن نقارن ما حدث في العراق بصراع مماثل بين الكاثوليك والبروتستانت في انكلترا . في خضم احترابهم الدموي العنيف ، الرابحون البروتستانت أعدموا الملك جارلس الأول بقطع رأسه ، ووضعوا اوليفر كرومويل في السلطة . وعندما أعيدت الملكية ، راح الملكان جارلس الثاني وجيمس الثاني يناصران الكثلكة سراً . وأدى عملهما إلى اندلاع «الثورة المجيدة» البروتستانية . في انكلترا القرن السابع عشر كما في عراق القرن الثامن ، كانت السياسة تقوم على أساس ديني ، مما جعل المعتقد الديني الشخصي للحاكم يكتسب أهمية فائقة بل أساسية بالنسبة إلى أنصاره وخصومه ، والطرفان معاً أدركا تلك الحقيقة .

بعد أن أعلن معتقده الديني الحقيقي ، عمد الخليفة العباسي الأول إلى قمع الهاشمية والحركات الشيعية الأخرى في العراق ، بينما تولت جيوشه مهمة ملاحقة الأمويين وطردهم من سوريا والعراق ومصر . وكان قد أكمل تنفيذ هذه المهمات عندما توفي بعد أربع سنوات من الاستيلاء على الكوفة . وكان شقيقه المنصور هو الذي بدأ

في سنة ٧٥٤ بتنظيم الدولة . وخلال مدة حكمه التي دامت ربع قرن من الزمان ، أنشأ إدارة جديدة على نمط النظام الإداري الساساني الفارسي القديم ، ووضع على رأسها عائلة تخلت عن عقيدتها البوذية مؤخراً واعتنقت الإسلام ، هي العائلة البرمكية التي يعرف أفرادها جملة في التاريخ باسم البرامكة . على الرغم من الماضي الثوري ، وربما بسبب ذلك الماضي جزئياً ، فإن المنصور أبعد العباسيين عن النمط العربي المفتوح الذي مارسه الأمويون في الحكم ، وتحول إلى نموذج البلاط الفارسي مع الممارسات والمظاهر التي اتبعها الساسانيون . وعلى الرغم من تأكيده على المذهب السني التقليدي ، إلاّ أنه كان يفضل أن يعهد بالمناصب الحكومية إلى الموالي الفرس . وشيد المنصور مقراً للدولة الجديدة ، واتخذ منه عاصمة للخلافة العباسية ، وأسماه «مدينة السلام» . ولكن الاسم القديم ، بغداد ، كان أغلب في الشيوع والاستعمال منذ ذلك الحين . إلاّ أن الديمومة لم تكن من نصيب الاسم فقط . فالمدينة قد شيدت فوق خرائب تعود إلى العصور البابلية ، والمنطقة التي عشت فيها في الخمسينيات (من القرن العشرين – المترجم) ، والتي تسمى ببستان الخس ، تعود إلى زمن المنصور . وبقيت المدينة قائمة تقاوم عوادي الدهر وغوائل الزمن ، وصمدت أمام النيران والفيضانات ، والغزوات والأوبئة . ومن أبرز خصائص العراقيين أنهم حتى عندما ينسون ماضيهم ، يحافظون عليه ويعيدون خلقه .

ومع أن بغداد قد تأسست بوصفها مجمعاً من القصور ، إلاّ أنها سرعان ما تطورت إلى مركز صناعي وتجاري ضخم ومزدهر . ومثل المدن السومرية القديمة ، والمدن الوسيطة في الشرق الأوسط والصين وأوروبا ، فإن بغداد قد انقسمت إلى أحياء ومناطق بحسب المهن والحرف . فالدبّاغون كانوا في مكان واحد ، والنجارون في مكان آخر ، وهكذا دواليك .

وكل حي من هذه الأحياء كان في الحقيقة بلدة داخل المدينة . وعدد منها كانت محاطة بسور يفصلها عن سواها ، وتضم مساجدها ومدارسها وحمّاماتها وأسواقها المنفصلة الخاصة . وكان «أهل الكتاب» من اليهود والمسيحيين يعيشون في أحيائهم المستقلة ، ويتمتعون بالحماية ، ويحكمهم موظفون من أبناء جلدتهم ، ويجمعون ضرائبهم الخاصة ، ويقيمون شعائر أديانهم في معابدهم وكنائسهم . ومع أن حياتهم لم تكن سهلة في كثير من الأحيان ، إلاّ أن حياة هذه الأقليات كانت بالتأكيد أكثر حرية وأمناً بكثير من حياة اليهود والمسيحيين الذين عاصروهم في

أوروبا . وحتى الزرادشتيين ، بقايا الدين الفارسي القديم ، الذين لم يكونوا من «أهل الكتاب» وبالتالي لم يتمتعوا بالتسامح الرسمي ، كانوا أيضاً ما يزالون يعيشون في بغداد ، ولم يكن عددهم كبيراً ، ولكن عددهم ربما يعطي انطباعاً خاطئاً عن نفوذهم . وبقيت العادات الزرادشتية رائجة وتحظى بالشعبية حتى في أوساط المسلمين التقليديين . والعيدان الفارسيان «نوروز» في الربيع و«سادا» في الخريف كان يجري الاحتفال بهما على نطاق واسع . وحتى البضائع التي استنكرها أو حرّمها الإسلام الرسمي كانت تباع في العلن وتطلب بالفعل .

واشتهرت بغداد بتفوقها في بعض الحقول ، ففي خلال العصور المظلمة ، عندما كان عدد قليل من الأوروبيين يستطيع أن يقرأ أو يكتب ، كانت بغداد تشتهر بصناعة ما كان في ذلك الوقت يعد صناعة كمالية نادرة تحظى بتقدير فائق ، هي نوع من الورق الممتاز الذي يتمتع بجودة عالية . وكان بعضه يشحن إلى بيزنطة التي كانت ما تزال تحتفظ بطبقة من المثقفين الذين يقرأون ويكتبون . ولكن معظمه كان يستهلك محلياً في صناعة الكتب الرائجة . وكانت بغداد في ذلك الزمان أكثر احتراماً للكتب وأكثر اهتماماً بالفكر والأدب والعلم من بغداد التي عرفتها في الخمسينيات «من القرن العشرين» . وكانت بغداد حينذاك تضم أكثر من مائة بائع للكتب في سوق الورّاقين . والكثير مما يعرف اليوم عن الأدب العربي القديم ، وحتى عن قواعد النحو والصرف في اللغة العربية ، يعود إلى تلك الفترة وأنتجه علماء كان بعضهم من الفرس .

كان التجار والصنّاع ينتمون إلى نقابات ، كما يحدث الآن في أوروبا المعاصرة . وكان يفترض في النقابات أن تحافظ على نوعية صنائعها ونزاهة منتسبيها ، والتأكد من دفع الضرائب ، والعناية بالأعضاء الفقراء . وقدراتها على تنظيم الاحتجاجات وإغلاق الحوانيت قد أكسبتها درجة معينة من الحماية أمام ضراوة الحكومة وجشعها . والإضراب الذي حدث في سنة ١١٢٥ أرغم الخليفة ليس فقط على التخلي عن ضريبة غير شعبية ، بل أيضاً على إعادة الأموال التي جبيت بالفعل . وهذا الأسلوب نفسه يستخدم اليوم ؛ فالتجار يستطيعون أن يصيبوا الحياة في مدينة بالشلل إذا أغلقوا حوانيتهم .

وفيما عدا ما يحدث من خلال النقابات ، لم تكن هناك أدنى فرصة لمشاركة المحكومين من الأسفل في صنع القرار السياسي . فالأوامر كانت تهبط من الأعلى

دون أقل اهتمام برغبات أو مخاوف السكان . ولكننا نرى ، من حين إلى آخر ، محاولات ترمي إلى تحسين الأوضاع . إحدى تلك المحاولات كانت صدىً ، غير مقصود بلا شك ، لممارسة رومانية . وما حاول الرومان تحقيقه من خلال منصب (التربيون)[١] ، وهو شيء شبيه بـ (الاومبودسمان)[٢] ، جرّب البغداديون أن يحققوه من خلال موظف يدعى (الرئيس) .

كان وضع النساء في بغداد أقل انفتاحاً مما كان بين العرب القدماء . وعزل النساء له تاريخ غريب . وفي الأزمنة المعاصرة تقريباً ، تعرضت النساء في حضارات مختلفة اختلافاً أساسياً إلى أساليب من التمييز والفصل تتعلق بالمكان أو باللباس أو بكليهما . النساء اليابانيات كان يجري إخفاؤهن وراء ستار ، والنساء البيزنطيات كن يلبسن الحجاب على الوجه في المعتاد من الأحوال ، والنساء الأوروبيات الغربيات كن يرتدين إلى وقت قريب الملابس التي تشبه الملابس التي ترتديها الراهبات الكاثوليكيات . ويبدو أن ما حدث في المجتمع الإسلامي كان أن الغزاة العرب وجدوا أن الأرستقراطيين يحجبون نساءهم ويبعدونهن عن الأنظار ، في حين أن الفلاحين يسمحون لهن بالسير بحرية . ومع ازدياد النفوذ الفارسي عليهم ، ازداد ميل العرب إلى تقييد حرية نسائهم . ولكن حتى إلى فترة متأخرة في القرن العشرين ، كانت النساء في بغداد يجتمعن مع الرجال على الأقل في المساجد وربما في أماكن عامة أخرى . وهؤلاء أرادوا تأكيد حقوق النساء ، فكانوا يستشهدون بحديث للنبي محمد مفاده أن الرجال والنساء متساوون أمام القانون . وكان من الواضح أن هذا الحديث غير صحيح . وعلى كل حال ، كان الاستشهاد بالأحاديث طريقة معتادة ومألوفة لتبرير السلوك الراهن . وهكذا كان من المحتمل أن النساء كن يتمتعن بفسحة من الحرية أوسع مما تذكره الوثائق التاريخية المتوافرة لنا . ومن المؤكد أن النساء كن يمتلكن الأموال المنقولة وغير المنقولة ، وبعضهن على الأقل لعبن أدواراً في السياسة . ومن إحدى خصائص التاريخ العراقي أن النساء العراقيات أصبحن أكثر النساء تحرراً في الشرق الإسلامي . وكن يتمتعن بدرجة جيدة من التعليم ، ويمارسن جميع المهن والاختصاصات ، ويشغلن المناصب الحكومية العالية ، بل وحتى المشاركة في الخدمة العسكرية

---

(١) Tribous

(٢) Ombudsman المحقق في الشكاوى (ضد موظفي الدولة) – المترجم .

والانتساب إلى القوات المسلحة في القرن العشرين .

ما نعرفه عن العراق الوسيط يأتي من سجلات تاريخية كان أصحابها من المؤرخين يولون اهتماماً قليلاً بالقضايا «الاجتماعية» مثل أوضاع النساء . وكانوا يركزون اهتمامهم على شخص الحاكم . الخليفة العباسي الأكثر شهرة في الغرب ، وأيضاً لدى العرب بالفعل ، هو هارون الرشيد . وصورته لدينا تأتي بالدرجة الأولى من الترجمات والأفلام العديدة المشتقة من «الليالي العربية» . ومآثره ، وبالأخص ولعه المزعوم بالتجول في شوارع بغداد متنكراً لكي يعرف ما يقوله ويفعله الناس العاديون ، أصبحت كلها جزءاً لا يتجزأ من التراث الشعبي للحكام اللاحقين ، حتى قيل إن صدام حسين قد حاول أحياناً أن يقلد هارون .

ما فعله هارون ، وكان له تأثير دائم ، هو قيامه بتدمير القيادة المركزية للإدارة البيروقراطية الواسعة التي كانت تحكم إمبراطوريته ، وهي العائلة البرمكية . وبغياب البرامكة ضعفت الإمبراطورية . ولاية بعد أخرى انفصلت عن الإمبراطورية تحت حكم سلاطين وأمراء محليين يعلنون ولاءهم لبغداد بالكلمات دون أن يدفعوا الضرائب . والأهم من كل ذلك ، أن نظام الري قد تعرّض إلى الإهمال والتدهور ، والسدود أخذت تتداعى وتنهار ، والقنوات امتلأت بالرواسب الطينية . وفي غياب نظام صحيح للصرف والبزل ، تحولت معظم المناطق الجنوبية من العراق إلى مستنقعات واسعة ، وبقيت على تلك الحال إلى نهاية القرن العشرين .

عندما توفي هارون ، ظهر إلى العلن الانشقاق الذي كان مكتوماً بين الجناحين الفارسي والعربي من الموالين للعباسيين ، وأخذ شكل الصراع على السلطة بين ولديه «الأمين والمأمون»[١] . ولكن حتى المأمون ، الابن الذي كان قوياً بدرجة كافية للانتصار ، لم يستطع إيقاف الانزلاق إلى الخراب . وفي غضون العشرين سنة من حكمه ، انخفضت إيرادات الخزينة المركزية انخفاضاً حاداً . ومع انخفاض هذه الإيرادات ، شدد الحكام المحليون وجباة الضرائب من اعتصارهم للفلاحين إلى مستويات عالية . وبدلاً من «المواطنين الجنود» الذين أقاموا الدولة ، بدأت السلطة الحاكمة في استيراد المرتزقة الأجانب . وفي أقل من قرن من الزمان ، أصبح الحكام الحقيقيون للإمبراطورية ليسوا من أعضاء الأسرة العباسية ، بل الجنود الأتراك من آسيا الوسطى .

(١) كانت أم الأمين عربية وأم المأمون فارسية – المترجم .

في سنة ٨٣٦ ، وفي محاولة للتخلص من الجنود أنفسهم الذين جلبهم إلى العراق ، ومن عداء المواطنين الذين اشتدت كراهيتهم لهؤلاء الأجانب ، خرج الخليفة المعتصم من بغداد ، وبدأ يشيد عاصمة جديدة أرادها ملاذاً له ولبلاطه على موقع مستوطنة تعود إلى الأزمنة العبيدية قبل آلاف السنين . وكانت سامراء هي تلك العاصمة الجديدة التي لا تبعد كثيراً عن العاصمة التي أقامها سرجون . وفي ذلك المكان أقام المعتصم ما يشبه فرساي عراقية ، يضم العديد من الحدائق الواسعة ، ومسجداً تبلغ مساحته ثلاثة أضعاف مساحة كنيسة القديس بطرس في روما ، بالإضافة إلى مجمع من القصور . العظمة الإمبراطورية كانت موضوعاً آخر من الموضوعات التي أخذها الحكام اللاحقون . وهذا الموضوع بالذات دفعه صدام حسين إلى الحد الأقصى والمدى الأبعد . ومع كون سامراء مدينة عظيمة ، إلاّ أنها لم توفر إلاّ وقفة قصيرة للراحة من بغداد العنيدة الجامحة . وسرعان ما بدأ الخلفاء يتساقطون تساقط حبات الحنطة بالمنجل «في الحصاد» . وفي سنة ٨٦١ قام جنود الحرس البرايتوري التركي باغتيال الخليفة «المتوكل» . وأعقب ذلك قيامهم في سلسلة متلاحقة من فترات قصيرة باعتقال أربعة ممن خلفوه في السلطة ثم اغتيالهم بعد ذلك . وثبت أن سامراء كانت سجناً أكثر من كونها ملاذاً . وفي سنة ٨٩٢ ، لم يبق لدى الخليفة وبلاطه خيار آخر ، فعادوا إلى بغداد .

وبينما فرض الجنود الأتراك سلطانهم على البغداديين جميعاً ، من الخلفاء إلى الحرفيين ، فإن الفلاحين تركوا وشأنهم لينصرفوا إلى حفر القطع الصغيرة من الأرض وحراثتها ، كما فعلوا منذ أيام العبيديين . وبما أنهم كانوا لا يملكون إلاّ القليل من المتاع والمال ، فإنهم لم يتعرضوا إلى السرقة . ولما كانوا يعيشون في أماكن نائية ومنعزلة ، فإنهم لم يكونوا يتأثرون بما يحدث في العاصمة . وفقرهم هو الذي كان يحميهم طوال معظم الألف سنة القادمة .

كانت التجربة مختلفة تماماً للأشخاص الجدد الذين جرى إحضارهم إلى الجنوب البعيد . وهناك ، في جو من الحرارة اللاهبة والرطوبة العالية ، أرغموا على التنقيب عن المعادن . وللقيام بهذا العمل الشاق ، بدأ رجال الأعمال البغداديون في استيراد العبيد السود من زنجبار . وكانت حياة الزنج ، كما عرفت تلك الجماعات في التاريخ العربي ، مزرية وقصيرة . وقد انتفضوا في ثورة في السبعينيات من القرن التاسع . وكما حدث للعبيد في الإمبراطورية الرومانية بعد قرون قليلة ، جعلهم اليأس جنوداً أكفاء . ولم

يتعرضوا إلى الهزيمة حتى سنة ٨٨٣ ، إلاّ أنهم تركوا تقليداً من الثورة ضد الحكومة ومالكي الأرض ترددت أصداؤه عبر القرون إلى أيامنا نحن .

ومن المعتقد ، مع تدهور الإدارة المركزية وفقدان الواردات من الولايات البعيدة ، أن إيرادات الحكومة انخفضت إلى نسبة ضئيلة من الإيرادات التي كانت تتوافر للخلفاء العباسيين الأوائل . وفي جهد يائس لاعتصار المزيد من الأموال للإدارة ، بدأنا نسمع عن مؤسسات بيروقراطية مريعة ، مثل «ديوان الرشاوى» و«ديوان المصادرات» . وليست لدينا وثائق معاصرة عن كيفية ردود أفعال الناس العاديين . ولكن لدينا من القرائن ما يدل على أنهم فعلوا كل ما في وسعهم حينذاك وحتى الآن للابتعاد عن الحكومة وتجنب الاحتكاك بها أو التعامل معها . وبالنسبة إليهم ، كانت الحكومة تعني دائماً الضرائب ، وكانت في كثير من الأحيان نذيراً بالخراب .

وتدهورت الخلافة العباسية من مركزها كواحدة من أعظم إمبراطوريات العالم ، حتى أصبحت هي نفسها مطمحاً للطامعين وهدفاً للغزاة .

هناك فئتان تستحقان أن تذكرا بإيجاز واختصار على الأقل . جاء الشيعة البويهيون من الجبال الإيرانية الشمالية القريبة من بحر قزوين . وعلى خلاف البريتاريين الأتراك ، فإنهم غزاة هاجموا العراق من الخارج ، واستولوا على بغداد سنة ٩٤٣ . وفي عهد حكمهم ، تحولت الخلافة إلى مؤسسة شكلية شبيهة بيابان مومويااما عندما عاش أباطرتها في وضع مماثل تحت سلطان النخبة العسكرية ، التي نعرف أفرادها باسم «الشوغونات» . وقد قيض للبويهيين أن يسيطروا على عاصمة العراق على الأقل لفترة تزيد على قرن واحد ، إلى أن حلت محلهم فئة تركية جديدة ، هم السلاجقة الذين شيدوا إمبراطورية تحت السيادة الشكلية للخلافة جزئياً .

ومرة أخرى ، كما في ظهور الإسلام ، تأثر العراق بأحداث وقعت في أصقاع نائية . لكي نفهم لماذا توجه السلاجقة إلى العراق علينا أن ننقل بصرنا عبر آسيا إلى شرقها الأقصى . لعب الأتراك دوراً رئيسياً في التاريخ الصيني . وكان جنرال تركي هو الذي أنهى حكم سلالة تانغ في ٩٠٧ . والضباط الأتراك هم الذين أقاموا حكم «السلالات الخمس» التي سبقت حكم سلالة سونغ . وكانت إعادة إقامة حكم مركزي قوي في الصين سنة ٩٦٠ على يد سلالة سونغ قد أغلق الحدود الشمالية الشرقية أمام الاختراقات القبائلية التركية . وبعد أن سد الصينيون المسالك أمامهم في الشرق ، وبعد تعرضهم إلى هجوم المنغول التشي – تان ، تحول الأتراك إلى الغرب ،

وتوجهوا نحو العالم الإسلامي . ولم يأت الأتراك هذه المرة كمقاتلين أفراد ، كما حدث في القرون السابقة ، بل أتوا كقبائل مجتمعة بكاملها تحت قيادة زعمائها ذاتهم ، عاقدة العزم على المكوث ، واستولوا على بغداد في سنة ١٠٥٥ . وبالنسبة إليهم كانت بغداد مجرد أرض ينصبون عليها خيامهم . ومعظم أعمالهم كانت تجري خارج العراق ، ولكنهم تركوا تأثيراً باقياً على بغداد في مجال واحد بالذات . وقد أنشأ هذا التأثير رجل فارسي يدعى نظام الملك ، الذي كان رئيساً للوزراء لدى الملوك السلاجقة ، وأقام نظاماً للتعليم كان من أبرز أنظمة التعليم في العالم في عصره . وكان يهدف إلى إنشاء كلية للتعليم العالي في كل مدينة ذات شأن على امتداد الإمبراطورية ، لتدريب موظفين حكوميين وإداريين رسميين يتميزون بالمقدرة والكفاءة . والمثال الذي ضربه بعمله ، كان حافزاً للآخرين . ولفترة من الزمن كان هناك نوع من عصر نهضة مصغر[١] في جميع أنحاء العراق وبلاد فارس . وكان نظام الملك بالتأكيد واحداً من أبرز الرجال في العصور الوسيطة ، في الشرق أو الغرب معاً ، وغرس في عقول أجيال متعاقبة من الحكام مثلاً أعلى لحكومة يمكن قياسها بمدى اهتمامها بالتعليم . وهكذا ، حتى في الأنظمة الدكتاتورية التي قامت في العراق الحديث ، نسج حكام من أمثال عبد الكريم قاسم وصدام حسين على منوال نظام الملك ، وتابعوه في رعايتهم للعلم واهتمامهم بالتعليم .

طوال هذه السنوات المضطربة ، أبدى العراق ، وأظهرت بغداد بالأخص ، صموداً مشهوداً وتماسكاً واضحاً . وجاء الحكام وذهبوا ، وتعاقبت الغزوات واحدة بعد الأخرى ، والفيضانات أغرقت أجزاءً من المدينة ومساحات واسعة من الأرياف ، وانكسرت السدود وأهملت القنوات فامتلأت بالرواسب . ولم تعد «مدينة السلام» ، كما عرفت في عصر المأمون ، تنعم إلاّ بالقليل من السلام . ولكن المدينة استمرت في ازدهارها على الرغم من كل ما فعله الرجال لتدميرها . واستعادت المدينة بعضاً من حيويتها ، حتى ظهر كما لو أن الخلافة ذاتها تستمد طاقة جديدة من المدينة . ولكن ، كانت الأيام القادمة تحمل على نحو غير متوقع ما هو أسوأ بكثير .

في بلاد بعيدة عبر آسيا الوسطى ، ولد في سنة ١١٥٥ أعظم فاتح عرفه التاريخ وشهده العالم . جنكيز خان كاد أن يفقد حياته في شبابه العنيف ؛ وقد قضاه

---

(١) Mini-Renaissance

مقاتلاً ، أولاً من أجل البقاء ، وبعد ذلك من أجل السيطرة على القبائل المنغولية . وفي الفترة المبكرة من رجولته ، قاد جيوشه ، التي أصبحت حينذاك قوية ، في هجوم عبر آسيا الوسطى ، وتوغل في أعماق الصين . وفي سنة ١٢٢٠ ، قبل سبعة أعوام فقط من وفاته ، استطاع أحد الجيوش المنغولية أن يجتاح آسيا الغربية ، وأن يستولي على المدينة الكبرى بخارى ، وأن يدمرها . وبعد ذلك استولى المغول على سمرقند ، ونهبوها ، واستعبدوا الأشخاص الذين اعتبروهم مفيدين ، أي الصنّاع والحرفيين ، وذبحوا بقية السكان بحد السيف عن بكرة أبيهم . وهناك قصة رويت مفادها أن امرأة حاولت أن تقايض حياتها بماسة كبيرة تعطيها للذين كانوا يأسرونها ، وقد وافق الآسرون وطالبوها بالماسة . فأجابتهم أنها قد عمدت إلى المحافظة على الماسة بابتلاعها . فقاموا على الفور بنزع أحشائها . وعندما وجدوا عدة ماسات في معدتها ، نقلوا الواقعة إلى جنكيز خان ، فأصدر عند ذاك أوامره بفتح بطون الذين سقطوا في القتال وفحص أحشائهم بحثاً عن الكنوز التي تخفيها . وأينما ذهب المغول ، كانوا يقتلون الناس ، ويحرقون المدن أو يخربونها ويمسحونها من الأرض ، ويدمرون شبكات الري تدميراً شاملاً بحيث بقيت المناطق التي اجتاحوها مهجورة مئات السنين ، وبعضها بقيت غير مأهولة إلى الأبد . هذا الغزو المرعب ملأ قلوب العراقيين يأساً . فماذا يمكن أن يتوقعوا غير الموت والخراب؟ وهذا الرعب ذاته اجتاح أوروبا ، ومن المحتمل أنه اجتاح أيضاً تلك الأجزاء من الصين التي لم تكن قد تعرضت بعد إلى الغزو . وما عدا الروس ، الذين كانوا مهزومين بالفعل وخاضعين للغزاة ، كان الأوروبيون محظوظين ، وتنفس العراقيون الصعداء مؤقتاً لفترة قصيرة نسبياً . وتوفي جنكيز خان في سنة ١٢٥١ . وبدأت الغزوات بعد ذلك من جديد . وفي سنة ١٢٥١ أرسل حفيد جنكيز خان مونغكة شقيقه كوبيلاي خان لاستكمال فتح الصين ، وشقيقه هولاكو خان باتجاه الغرب نحو البلدان الإسلامية . وركّز هولاكو اهتمامه وجهده على بغداد التي كانت ما تزال واحدة من أعظم المدن في العالم ، بعدد من السكان يصل إلى مليون نسمة . ولكي يقتحم أسوارها ، أحضر معه فريقاً من خبراء الحصار الصينيين ؛ ولكن قوته الأساسية كانت تتمثل في خيّالته المنضبطة المسلحة بأقواس مركّبة قوية . وكان رماة السهام هؤلاء الذين يمتطون ظهور الخيل هم الذين أطلقهم هولاكو على تلك الجماعات المثيرة للاضطرابات في الجبال العراقية والفارسية ، الأكراد . ولم تكن هذه هي المرة الأخيرة التي يسعى فيها الغزاة للقضاء

المبرم عليهم .

ثم واصل هولاكو زحفه على بغداد . وهناك ، الخليفة المستعصم ، الذي يعني في العربية «الشخص الذي يسعى للحصول على ملاذ» ، طلب وعرض الهدنة . وكان جواب هولاكو أن يهاجم المدينة في قتال عاصف . في كانون الثاني سنة ١٢٥٨ ، كانت هناك ثلاثة جيوش منغولية تحاصر بغداد تماماً وتحيطها إحاطة السوار بالمعصم . وفي هجوم شجاع ولكن متهور ، خرجت القوة الرئيسية للخليفة من وراء الأسوار وقاتلت الأعداء . وكما اعتادوا أن يفعلوا ، تظاهر المغول بأنهم يتراجعون وينسحبون ، ومن ثم أغرقوا بالماء المنطقة خلف المهاجمين البغداديين ، وشنوا هجوماً مضاداً ، وأعملوا فيهم ذبحاً وتقتيلاً . وبعد أيام قليلة ، بدأ المغول هجومهم على المدينة ، وفي أقل من أسبوع واحد استطاعوا أن يقتحموا دفاعاتها . وفي العاشر من شباط ، في بادرة شجاعة مذهلة ، خرج المستعصم من المدينة للاستسلام ، ولم يجد ملاذاً . وأرغموه أن يصدر أوامره إلى السكان ، طالباً منهم أن يضعوا أسلحتهم جانباً وأن يتبعوه . وعندما فعلوا ذلك ، هاجمهم المغول وأعملوا فيهم ذبحاً وتقتيلاً بلا شفقة ولا رحمة .

ودخل هولاكو إلى المدينة ، وأخذ الخليفة معه ، وسأله أين يحتفظ بخزينته . عند ذاك ، ربما حدث بالفعل شيء شبيه بالرواية الخيالية التي أوردها مؤرخ . عندما شاهد هولاكو ما تحويه الخزينة من كنوز ونفائس ، قيل إنه وضع كومة من الذهب على صينية أمام الخليفة المذعور ، وأمره أن يأكل . وعندما أجاب الخليفة أنه لا يستطيع أن يأكل الذهب ، وبّخه هولاكو وزجره بطريقة مهينة لأنه لم يستخدم ما اختزنه من ذهب في تشكيل جيش مدّرب أفضل . واستسلم الخليفة إلى مصيره ، وأجابه أن ما فعله هو قضاء الله وقدره . فقال هولاكو البوذي «حسنا ، ومصيرك هو أيضاً قضاء الله وقدره» .

وجاء قضاء الله وقدره كما فسرهما هولاكو بسرعة البرق . وتفيد الروايات التاريخية أن المستعصم قد لُفّ بسجادة وقتل ركلاً بالأقدام . وكانت هذه هي عادة المغول في اجتناب إراقة دماء ملكية . عائلة المستعصم ، بالإضافة إلى آلاف عديدة لا تحصى من سكان المدينة ، تقدرها المصادر التي عاصرت الحدث بثمانمائة ألف نسمة ، جرى قتلهم في مذبحة غير مسبوقة لا مثيل لها ، واستبيحت المدينة سلباً ونهباً لمدة أسبوع .

بمثل القدرة على استعادة الأنفاس وامتصاص الصدمات التي شهدناها نحن في أزماننا في المدن التي خرّبتها الحروب ، بدأ البغداديون الذين كتبت لهم الحياة «بعد الإعصار المغولي» يمسكون مجدداً بما يسعهم الإمساك به من أسباب حياتهم «الاعتيادية» وجوانبها . ما حدث في بغداد بعد هولاكو كان شبيهاً بما حدث في هيروشيما بعد القنبلة الذرية . الطابوقات رصفت في أكوام مجدداً ، وعرضت البضائع للبيع والشراء ، وعقدت الزيجات بين الشباب والشابات ، والأطفال أصبحوا يولدون ، والحياة مضت في مسارها . ولكن ، على خلاف الناس في الكوارث الحديثة ، لم يكن لدى البغداديين مجتمع حديث يستندون إليه ويستعينون به . وطوال السنوات التي أعقبت المذابح الفعلية ، حصدت المجاعات والأوبئة عدداً هائلاً من الأرواح .

هول الخراب وما أعقبه ما يزال يصدم العقل . لماذا فعل المغول ما فعلوه؟ أعتقد أن أفضل جواب هو أنهم كانوا يحاولون تحويل آسيا كلها إلى النوع الوحيد من الاقتصاد الذي عرفوه ، أي النظام الرعوي العشائري . وبالنسبة إليهم ، كانت المدن وسكانها ، وبالأخص أنظمة الري التي كانت تمتلكها ، كانت كلها عوائق وموانع أكثر من كونها أرصدة وأصولاً . واتساع مساحة الصين سيؤدي في آخر المطاف إلى تخفيف غلواء أولئك الذين توجهوا جنوباً مع كوبيلاي ، إلاّ أن مساحة العراق لم تكن على درجة من الاتساع بحيث تكون كافية للتخفيف من غلواء أولئك الذي توجهوا «غرباً» مع هولاكو .

بعد قرن مضطرب من الزمان ، تقاتل فيه عدد من الحكام على الفضلات والعظام التي تركها المغول وراءهم ، دخل إلى المشهد خليفة جديد آخر لهولاكو . وكانت بغداد ما تزال في طليعة قائمة أهدافه ، على الرغم من أنها لم يكن لديها إلاّ القليل من الثروات والنفوس بالقياس إلى الأزمنة السابقة . وإذا كان تيمورلنك قد قتل عدداً أقل من البشر «في بغداد» ، فإن السبب يعود إلى وجود عدد أقل من السكان على قيد الحياة . ولكنه فعل أفضل ما يستطيع أن يفعله في هذا الصدد بالعدد الذي وجده من الناس . ويقال إنه قد ذبح حوالي تسعين ألف بغدادي في سنة ١٤٠١ . ومثل العديد من المدن الكبرى في آسيا الغربية ، تحولت بغداد إلى مقبرة .

بعد قرن لاحق من الزمان ، قامت سلالة حاكمة جديدة في إيران ، تكاد تكون قد قامت حرفياً من الرماد ، هي سلالة الصفويين . وبوصفهم شيعة ، كانوا ينجذبون إلى العراق لأنه كان بالفعل هدفاً للزيارة التي يحج فيها الزوار «الشيعة» إلى قبور

«قديسيهم» . وهكذا قام الشاه الصفوي الجديد بجولة انتصارية في المدن المقدسة «الكوفة وكربلاء والنجف» . ولكي يحتفل بالمناسبة على النحو الذي أصبح الآن معتاداً ، ذبح العديد من وجهاء السنّة .

من المفيد هنا أن نستطرد بشيء من الإسهاب عن الاختلاف الذي حدث بين الإسلام السنّي والإسلام الشيعي في العراق وإيران . المذابح المنغولية كانت أدهى وأنكى بكثير من الكارثة التي عانتها أوروبا الحديثة في الطاعون الأسود المميت . كان تدمير البنية التحتية المادية ضربة نهائية قاضية ، جعلته غير قابل للعلاج أو الإصلاح . ولكن الأهم من ذلك كله ، أن الهزائم التي تعاقبت هزيمة بعد أخرى على أيدي المغول ومن تبعوهم ، أدت إلى ضياع ذلك الشعور بالرضى الإلهي الذي أضفاه النجاح الدنيوي على الإسلام . وهذا الضياع كان تأثيره أشد بوجه أخص على السنّة الذين كانت لهم اليد العليا طوال قرون . التدهور الذي أصاب السنة في مكانتهم وسمعتهم وقوتهم ، فتح الطريق أمام اندفاع الصوفية المختلفة كلياً . وفي حين وضع الحكام السنة نبرة التأكيد على القانون ، والفقه الأساسي ، والعقلانية ، فإن الناس العاديين في بؤسهم وخوفهم كانوا يتلهفون على أسباب الراحة والطمأنينة التي يستمدونها من الصوفية والنزعة الأخروية(١) . وانتشرت الصوفية بسرعة فائقة حتى في أوساط الطبقات السنية الأعلى . الصوفية ، وزيارة العتبات المقدسة ، وتبجيل رجال الدين ، ونحلة تقديس الشخصيات البارزة المتدينة ، كلها أعادت تشكيل الإسلام بالفعل . وبعبارة وجيزة ، ما كان موجوداً دائماً كدين شعبي ، تقدم إلى الأمام ، وأصبح في الطليعة . وكانت هذه الموجة العارمة من القعر تفسر جزئياً صعود الصوفيين وافتتانهم بالعراق . الاندفاع العاطفي المتجسد في مرثية استشهاد «الإمام» الحسين ، امتزج بالقوى الصوفية المستمدة من الدين الفارسي القديم في عصور ما قبل الإسلام ، الزرادشتية .

العديد من هذه الميول والنزعات أثّرت أيضاً على السكان في الإمبراطورية العثمانية التي كانت قد قامت حديثاً . التصوف السني والمذهب الشيعي انتشرا على نطاق واسع في جميع أنحاء الأناضول ، ولكنهما لم يؤثرا على الحكام العثمانيين . وبما أنهم تقليديون ، فإنهم لم يتعاطفوا مع الصوفية أو النزعة الأخروية . وبالنسبة إليهم ،

---

(١) الأخروية في مقابل الدنيوية – المترجم .

كانت رسالة الله قد تجسدت في النظام والسلطة . وهكذا حدث عندما اعتلى العرش في سنة ١٥١٢ أحد أقوى وأعنف سلاطين آل عثمان ويدعى سليم المتجهم - كان رد فعله على صعود الشيعية الفارسية وإعلان الحاكم الصفوي الشاه إسماعيل أنها الدين الرسمي للدولة الإيرانية ، كثير الشبه برد فعل ملك اسبانيا الكاثوليكي على البروتستانتية الإنكليزية للملكة إليزابيث . والفرق الوحيد هو أن «ارمادا»[1] السلطان سليم كان يتحرك على الأرض .

السلطان سليم تذرع بالمذبحة التي أوقعها الشاه بأبناء ملته من مشاركيه في المذهب السني ، واستشاط غضباً لأن الفرس كانوا يحرّضون على التمرد والعصيان في إمبراطوريته ، فقرر أن يفتح العراق وأن يذل الفرس .

العثمانيون استخدموا المدفعية ، والمشاه المدربين المنضبطين ، والتفوق العددي ضد الإيمان الديني الذي كان يعتمر في قلوب الفرس - الذين كانت صرختهم للحرب حينذاك كما في الثمانينات من القرن العشرين تعلن رغبتهم في الاستشهاد . وفي معركة جالديران في منتصف صيف عام ١٥١٤ ، استطاع السلطان العثماني أن يسحق الجيش الفارسي الذي لم يكن يملك إلاّ القليل من الأسلحة النارية . كان الانتصار التركي كاملاً ، وأفلت السلطان الفارسي في اللحظة الأخيرة ، وكان قاب قوسين أو أدنى من الأسر . ولكن الجنود العثمانيين أسروا حتى حريمه ، إلاّ أن اللوجستيات كانت ضد الأتراك . وهكذا تكيف الطرفان على خوض سلسلة من الحروب الحدودية المتقطعة التي استنزفتهما دون أن يتمكن أحدهما من إحراز نصر حاسم . وكان العراق هو غاية الحرب وساحة القتال في وقت واحد وعلى حد سواء .

هذه الفترة الطويلة من الصراع التركي - الإيراني مرت بلطف نسبي على الفلاحين والبدو من أبناء العشائر ، دون أن تحدث فيهم ضرراً بليغاً أو دائماً . ولكنها أحدثت تأثيراً محسوساً من جهتين في العراقيين الحضريين من أبناء المدن . أولاً - أنها عرقلت أو منعت استعادة العافية الاقتصادية . وثانياً - أنها أدت إلى ترسيخ انقسام السكان بين شيعة وسنة . وقد مال الحضريون السنة إلى التعاطف مع الحكومة العثمانية ، في حين مال الحضريون الشيعة إلى التعاطف مع الإيرانيين . ولكن

---

(١) الأسطول الإسباني الكبير الذي انتصر عليه الأميرال الإنكليزي نلسون في معركة الطرف الأغر - المترجم .

الاختلافات بينهما كانت أعمق بكثير مما قد توحيه هذه العبارة للوهلة الأولى . وبما أن الشيعة كانوا بوجه عام هم الطرف المضطهد الذي يتعرض إلى القمع ، فإنهم تماسكوا بعضهم مع بعض تماسكاً متيناً بوصفهم طائفة . وفي هذه الوحدة المتماسكة والطائفة المتحدة في السواعد والقلوب ، أصبحت السياسة والدين شيئاً واحداً مشتركاً تحت قيادة «مرشدين» ، كما تفرض تقاليد الزرادشتية الفارسية . وهؤلاء «المجتهدون» هم الذين كانوا يشكلون قيادة جماعية تعرف باسم (المرجعية) التي تأخذ على عاتقها مهمات تجسيد تقاليد الجالية ، وتعليم تابعيهم ، وتوجيه الرعية وإرشادهم . وفي حين أن المرجعية منفصلة عن الحكومة ، إلاّ أنها تقوم بالعديد من الوظائف التي ننسبها نحن إلى الحكومة . فيتولون إدارة الجهاز التعليمي ، ويجمعون الضرائب ، ويعملون كقضاة في المنازعات ، ويصدرون الفتاوى . وبما أنهم ينظرون إلى الحكومة السنّية باعتبارها حكومة غير شرعية ، فإنهم كانوا أحياناً يستخدمون قواتهم الخاصة شبه العسكرية للدفاع عن أنفسهم أو للهجوم على الآخرين . والواقع أنهم ما يزالون يفعلون ذلك . وفي نظر الحكومة بالطبع ، كانت مثل هذه الأعمال تُصنّف بوصفها إرهاباً ، وكانت في كثير من الأحيان تقمع بلا هوادة . وهذا الصراع مستمر في عراق هذه الأيام ، حيث تكون المرجعية حكومة ظل .

لم يوجد شيء شبيه بالمرجعية في العراق السني ، ولم تكن هناك حاجة لها ، فالحكومة العثمانية كانت تتكلم باسم جميع السنة ولكنها كانت تتكلم بصوت هامس خفيض . وبعد أن رجع العراق إلى الوضع الاجتماعي البدائي وشبه الرعوي الذي كان سائداً في العصور العبيدية ، أصبح فقيراً إلى الحد الذي لم يعد فيه مهماً للإمبراطورية . وهكذا كان الأتراك ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم رعاة ، وإلى العراقيين باعتبارهم قطعاناً من الغنم تعود لهم . وبما أنهم لم يكونوا يهدرون الموارد التي يحتاجونها لغزو أوروبا والسيطرة على أرض مصر الأغنى كثيراً ، فإن العثمانيين لم يفعلوا في العراق شيئاً سوى أنهم كانوا يجزّون صوف الغنم ليس غير . (و «الغنم» هي الكلمة التي استخدمها العثمانيون بالفعل) . وفيما عدا ذلك ، لم ينفق العثمانيون إلاّ أقل القليل من المال والجهد ، بما يكفي للمحافظة على الحد الأدنى من النظام .

حوالي منتصف القرن التاسع عشر ، بدأ العراق يتعرض إلى عدد من التغيرات التي ستسود في مجتمعه طوال القرن التالي . وأهمها كان تحول المجتمع «العشائري»

من مجمتع شبه بدوي إلى مجتمع زراعي مستقر . والحكومة العثمانية شجعت هذا التغيّر لأنها وجدت أن تحقيق السيطرة وجباية الضرائب أسهل مع الفلاحين منها مع البدو ، ذلك أن جزّ الصوف كان أسهل عندما تكون الغنم محصورة في مساحة صغيرة .

كان مدحت باشا والياً مصلحاً . ولكي يسهّل الاستثمار وجباية الضرائب ، حاول أن يقنن الحقوق المختلفة في الأرض ، التي تراكمت عبر سلسلة طويلة من الممالك والإمبراطوريات ، والتي فرضت عشوائياً على الحقوق المتعارف عليها التي تعود إلى المستوطنات العبيدية الأولى . واكتسب عمل مدحت باشا زخماً بنمو تجارة التصدير ، وبالأخص في الرز والتمور ، مما شجّع تجار المدن وزعماء العشائر على الاستثمار في استصلاح الأراضي ، وحفر القنوات ، وبناء السدود . وأولئك الذين لديهم مهارات و/ أو علاقات أفضل هامشياً سرعان ما ابتدعوا طرقاً لزيادة الأراضي التي كانوا يملكونها ، بالإضافة إلى زيادة سيطرتهم على رجال العشائر ، الذين كانوا يتمتعون بالاستقلال فيما سبق ، مع مساعدة من جنود الحكومة من حين إلى آخر . وهكذا بدأت عملية شجعها البريطانيون خلال الحرب العالمية الأولى ، والتي ستصل إلى أوجها في الثلاثينات من القرن الماضي ، عندما أصبح رجال العشائر بالفعل عبيداً[1] لدى مالكي الأرض التي يشتغلون فيها .

ومع رواج تسديد أثمان المحاصيل التي تباع لقاء أموال تدفع نقداً ، تضاعفت مساحة الأراضي الزراعية ، وبالأخص تلك المروية جيداً في جنوب العراق . عند ذلك ، وقد أغراهم انتظام الحياة – أو بعبارة فظة خالية من المجاملة – عندما أغرتهم إمكانية ملء بطونهم بالطعام طوال العام ، تخلّت أعداد كبيرة من البدو عن حياتها البدوية ، وتحولوا إلى مزارعين كاملين لا يعملون في غير الزراعة ، بعد أن كان معظمهم قد مارس الزراعة ممارسة متقطعة عندما أتاحت لهم الأمطار المنهمرة أحياناً أن يفعلوا ذلك . وقد دفع الخوف من الحكومة وتجّار المدن ، الذين كانوا جميعاً من السنّة ، بالعديد من هؤلاء المزارعين إلى اعتناق المذهب الشيعي ، وهم أسلاف العراقيين الجنوبيين الحاليين .

الأجانب لم يكن لهم دخل في هذه التطورات . وبينما بدأوا يصلون إلى العراق

---

(١) Serb : القن وجمعها أقنان . وتعني العبيد لدى مالكي الأرض التي يزرعونها – المترجم .

أو يمرون من خلاله في القرن الثامن عشر ، فإنهم وجدوا العراق فقيراً إلى الحد الذي لا يثير الاهتمام . ولكن البريطانيين اكتشفوا فيه ما يمكن استخدامه ، فنهر الفرات شكّل حلقة في الطريق من إمبراطوريتهم النامية في الهند إلى انكلترا . ومن أجل هذه الحلقة ، عمد البريطانيون إلى إعادة تكوين النظام الذي استخدمه الفرس والمغول القدماء – خدمة نقل البريد على ظهور الجمال . وباستخدام الجمال الدروميداري(١) في البريد البريطاني ، استطاع الإنكليز في الهند أن يقيموا اتصالات مع لندن في ظرف أسابيع بدلاً من الشهور التي يتطلبها الإبحار حول القرن الإفريقي . والإبحار في نهر الفرات بتتبّع مجراه كان أسلم من المجازفة بالإبحار في المياه الضحلة والمخاطر غير المحسوبة في البحر الأحمر بسفن شراعية تتحرك بقوة الرياح . وللمحافظة على هذا الطريق ، أقام البريطانيون قنصلية في البصرة سنة ١٧٦٤ ، وأخرى في بغداد سنة ١٧٩٨ . وهاتان القنصليتان حافظتا على سلامة الطريق نسبياً . ولكن البريد كان يتأخر في كثير من الأحيان ، وكان في بعض الأحيان لا يصل على الإطلاق . وفي سنة ١٨٠٠ ، اشتكى موظف كبير في الهند من أنه «لم يستلم سطراً واحداً من المعلومات الموثوقة من انكلترا منذ «سبعة» أشهر «التأكيد جاء من الكاتب الأصلي نفسه» . . . «المعلومات السريعة والموثوقة والمنتظمة من إنكلترا ضرورية للعملية التجارية والإدارة الحكومية في هذه الإمبراطورية» . ومن هنا ، وبعد سنوات قليلة ، وبالتحديد في سنة ١٨٣٤ ، استورد البريطانيون أول زوارق بخارية للخدمة في نهري الفرات ودجلة .

ما بدأه البريطانيون ، تابعه الأوروبيون الآخرون . ومنذ حوالي سنة ١٨٤٠ ، بدأت مناقشة مشروع لمد سكة حديد . وسكة الحديد ربما كانت ستحل مشكلة السرعة ، ولكنها لم تكن ذات معنى من الناحية الاقتصادية ، لأن عدد سكان العراق كان قليلاً . ومن هنا ، اقترح مهندس نمساوي حلاً في سنة ١٨٧٢ : توطين مليونين من الألمان على امتداد ضفاف الفرات . ولم ينفذ هذا الاقتراح ، ولكن امتيازاً منح في سنة ١٨٩٩ إلى شركة ألمانية لبناء سكة حديد من اسطنبول إلى البصرة ، مما أثار الهلع لدى البريطانيين .

الخوف من زحف الأوروبيين باتجاه الهند من خلال نهر الفرات كان كابوساً

---

(١) Dromedary الجمل العربي الوحيد السنام – المترجم .

بريطانياً منذ سنة ١٧٩٨ عندما أنزل نابليون ثمانية وثلاثين ألف جندي فرنسي في مصر . وبعد سنة واحدة ، بدأ فتح فلسطين وسوريا بوصفهما محطتين في الطريق إلى الهند ، ولكنه هزم بانتشار وباء الطاعون . وإدراكاً منهم بأنهم لا يستطيعون دائماً الاعتماد على الوباء ، أرسل البريطانيون جيشاً للتعجيل في الانسحاب الفرنسي . ولكن قلقهم الحقيقي لم يكن منبعثاً من احتفاظ الفرنسيين بمصر ، بل من احتمال تحركهم إلى العراق . ومنذ وقت مبكر في سنة ١٧٩٨ ، كتب وزير الحربية البريطاني يقول : «سيحاول بونابارت ما وسعه وأمكنه أن يتجنب أخطار البحر ، الذي ليس من عناصر قوّته ، بل . . . سيزحف على حلب ، ويعبر نهر الفرات ، ويقتدي بمثال الإسكندر ، ويتابع التحرك «جنوباً» على امتداد نهري الفرات ودجلة ، ونزولاً إلى الخليج الفارسي ، سيواصل زحفه على الهند» .

مع تراجع التحدي الفرنسي ، ظهر أنه قد استبدل بتهديد روسي (الذي كان جزءاً من الحرب الخفية التي كانت تعرف بـ «اللعبة الكبرى» في أفغانستان ، ولكنه شمل العراق أيضاً من خلال الأحداث في الإمبراطورية العثمانية) . ثم حلت ألمانيا محلها باعتبارها مصدراً لتهديد الهند . فعندما توحدت ألمانيا في سنة ١٨٧٠ ، تبنت سياسة خارجية هجومية . وفي الجزء المتعلق بالعراق من هذه السياسة ، طلبت بإلحاح منحها امتيازاً لسكة حديد في سنة ١٨٩٩ ، عرف باسم سكة حديد برلين - بغداد . وافتتحت خطاً ملاحياً إلى الخليج في سنة ١٩٠٦ ، تعمل عليه السفن البخارية . وتوجس البريطانيون خيفةً ، فمنعوا شيخ ذلك الميناء التجاري الصغير المعروف باسم الكويت من منح الألمان أية تسهيلات لسفنهم ، وبدأوا العملية التي ستجعل الكويت دولة منفصلة . وكان المطلوب أن تكون الكويت «سدّادة» القنينة العراقية . والتأكد من أن السدّادة بقيت مغلقة بإحكام كان جوهر السياسة البريطانية في الخليج .

ولكن الأحداث في العراق سرعان ما أضافت هدفين جديدين إلى السياسة البريطانية . اكتشاف احتياطات ضخمة من النفط في إيران ، إلى الشرق من عبادان ، سنة ١٩٠٧ ، قاد البريطانيين إلى الاعتقاد أن العراق قد يحتوي أيضاً على النفط . وكل قارئ للإنجيل كان يعلم «بالفرن الناري الملتهب[1]» الذي كان بالتأكيد في

(١) يدعى حالياً «بابا كركر» وهي بقعة بالقرب من كركوك ترتفع فيها ألسنة اللهب من نار - أبدية خالدة - المترجم .

العراق . ومع تحوّل البحرية الملكية تواً من إحراق الفحم إلى إحراق النفط ، رأى البريطانيون «مصلحة قومية حيوية» في النفط . كان النفط موجة المستقبل ، واعتقد البريطانيون أن الذين يسيطرون على النفط سيحكمون العالم أو على الأقل لا يخسرون الإمبراطورية . وكما قال لاحقاً رجل الدولة البريطاني البارز لورد كرزون عن الحرب العالمية الأولى : «طاف الحلفاء إلى النصر على موجة من النفط» .

بدأت بريطانيا في التفكير بقيمة ممكنة أخرى للعراق ، وهي قيمة تأخذنا إلى الوراء مرة أخرى ، وتحملنا إلى بداية قصتنا مع الثورة الزراعية . وساورهم الاعتقاد أن «بابل» يمكن بالفعل أن تصبح مرة أخرى جنة عدن . وفي عشية الحرب العالمية الأولى ، أحد هؤلاء الرجال الإنكليز المعروفين بغرابة أطوارهم الذين انجذبوا إلى الشرق ، وهو الكاهن جي . تي . بارفيت ، وصف العراق بقوله إنه «مفتاح المستقبل» . السير مارك سايكس ، أبرز مستشار للحكومة البريطانية في شؤون الشرق الأوسط في ذلك الحين ، كتب يقول : «لاشك في أن أرض العراق هي الأغنى في العالم» . حتى أكثر المهندسين رزانة ورصانة أصبحوا في حالة شاعرية عندما وصفوا العراق . والمرجع الإنكليزي الأبرز في شؤون الري كتب في ١٩١٠ يقول ما مفاده إنه ما إن تتحقق السيطرة على دجلة والفرات حتى يمكن توطين الملايين من الهنود «الفائضين» ، الذين كانوا حينذاك يموتون بالمجاعة في الهند البريطانية ، على ضفاف دجلة والفرات . وهناك ، كمزارعين ، يستطيعون إنتاج ما تتطلبه الإمبراطورية البريطانية جمعاء من قمح للطعام وقطن للصناعة . وأضاف قائلاً إن العراق يستطيع «أن يحقق درجة من الخصوبة غير مسبوقة ، وليس لها مثيل في التاريخ» . وهكذا وقف العراق في مفترق تاريخي ومنعطف حاسم في صيف عام ١٩١٤ ، لكي يدخل إلى مرحلة جديدة ، ولكي يصبح «العراق البريطاني» .

الفصل الثالث
العراق البريطاني

على الرغم من أن الحرب العالمية الأولى بدأت في أوروبا في شهر آب سنة ١٩١٤ ، إلاّ أن بريطانيا لم تعلن الحرب على الإمبراطورية العثمانية حتى الخامس من شهر تشرين الثاني . ولكن قبل أن تعلن الحرب رسمياً ، اعترفت بريطانيا بالكويت ، التي كانت في ذلك الوقت جزءاً من الإمبراطورية العثمانية ، بوصفها دولة مستقلة تحت الحماية البريطانية . وبعد ذلك ، في السادس من تشرين الثاني ، أنزلت بريطانيا قوة عسكرية مشتركة بريطانية – هندية في ميناء الفاو الجنوبي . وتقدمت هذه القوة إلى الداخل ، وسيطرت على المنطقة حول البصرة . وقد قام البريطانيون بهذه الخطوات ، متذرعين ظاهرياً بحماية حقل النفط في إيران المجاورة الذي كانوا يحتاجون إلى إنتاجه لبحريتهم . ولكن منذ الأيام الأولى ، كان احتلالهم يتوخى هدفاً مختلفاً تماماً . وبدأوا فوراً بفرض القوانين البريطانية – الهندية ، والشرطة ، والإدارة البيروقراطية ، والحكومة ، في المنطقة التي يسيطرون عليها . وبعبارة أخرى ، فإنهم بدأوا يتعاملون مع الجزء الذي يسيطرون عليه من العراق كجزء من إمبراطوريتهم الهندية .

لماذا قرر البريطانيون احتلال العراق؟ الأجوبة المعاصرة عن هذا السؤال كانت غامضة ومعقدة ومتحيزة ، وشبيهة تماماً بالأسباب والمعاذير التي استخدمتها أمريكا في تبرير غزوها للعراق سنة ٢٠٠٣ . وبما أنها ساهمت في تشكيل شطر كبير من المستقبل ، فإنها تستحق الإيضاح .

في المراسلات الدبلوماسية التي تبودلت بين لندن ودلهي خلال السنوات التي سبقت الحرب ، كان التهديد المنبعث مما سمي حينذاك بالدعوة إلى الوحدة الإسلامية[١] يشغل حيزاً بارزاً . الحلفاء – بريطانيا وفرنسا وروسيا – كانوا يسيطرون

---

(١) Pan Islamism

على عدد كبير من السكان المسلمين في أفريقيا وآسيا . وكل واحد منهم كان يخشى أن يحاول رعاياه المسلمون طرده إلى الخارج . وكانت ثورة السيبوي[1] سنة ١٨٥٧ توفر النص الذي عكف السياسيون البريطانيون سنة ١٩١٤ على دراسته . وكانوا يرتهبون مما يمكن أن يحدث في الهند إذا نشبت حرب مع الإمبراطورية العثمانية ، الذي كان اسم سلطانها الخليفة العثماني يردده يومياً الملايين من المسلمين الهنود في صلواتهم . هل سينهضون ضد عدوه إذا دعاهم؟ وكان حكامهم البريطانيون يخافون أنهم سيفعلون ذلك . وكانوا يعتقدون دائماً أن جماهير آسيا كانت على وشك النهوض وكانت قوات أمنهم تخبرهم ، كما يفعل رجال الشرطة بطبيعتهم ، أن هناك دسائس تآمرية تحبك يومياً في سائر أنحاء الهند . وطالما أن الموظفين البريطانيين كانوا «يعلمون» ، أصبح العمل الاستخباري للحصول على المعلومات الحقيقية الدقيقة غير وارد وغير ضروري .

وإذا ساورهم أي شك ، فإن «سيناريو الأسوأ من الاحتمالات» قد دعمه ما سمعه البريطانيون من الروسيين . القيصر كان قد بحث مرات عدة مع السفير البريطاني ما يساوره من قلق حول الدعاية التركية بخصوص «الوحدة الإسلامية» بين الثوار المسلمين «الهائجين» في إمبراطورية روسيا في آسيا الوسطى .

جميع المزاعم كانت مجرد إشاعات ، والكثير منها تبين أنها كانت خرافات ، ولكن الخشية كانت عارمة . تلك الخشية ربما تجد القياس الأفضل ليس في التقارير الدبلوماسية الرصينة ، بل في رواية كانت ذات شعبية في ذلك الوقت من تأليف جون بوكان . «العباءة الخضراء» - سلف سلسلة جميس بوند التي قيّض لها لاحقاً أن تخلب لب الرئيس جون ايف . كينيدي - كانت رواية مشوقة ومثيرة عن عملاء أتراك وألمان أشرار ، يحرّضون على إشعال حرب مقدسة لم يمنعها إلاّ العملاء البريطانيون الجريئون البواسل . الرواية «العباءة الخضراء» أعطتنا العميل (٠٠٧) بوقت طويل قبل أن يخترعه إيان فليمنج .

إذا وضعنا جانباً الأعمال القصصية الخيالية الغريبة ولكن الممتعة ، كانت المخاوف البريطانية والروسية تنطوي ، بالطبع ، على بعض الحقيقة ، وهي كذلك دائماً . فالخرافة لا تصبح ذات معنى إلاّ إذا جرى تطريزها بمقدار ضئيل من الحقيقة ، ولكن

---

(١) Sepoy

المهمة الحقيقية للتحليل كانت حينذاك ، وتبقى اليوم ، أن يحدد نسبة الخيال الذي اختلط بالواقع . وما إن يدرك السياسيون البريطانيون من ذوي الشعور بالمسؤولية معنى ما يسمعونه ، حتى يصبح من واجبهم أن يقرروا ما الذي يمكنهم أن يفعلوه حيال ذلك ، وما هي البدائل المتوافرة ، وما هي فرص نجاح كل منها ، وما هي التكاليف التي ينطوي عليها كل منها .

وبحلول الوقت الذي بدأوا فيه بفهم الحقائق الأساسية ، كانت بدائلهم قد ضاقت ، فالألمان كانوا قد كسبوا الأتراك إلى جانبهم . وقبل أن تنشب الحرب بالفعل ، كان بوسع البريطانيين أن يعملوا بفاعلية أكبر لكي يجعلوا الإمبراطورية العثمانية تقف على الحياد . وذلك كان بالطبع ، مهمة صعبة ، لأنهم والروس كانوا يهاجمون الإمبراطورية العثمانية طوال قرن من الزمان ، ولكن كلفة عدم إبقاء الأتراك العثمانيين خارج دائرة الحرب لم تكن قد نالت ما تستحقه من تقييم ، وتبيّن في آخر المطاف أن تلك الكلفة تكاد تكون كارثية .

عندما أشعلت بريطانيا نار الحرب مع الإمبراطورية العثمانية بغزوها العراق ، كان من المحتوم أن تترتب على ذلك جملة من التداعيات العملية . وجواب السلطان العثماني بعد أسبوع من الإنزال البريطاني في العراق بطريقة كان هو أكثر ما يخشاه البريطانيون والفرنسيون والروس ، وتمثل الدعوة إلى إعلان الجهاد المقدس ، وكان لا بد أن يفعل ذلك . وكان البريطانيون والفرنسيون محظوظين ، ولكنه كان حظاً أعماه الغباء . لم تحدث انتفاضة كبيرة بين الشعوب الخاضعة لهم ، إلاّ أن الحظ لم ينقذ الروسيين ، ولم تستطع روسيا أن تجهز جيوشها الجرارة لا بالغذاء ولا بالسلاح . ومن هنا ، عندما أغلق الأتراك طريق التموين من خلال جزر الدردنيل ومضيق البسفور ، بدأت روسيا تعاني من المجاعة ، وبدأت جيوشها تتعرض إلى الانهيار . عندئذ أصبحت ثورة ١٩١٧ شبه محتومة . وهذه الواقعة حررت جيشاً ألمانياً كاملاً للقتال على الجبهة الغربية التي كانت تتعرض إلى ضغط شديد .

أعقبت ذلك إخفاقات سياسية أخرى . بعد أن قرر البريطانيون أن يدخلوا الحرب ، كان بوسعهم أن يحققوا ما كان مهماً لهم بالفعل ، أي حماية إنتاج إيران من النفط ، عن طريق الاكتفاء باحتلال المنطقة الصغيرة التي تحيط بالكويت والبصرة . وبدلاً من ذلك ، قرروا أن يأخذوا ما كانوا يسمونه «تلك الرقعة من الأرض المعروفة باسم ميزوبوتاميا» «بلاد ما بين النهرين - المترجم» . وفي حزيران سنة ١٩١٥ ، قام

الجيش الصغير الذي أنزلوه في البصرة بتقدم متهور نحو بغداد . لماذا فعلوا ذلك؟

أحد الأسباب التي لا يمكن استبعادها في الحروب هو أن الجنرالات يتم توظيفهم لكي يقاتلوا . تلك هي الطريقة التي تتيح لهم أن يحصلوا على الترقيات والأوسمة . الجلوس في البصرة كان باعثاً على الملل . ومن الواضح أنهم شعروا أن الآخرين يسبقونهم إلى هالات المجد وأكاليل الغار ، وأنهم يبعدون عن مراكز الضوء إلى الظلال ، وأنهم يتعرضون إلى التهميش بالأحداث الكبرى التي تتكشّف على الجبهة الغربية . وكانوا لا يريدون أن يخسروا لحظتهم في التاريخ . وفضلاً عن ذلك ، مهما كان ما يريدونه ، فإنهم لم يكونوا يتمتعون بسيطرة كلية . فما إن تبدأ العمليات العسكرية ، حتى تميل إلى توليد زخمها الخاص ويصبح من الصعب إيقافها . وكما أفاد الضابط السياسي الأقدم في القوة البريطانية ، ما إن نزل الجنود إلى البر في البصرة ، فإنه لم يستطع أن يرى كيف «يمكننا أن نتجنّب احتلال بغداد» .

لم يكن الأمر متعلقاً فقط بزخم العمل العسكري أو بمطامح الجنرالات . كانت توجد في ذلك الوقت ، كما توجد دائماً مبررات أخرى . تقارير الاستخبارات كانت تشير إلى أن الأتراك كانوا يحشدون الجنود ويستعدون للهجوم . وفي المواقع الخلفية ، كانت المصالح الخاصة تضغط من أجل منافعها . والجنرالات كان يدفعهم التجار البريطانيون الذين رأوا أن الزحف كان في مصلحتهم ، وسيشعر الأمريكيون بأمثال هذه الضغوط في العراق بعد قرن من الزمان تقريباً .

وعلى كل حال ، البريطانيون كانوا يعتقدون أن دحر الأتراك سيكون سهلاً ، والإمبراطورية العثمانية ستتداعى وتنهار عند أول لمسة . والسياسيون الأوروبيون اعتادوا منذ وقت طويل أن يسخروا من «رجل أوروبا المريض» هذا . ومرة أخرى ، أساءوا الحكم ؛ فالأتراك كانوا جنوداً شجعاناً يتميزون بالقدرة الفائقة على الاحتمال . وستثبت الحرب ، كما تفعل الحروب عادةً ، أنها أكثر كلفة وصعوبة مما كان متوقعاً . وفي غاليبولي ، قاتل الأتراك ضد نصف مليون جندي بريطاني وفرنسي مما أدى إلى تعادل دموي . وفشل تلك الحملة كان هو السبب الذي دفع روسيا إلى المجاعة ، ومن ثم إلى الانهيار .

كانت النتيجة في العراق أقل أهمية من الناحية الاستراتيجية ، ولكنها كانت مكلفة أيضاً . وعندما زحف الإنكليز نحو بغداد ، أرغمهم الأتراك على الارتداد إلى الوراء ، وحاصروا فرقة بريطانية كاملة في مدينة الكوت على مسافة مائة ميل إلى

الجنوب من بغداد . وطوال أربعة شهور حاول البريطانيون كسر الحصار[١] ، وخسروا ٧٠٠٠ جندي في هذه المحاولات . وفي اليأس الذي أطبق عليهم ، جرّبوا رشوة القائد التركي لكي يسمح للجنود المحاصرين بالخروج أحراراً . وشعر القائد التركي بأنه قد أهين ، ورفض العرض البريطاني ، وأرغم ١٣٣٠٩ جنود بريطانيين على الاستسلام . وسيستغرق احتلال العراق أربع سنوات ، وسيكلف ٢٠٠٠٠ إصابة بريطانية أخرى ، معظمهم من الهنود .

إذا نظرنا إلى الموضوع في ضوء الاستراتيجية العليا ، فسنجد أن تحويل الجنود كان أكثر أهمية من عدد الإصابات . ذلك أن عمليات حماية قناة السويس ، التي هاجمها الأتراك في ربيع ١٩١٥ ، ودفع الأتراك بعيداً عن خط أنبوب النفط الإيراني الجنوبي الغربي ، الذي قطعه الأتراك مدة ثلاثة شهور في ١٩١٥ ، تطلبت أكثر من مليون جندي بريطاني كانت الجبهة الغربية تحتاجهم أشد الحاجة . والكلفة المالية أيضاً كانت مذهلة ، فالشرق الأوسط استنزف مبلغاً من المال كان جسيماً في ذلك الوقت مقداره ٧٥٠ مليون باوند استرليني[٢] . ولم يكن شيء من هذا متوقعاً أو محسوباً عندما اتخذ القرار باحتلال العراق . مرة أخرى ، فإننا نجد حالات مماثلة للأحداث في أيامنا نحن ، عندما قيل لنا إن حرب العراق ستكلفنا مبلغاً من المال يتراوح بين ٣٠ و٤٠ بليون دولار ، ثم ظهر أن هذا المبلغ ليس إلاّ ١٠ بالمائة من الكلفة الكلية المحتملة .

ربما كان البريطانيون سيغزون العراق مهما حدث . وفي مقابل التكاليف ، كانت هناك أرباح حقيقية يمكن كسبها في العراق . وكان من المعتقد يقيناً تقريباً أنه يحتوي على نفط ، وأن إمكانياته الزراعية هائلة . والنفط والغذاء معاً سيزيدان من قوة الإمبراطورية البريطانية ويجعلان ممتلكاتها الهندية أكثر أمناً . ولكن بريطانيا كانت تحت ضغط مالي كبير . ومن هنا ، اقتضت الحاجة أن يُحكم العراق بأرخص وسيلة وأقل كلفة . ولأجل الاقتصاد في الإنفاق والنقل بالسفن ، ينبغي على الجيش أن يسد احتياجاته الغذائية مما يوفره الموقع الأرضي من محاصيل وموارد . وبدأت جميع

---

(١) عُرف هذا الحصار بحصار الكوت في تاريخ الحملة على العراق . وكان القائد البريطاني هو الجنرال تاونستد الذي عامله الأتراك معاملة لائقة - المترجم .

(٢) من ناحية المال النقدي ، كان هذا المبلغ يعادل اليوم بوجه عام ١٨ بليون دولار . ولكن هذا المبلغ كان يشكل نسبة من الناتج البريطاني العام أكبر بكثير مما يوحيه الرقم - المؤلف .

الجهود الممكنة تبذل من أجل التشجيع على زيادة الإنتاج المحلي من المواد الغذائية . هذا الجهد كان ناجحاً جزئياً . وعند نهاية الحرب ، استطاع البريطانيون أن يستزرعوا ٥٠٠ ميل مربع ، أي ما يعادل ١٣٠٠ كيلو متر مربع ، من الأراضي التي كانت صحراوية فيما سبق ، والتي انتجت ٥٠٠٠٠ طن من الحبوب . كما أنهم شجعّوا إنتاج المعدات البسيطة وإصلاح واستعادة المعدات الخردة التي استهلكها الجيش . والأهم من ذلك كله ، أنهم قرروا أن يحكموا العراق بقوة عسكرية «نحيلة» . وينبغي أن يقوم بالسيطرة الفعلية على السكان فريق متخصص من الضباط السياسيين مع بعض المساعدة من حراس مجندين محلياً . وكان هذا على كل حال هو ما تعلّموه في الهند . وبما أن الأتراك المنسحبين أخذوا سجلاتهم معهم وعمدوا إلى إخلاء معظم موظفيهم ، فإن البريطانيين استوردوا الموظفين الهنود للقيام بالأعمال الكتابية وحفظ السجلات .

ما إن بدأت تكاليف حملة العراق في الازدياد ، وأضيفت إلى النفقات الهائلة للحرب في أوروبا ، حتى أصبح واضحاً للحكومة في لندن أنه ينبغي العثور على وسائل إضافية للاقتصاد . ولكن ، خلال السنوات الأولى من الحرب ، لم تصل هذه الرسالة إلى أذهان الموظفين البريطانيين في العراق . وطالما أنهم كانوا يقاتلون الأتراك بالفعل ، فإنهم كانوا يستطيعون تبرير ما كانوا يفعلونه ، إلاّ أن حربهم انتهت بالهدنة في ٣٠ تشرين الأول سنة ١٩١٨ .

قررت الحكومة البريطانية أن أفضل طريقة لتوفير المال هي تخفيض الحاجة إلى جيش احتلال . ومن هنا ، وعلى الرغم من احتجاج القائد «البريطاني» العام(١) ، صدر الأمر اليه بأن يقرأ بياناً على المواطنين في بغداد يدعوهم فيه «إلى المشاركة في إدارة شؤونكم المدنية بالتعاون مع الممثلين السياسيين لبريطانيا العظمى» . هذا البيان أثار حيرة العراقيين الذين سمعوه . هل كان يعني أنهم على وشك الاستقلال؟ هل كان يعني أنهم سيصبحون مستعمرة؟ هل كان يعني أي شيء على الإطلاق؟ لم يستطع أحد من العراقيين أن يجيب عن هذه الأسئلة ، ولا استطاع ذلك سادتهم البريطانيون . ولم يفعل هذا البيان شيئاً سوى أنه أخفى بالورق الخلافات العميقة بين الموظفين البريطانيين ، وحاول أن يستر افتقارهم إلى الاتفاق على قرار حول السياسة .

(١) الجنرال مود - المترجم .

في أحد طرفي طيف السياسة البريطانية الممكنة ، كان يقف أحد أبرز وألمع الإنكليز في تلك الحقبة . آرنولد ويلسون كان جندياً شجاعاً ، وحامل أحد أعلى الأوسمة البريطانية ، وباحثاً عليماً بلغات العراق وإيران وحضاراتهما ، وصاحب مذكرات هي مثال ونموذج لما ينبغي أن تكون عليه المذكرات . وكان يتمتع بنزاهة شخصية لا يشك فيها ولا غبار عليها ، وكان موجّه الدفة وربان السفينة في إدارة تتميز بالكفاءة والمقدرة والأمانة ، وكان هدفه النظام والاقتصاد ، ولكنه لم يكن يقبل المشورة من السكان الأصليين ، ولا كان يتسامح معهم إذا أظهروا معارضة . ودورهم الصحيح في نظره واعتقاده كان الإذعان والامتثال ، في حين يقوم الضباط البريطانيون المهرة بعمل ما هو الأفضل للعراقيين ، ويحكمون تماماً كما يفعل الفلاسفة الملوك في جمهورية أفلاطون .

كان ويلسون وهيئة موظفيه يعرفون في الأوساط الإنكليزية «بالمدرسة الهندية» ، لأنهم جميعاً أتوا إلى العراق من الخدمة في إمبراطورية بريطانيا الهندية . وكان من رأي ويلسون وإدارته أن العراقيين ينقسمون إلى ثلاث فئات : الفئة الأولى تتألف من البدو والأكراد . وكانوا يشبهون قبائل الباتان في المنطقة الهندية الحدودية الشمالية الغربية ، ويتميزون بالشراسة والحيوية ، رائعون ولكنهم خطرون ، متوحشون نبلاء لا يمكنهم على الإطلاق أن يتولوا إدارة دولة حديثة . والفئة الثانية شبيهة بالطبقة الفلاحية الهندية الواسعة ، بؤساء ، فقراء ، جهلة وغير قادرين بوضوح على حكم أنفسهم بأنفسهم . والفئة الثالثة هي الفئة الأسوأ ، وتمتلك قدرة كافية فقط لكي تكون جماعة تخريبية بامتياز . وتضم «عرب المدن» . وإذا سُمح لهم بالدخول إلى الحكومة ، فإنهم سيعيثون فساداً في البلد ويخربونه بالكامل . والنتيجة الأخيرة كانت أن البريطانيين ينبغي أن يحكموا العراق ، وأية وجهة نظر أخرى كانت ساذجة وغير مسؤولة .

كان ويلسون واثقاً أن العقلاء من العراقيين يؤيدونه ، وفي ١٦ تشرين الثاني سنة ١٩١٨ ، أرسل تقريراً إلى لندن ودلهي كان كما لو أنه صورة طبق الأصل من تقرير مرسل إلى واشنطن في سنة ٢٠٠٣ ، إذا أجرينا بعض التغييرات في العناوين واستبدلنا بعض الأسماء . وكتب يقول : «العراقي العربي العادي ، على خلاف الحفنة من السياسيين الهواة في بغداد ، يرى المستقبل بوصفه مستقبلاً يتميز بالعمل القائم على العدل والإنصاف والتقدم المادي والأخلاقي تحت حماية بريطانيا . . .

العرب راضون باحتلالنا» .

سرعان ما سيكتشف ويلسون كم كان على خطأ . عندما بدأ العراقيون يسمعون أن بريطانيا قد قررت أن تمنح نفسها «انتداباً» -فهموه على أنه يعني وضعاً استعمارياً لهم - بدأوا يتجمعون في الأماكن العامة الوحيدة التي يعرفونها ، وهي الجوامع والمساجد ، لكي يستمعوا إلى مواعظ ضد البريطانيين وخطاباتهم . وعندما حاولت لجنة من المندوبين أن تقدم عريضة إلى ويلسون ، رفض في الوهلة الأولى أن يستقبلهم ، وبعد ذلك ملأ القاعة بمؤيدين اختارهم بعناية ، واستكمل تلك التدابير بإيقاف زورق حربي في نهر دجلة ومدافعه مصوّبة على مكان الاجتماع . عندئذٍ استمع إلى ما يريد الاستماع إليه من الأقوال .

ومرت سنوات عديدة قبل أن يعترف البريطانيون بما كان واضحاً حتى في ذلك الوقت للمراقبين المحايدين . العراقيون لم يكونوا يريدون أن تحكم بريطانيا بلادهم . والإنكليز الذين فهموا ، اعتقدوا أنه ينبغي أن يضعوا حجاباً يخفي وجه حكمهم ، وكانت عصبة الأمم هي التي ستزودهم بالحجاب المطلوب . العراق لن يكون مستعمرة بريطانية ، بل سيكون بلداً خاضعاً «للانتداب» الذي ستمنحه العصبة إلى بريطانيا ، التي ستتولى تأهيل الشعب العراقي للحكم الذاتي . وقام بوضع الخطة فريق من الموظفين البريطانيين بينهم العقيد تي . تي . لورنس - ويعرفون بين الإنكليز «بالشريفيين» ، لأنهم كانوا يعملون مع أسرة شريف مكة في «الثورة في الصحراء» - في ربيع عام ١٩١٩ .

وصادقت على الانتداب الدول المتحالفة الرئيسية في مؤتمر عقد في سان ريمو في نيسان ١٩٢٠ ، وفي نظر العديد من العراقيين ، الذين اعتادوا أن يقرأوا ما بين السطور ، كان ذلك يبدو برهاناً على أن بريطانيا تعتزم البقاء في العراق .

شعر العراقيون بقلق شديد . وكما اعترف أخيراً التقرير الرسمي البريطاني لسنة ١٩٢٨ : «منذ البداية ، كانت فكرة الانتداب فكرة كريهة ومقيتة لدى جميع الفئات المتعلمة في البلاد تقريباً» . ومع أن معظم المعارضة التي واجهتها بريطانيا كانت عراقية أصيلة ، كما أوضح هذا التقرير ، إلا أنه كانت هناك بعض الإثارة الخارجية . وهذه الحقيقة أتاحت للموظفين البريطانيين في ذلك الوقت ، كما أتاحت للموظفين الأمريكيين في وقت لاحق ، أن يزعموا أن المعارضة المحلية كانت ضعيفة ، وتتألف من «فلول» ساخطة ، يحرضها الأجانب الغرباء . دعونا نتفحص هذا الزعم ، لأنه كان

مهماً حينذاك كما هو في وقت لاحق .

بما أنه لم يتم التوصل إلى اتفاق حول الحدود ، فإن وضع الموصل بقي غامضاً ، فهل ستكون عراقية ، أو سورية ، أو حتى تركية؟ وكانت بريطانيا لا تولي اهتماماً لمطالب «الوطنيين» على امتداد نهر الفرات ، وبالأخص في بلدة القائم الصغيرة ، حيث سينشب القتال مرة أخرى في عامي ٢٠٠٣ و٢٠٠٤ . وبعد ذلك ، عندما أصدرت لندن أوامرها إلى البريطانيين لتهدئة الوضع بالتراجع عن المواجهة العنيفة ، تصور الوطنيون أنهم قد أحرزوا نصراً . وأخيراً ، حاولت ثلة صغيرة من الوطنيين ، تعمل باسم جمعية العهد ، وتطلق على نفسها اسماً تفخيمياً طنّاناً رنّاناً هو «جيش العراق الشمالي» ، أن تستولي على الموصل في أيار ١٩٢٠ . وفي عينة استباقية تعطي فكرة عما سيجيء من أحداث في ٢٠٠٣ ، أفلحت في تدمير عربتين مدرعتين في كمين وإسقاط طائرة عسكرية .

من المحتمل أن عدداً قليلاً من العراقيين سمع بهذه الأحداث في الظروف البدائية التي كانت سائدة في ذلك الوقت . أما أعضاء «جيش العراق الشمالي» ، الذين كانوا قلة قليلة ، فسرعان ما ألقي القبض عليهم أو اضطروا إلى الفرار . وأعمالهم البائسة هذه توقفت نهائياً عندما هاجم الفرنسيون سوريا واحتلوها . وتنفس البريطانيون الصعداء ، وأصبح بوسعهم الاسترخاء لأنهم كسبوا . ولكنهم كسبوا معركة ، ولم يكسبوا حرباً .

معظم السكان العراقيين لم يكن يهمهم المحرضين الخارجيين ، بل إن الأحداث داخل العراق هي التي كانت تهمهم . وهذه الأحداث لم تنل نصيباً كافياً من الدراسة الدقيقة ، ولكنها تستحق الاهتمام من وجهين معاً : لأنها أثرت بعمق بعراق تلك الأيام ، ولأنها ذات صلة وثيقة بالوضع الراهن .

كما فعلوا في المنطقة الحدودية الهندية الشمالية الغربية ، كان الضباط السياسيون البريطانيون يحاولون تحقيق «الأمن» بالطريقة التي كانت تبدو لهم تدخلاً منطقياً في المجتمع . وانطلاقاً من اعتقادهم أن العشائر العراقية شبيهة بالعشائر اليابانية ، عمدوا إلى تشخيص الوجهاء المحليين و«ترقيتهم لكي يكونوا الرؤساء» . وانتقلوا بعد ذلك إلى تقنين أوضاع هؤلاء الرجال في «أنظمة المنازعات العشائرية» التي منحت الرؤساء الجدد سلطة على أبناء جلدتهم كانت ثورية . ومن أجل تأمين السلطة الجديدة ، منحوا الرؤساء عدداً من المغانم والامتيازات ، بما في ذلك ، على حد

تعبيرهم الدقيق ، «دفعات كبيرة من المعونات والمساعدات المالية ، فضلاً عن الإعفاء من الضرائب» ، بالإضافة إلى التصديق على ملكيتهم الخاصة للأراضي التي كانت تُعد في السابق ملكية عامة مشتركة للعشيرة . وبمنحهم هذه الامتيازات والسلطات ، افترض البريطانيون أن الرؤساء ستكون لديهم مصلحة في الحكم البريطاني ، وأنهم يستطيعون أن يسيطروا على رجالهم في العشيرة . ولكنهم في الواقع أشعلوا نار ثورة اجتماعية في داخل ما كان يتطور لكي يصبح ثورة وطنية . أثار الرؤساء الجدد غضب مواطنيهم عندما استخدموا مراكزهم لكي يستحوذوا على ثروات ، ولكي يخدموا بوصفهم القوة الأمامية لاحتلال بريطاني سيصبح دائمياً ، في وقت واحد وعلى حد سواء .

مع ازدياد الغضب وتفاقمه ، عمد البريطانيون إلى الرد باستخدام القوة العسكرية . أدى هذا بدوره إلى التقارب بين السنّة والشيعة بعد أن كانا يتبادلان العداء في السابق - ومرة أخرى ، كما سيحدث في ٢٠٠٣ و٢٠٠٤ . وخلال الشهر الفضيل (رمضان) ، عقدت اجتماعات ، مشتركة سنية - شيعية ، وألقيت خطابات تدعو إلى الاتحاد ضد البريطانيين . وكما هي العادة التقليدية في أوقات الخطر ، أغلقت الأسواق ، وهوجم الجنود البريطانيين . وأصدر زعماء الطائفة الشيعية تعليماتهم إلى إخوانهم وأتباعهم ، بالأخص من أبناء العشائر في الجنوب ، بالثورة ضد البريطانيين . وفي الثلاثين من حزيران سنة ١٩٢٠ ، انفجر العراق في ثورة عارمة ضد البريطانيين .

كان لدى البريطانيين حينذاك ١٣٣٠٠٠ جندي في العراق ، وكانت تقف ضدهم في أي وقت محدد من الأوقات نسبة ضئيلة من ذلك العدد من العراقيين . وبدقة خارقة ، كانت أعداد الجنود والمقاومين في ذلك الحين تكاد تتطابق تقريباً مع أعدادهم في ٢٠٠٤ . ولكن ، على خلاف الجنود الأمريكيين في ٢٠٠٤ ، كان الجنود الإنكليز في سنة ١٩٢٠ ينتشرون على مساحة واسعة ، ويفتقرون إلى القدرة على الحركة السريعة . حرب العصابات لا يجيدها الجنود النظاميون ، في حين أن تكتيكات اضرب واهرب هي صنعة يتقنها رجال العشائر . وطوال الشهور الستة التالية ، قاتل البريطانيون الشعب العراقي كله بالفعل - بمن في ذلك الأكراد الذين يفترض أنهم معادون للعرب - وخسر البريطانيون ١٦٥٤ رجلا ، وأنفقوا من الأموال ما يزيد على ستة أضعاف ما أنفقوه على حملتهم العسكرية بكاملها خلال الحرب العالمية الأولى

في العراق .

الحكومة البريطانية شعرت بالارتياع . لم تكن هذه ثورة عشائرية ، كانت حرباً وطنية من أجل الاستقلال . لا شك في أن العشائر قامت بقسط كبير من القتال . ولكن كان يقودهم رجال دين محترمون ، سنّة وشيعة معاً ، وأطباء ، ومعلمون ، وتجار ، وصحفيون ، وحتى أولئك العراقيون «المدجّنون» الذين كانوا يتدربون لكي يصبحوا موظفين حكوميين .

الرجل الذي اعتقد ويلسون أنه أكثر سذاجة وإيغالاً في الخطأ من جميع الرجال ، الوافد الجديد المفوّه الذي يصغي إليه الموظفون الكبار في لندن ، أطلق الملاحظة الأكثر دلالة في المناظرة . العقيد تي . تي . لورنس[١] كتب رسالة ساخرة أرسلها إلى جريدة «لندن صنداي تايمز» في شهر آب سنة ١٩٢٠ ، عندما كانت بريطانيا تحاول توطيد احتلالها للعراق : «شعب انكلترا قد اقتيد في العراق إلى فخ سيكون من الصعب التخلص منه بكرامة وشرف . وجرى الإيقاع به باستخدام الحيلة والتضليل والخداع والتغييب المتواصل للمعلومات . وبلاغات بغداد تأتي دائماً متأخرة عن الأوان الصحيح والوقت المناسب ، فضلاً عن كونها غير نزيهة ، وغير أمينة ، وغير كاملة . . . ونحن اليوم لسنا بعيدين عن كارثة . . .» وبعد ، استطرد يقول مقارناً التجربة البريطانية بالتجربة التي كانت محتقرة في ذلك الوقت ، تجربة الحكم العثماني للعراق : «حكومتنا أسوأ من النظام التركي القديم . وقد كانوا يحتفظون بأربعة عشر ألفاً من المجندين المحليين ، وكانوا يقتلون نسبة متوسطة سنوية تتألف من مائتي عربي للمحافظة على السلام . أما نحن فنحتفظ بتسعين ألف رجل ، مزودين بالطائرات ، والسيارات المدرعة والزوارق الحربية والقطارات المدرعة . وقتلنا حوالي عشرة آلاف عربي في هذه الثورة هذا الصيف . وليس لدينا أمل في المحافظة على هذه النسبة ؛ فالبلد فقير ، والسكان متفرقون بأعداد قليلة على مساحات واسعة» .

لورنس وضع إصبعه أيضاً على النقطة الأكثر إزعاجاً من النقاط المزعجة : الكلفة المالية . فالسياسة التي اتبعها ويلسون لم تكن فاشلة فقط ، بل إنها كانت مكلفة جداً إلى الحد الذي لا يستطيع فيه أن يتحملها الجمهور الإنكليزي الذي أنهكته الحرب . وكان على ويلسون أن يرحل . وفي تشرين الأول استبدل بسواه ، وقرر البريطانيون أن

---

(١) Lawrence of Arabia .

ينفذوا خطتهم للانتداب ، وكانت تلك الخطة تقضي أن يصبح العراق «دولة مستقلة بضمان من عصبة الأمم ، وأن يكون خاضعاً للانتداب البريطاني . . .» . متى بالتحديد سيتحقق ذلك ، كان أمراً ترك غامضاً ، أو ، بعبارة أخرى ، سيستمر الحكم البريطاني «حتى يحين الوقت الذي يستطيع العراق فيه أن يقف على قدميه ، وعندها سينتهي الانتداب» .

الظروف لم تكن مواتية على الإطلاق لمثل هذه الدولة شبه المستعمرة (بفتح التاء) شبه المستقلة . والجنود البريطانيون كانوا ما يزالون مشتبكين في القتال في سائر أنحاء البلاد ، والمتمردون كانوا ما يزالون يشنون غارات مثيرة . الملفات الحكومية اختفت ، وكانت سُحب الدخان ما تزال تنبعث من الأبنية الحكومية المدمرة . وكنوع من ورقة توت لا تستر عرياً ، كائناً ما كان الوضع الذي سيصبح العراق عليه ، قرر المندوب السامي ، سيربيرسي كوكس ، تأليف «مجلس دولة مؤقت» يقوم على انتقاء الأعضاء . وفي خطوة كانت تستبق خطوات أمريكية مماثلة بعد أربعة وثمانين عاماً ، اختار بنفسه الأعضاء العراقيين فرداً فرداً . وكان عليهم أن يعملوا في مجالات معينة ، بسلطات محدودة ، وأن يقبلوا «نصائح» الموظفين البريطانيين . وكرئيس اسمي ومؤقت للدولة ، نصب كوكس رجلاً عراقياً طاعناً في السن ، شخصية تقليدية يعرف صاحبها بنقيب الأشراف[1] . وفي جانب من تحركاته لم ينل في ذلك الوقت إلاّ القليل من التمحيص ، قرر كوكس أن الفئة التي يستطيع العمل معها في العراق هم السنّة . ورفض عرضاً من المجتهدين الشيعة القياديين في النجف وكربلاء للتفاوض حول إنهاء الاضطراب العشائري . وأدت تحركاته المبكرة بالتراكم إلى إبعاد الطائفة الشيعية عن الحكومة البريطانية ، وفي وقت لاحق ، عن الحكومة العراقية أيضاً . والتيار الذي حرّكته كانت له نتائج عميقة امتدت إلى أيامنا الراهنة .

بعد ذلك ، هدأت البلاد التي أنهكها التمرد ، وبدأ البريطانيون في تنظيم الدوائر والإدارات لتقديم الخدمات الأولية .

ما كانوا يفعلونه حتى ذلك الوقت كان سلسلة من التدابير المؤقتة والبدائل المرتجلة . وبدا أن الوضع يتطلب ترتيباً دائماً ليس فقط للعراق بل أيضاً للمنطقة البريطانية برمتها . وهكذا ، في آذار ١٩٢١ ، عقد وزير المستعمرات حينذاك ، المستر

(١) السيد عبد الرحمن الكيلاني - المترجم .

وينستون تشرتشل اجتماعاً مع جميع الخبراء البريطانيين الكبار في شؤون الشرق الأوسط في القاهرة ؛ لتنظيم ليس العراق فقط بل الشرق الأوسط البريطاني بكامله .

السؤال الرئيسي بالنسبة إلى الجزء العراقي من جدول الأعمال كان يتعلق بكيفية تقليص النفقات . الجانب العسكري ينبغي تخفيضه إلى أدنى حد ، وهذا لا يمكن أن يحدث إلاّ إذا أمكن إقناع المتنفذين من العراقيين أن لديهم حكومة . وافق تشرتشل على كل ذلك ، ولكن من هو الذي سيقود مثل هذه الحكومة؟ كان هناك مرشحان محليان جرى تقييمهما ورفضا . كان الأول هو نقيب الأشراف ورئيس الحكومة الانتقالية ، وصرف النظر عنه لأنه طاعن في السن . وكان الثاني وزير الداخلية الانتقالي الذي عينه البريطانيون ، السيد طالب النقيب ، وهو رجل قدّم خدمات جلي للبريطانيين في خلال الحرب وأثناء التمرد اللاحق . رجل ليست مقدرته موضعاً للشك[1] . وكان وجيهاً بارزاً يتمتع بشعبية واسعة لا يدانيه فيها أحد من وجهاء العراق . وكان اختياره مستحيلاً ، كان صاحب شعار «العراق للعراقيين» . وعندما تكلم بالمكشوف أمام صحفي انكليزي عن أمله بأن يختار العراقيون قائدهم من بينهم ، ألقى البريطانيون القبض عليه ، وساقوه مخفوراً إلى سيارة مدرعة ، ونقلوه بسرعة إلى المنفى .

ونوقش اختيار عدد قليل آخر من المرشحين ، ولكن في الوقت الذي انعقد فيه مؤتمر القاهرة ، كان قد أصبح واضحاً أن قراراً قد اتخذ بعرض العرض على الرجل الذي نفاه الفرنسيون مؤخراً حينما كان ملكاً على سوريا . وهذا الرجل هو فيصل بن

---

(١) في ١٩١٠ ورد في تقرير لضابط الاستخبارات البريطاني أن «والياً فاسقاً ولكن نشيطاً ، هو سليمان نظيف ، أرسل إلى البصرة . وأراد السيد طالب أن يتخلص منه» . وهكذا خطرت على باله فكرة ذكية تقضي بإقناع جميع القوايد وصبيان الحمامات والراقصات وأصحاب المواخير في البصرة ، مع عدد قليل من القبضايات والأشقياء والنشالين ، أن يرسلوا برقية إلى طلعت باشا ، الذي كان حينذاك وزيراً للداخلية ، متوسلين إليه أن يبقي هذا الوالي النشيط والودود والكريم في وظيفته الحالية ، وبذلك يغيظ الأشرار ويخرسهم ويحبط دسائسهم ويملأ قلوب أصحاب العريضة على بعض رجال الدين من أبناء البصرة ، وسألهم فيما إذا كانوا يعرفون أصحاب التواقيع . فأجابوه أن أصحاب تلك العريضة معروفون تماماً لدى أهالي البصرة . وخسر سليمان وظيفته وحقق السيد طالب مبتغاه . وهذا مثال واضح وطريف على أساليبه في العمل السياسي – المترجم .

الحسين ، الذي كان البريطانيون قد عملوا معه إبان الثورة العربية ، والذي بدأوا يدفعون له معونة مالية .

كان تشرتشل يعرف القليل ويفهم الأقل عن فيصل . وفيما كان يستعد لتقديم بيان إلى البرلمان حول نتائج تسويته الكبرى للشرق الأوسط ، طلب تشرتشل من مساعده في وزارة المستعمرات (في ١٤ حزيران ١٩٢١) طلباً يبعث على الدهشة ، يبين جهله المطبق في الشؤون العراقية ، جهلاً رافق تلك الشؤون منذ ذلك الحين . «دعني أحصل على ملاحظة مكتوبة من ثلاثة أسطر عن الطابع الديني في شخصية الملك فيصل . فهل هو سنّي لديه ميول شيعية؟ أم أنه شيعي لديه ميول سنّية؟ أو كيف يوفق بينهما؟ ومن هو والده الحسين؟ أيهما هو الكنيسة الأرستقراطية الأعلى ، وأيهما هو الكنيسة الأرستقراطية الأدنى؟ ومن هم المتدينون في كربلاء؟ إنني أخلط دائماً بين هاتين الطائفتين» .

فيصل ، الذي كان معروفاً على نطاق واسع في سوريا وفلسطين ومصر بوصفه قائداً للثورة العربية ، كان معروفاً على نطاق ضيق في العراق ، لأن العراق كان معزولاً إلى حد بعيد عن بقية أنحاء العالم العربي خلال الحرب . ولم يجد البريطانيون في ذلك الوقت ، ولا الأمريكيون بعد ٨٣ سنة ، شخصاً في العراق يشعرون بأنه يناسبهم . وهكذا ، تماماً كما ركّز الأمريكيون في سنة ٢٠٠٣ أولاً على أحمد الجلبي وبعد ذلك على إياد علاوي ، ولم يكن أحدهما قد عاش في العراق طوال عقود من الزمن ، كذلك استورد البريطانيون فيصلاً . وفي محاولة تهدف إلى كسب أنصار له ، شن البريطانيون حملة دعائية ترمي إلى تكوين رأي عام يؤيده بوضوح ، ولكن فيصل شعر بخيبة أمل للاستقبال «الفاتر» الذي لقيه .

كان التشكيل الفعلي للدولة الجديدة أمراً أكثر أهمية من اختيار حاكم ، وإن كان أمراً أقل عجالة . فماذا كان العراق وم يتألف؟ في ظل الإمبراطورية العثمانية ، كانت المنطقة التي تعرف بالعراق أو ميزوبوتاميا تنقسم إلى ثلاث ولايات ترتكز ، كما كانت العادة العثمانية ، على المدن : البصرة في الجنوب ، وبغداد في الوسط ، والموصل في الشمال . وقبل نشوب الثورة الروسية ، كانت بريطانيا تخطط لتسليم الموصل إلى فرنسا ، بحيث تتكون منطقة عازلة بين عراق البريطانيين ومنطقة النفوذ الروسي التركية - الكردية - الأرمنية إلى الشمال . وفي مثل ذلك الوضع ، تكون فرنسا هي القوة التي تواجه الروسيين . ولكن عندما انسحبت روسيا الثورية من معاهدة سايكس

– بيكو التي تقضي بتقسيم الشرق الأوسط ، سارع البريطانيون إلى تغيير موقفهم . وبدأت الموصل تبدو بأنها تستحق الإصرار عليها والتمسك بها ، عندما أدرك البريطانيون أنه من المحتمل أن تحتوي تلك المنطقة احتياطات هائلة من النفط[1] ، وهكذا ضم البريطانيون ولاية الموصل إلى ولايتي بغداد والبصرة لتكوين العراق .

الذي سيفعلونه بكردستان كان مسألة أكثر تعقيداً . أثناء الحرب العالمية الأولى ، وصلت القوات الروسية لفترة وجيزة إلى راوندوز في ما أصبح لاحقاً كردستان العراق . وحاولت فيما بعد أن تقيم لنفسها قاعدة في جمهورية مهاباد القصيرة العمر . وهذه الأعمال أدت إلى إحياء الشبح القديم عن هجوم على الإمبراطورية البريطانية في الهند . وأرسل البريطانيون قوة مسلحة وحملة عسكرية ، محاولين إغلاق الطرق المؤدية إلى الجنوب من الدولة السوفيتية الجديدة . وفي مؤتمر باريس للسلام ، وافق البريطانيون بتردد على تأليف لجنة لوضع خطة من أجل تكوين منطقة كردية تتمتع بالحكم الذاتي . وإذا أظهر الأكراد أنهم مستعدون للاستقلال ، فإن مجلس عصبة الأمم سيمنحهم ذلك . وإذا حدث ذلك ، فإن الدول الكبرى ستوافق في تلك الحالة على السماح للأكراد في ولاية الموصل القديمة بالانضمام إلى الدولة الجديدة .

أصر السير بيرسي كوكس ومؤيدوه في «المدرسة الهندية» في العراق على أن تكون كردستان جزءاً من العراق . وتردد تشرتشل ، وشعر – وكان على صواب في شعوره كما ثبت لاحقاً – أن عراقاً عربياً سيضطهد أقليته الكردية . وتم التوصل إلى نوع من الحل الوسط : إبقاء الأكراد على حدة مؤقتاً وضمهم في آخر المطاف . ما سيقرر مصير كردستان في النهاية لم يكن يتوقف على الأكراد ، بل على حقيقة معرفة وجود كميات كبيرة من النفط في دولة كردية منفصلة ، وليس في عراق يسيطر عليه البريطانيون . واعترفت معاهدة لوزان ، التي وُقعت في ٢٤ تموز ١٩٢٣ ، بالدولة التركية ، ولكنها لمُ تشر إلى الأكراد . النفط هو الذي جعل كردستان عراقية .

كانت مسألة تهدئة العراق قد نوقشت بالفعل في مؤتمر القاهرة . قائد سلاح الجو الملكي البريطاني ، الماريشال الجوي ترنجارد ، اقترح وسيلة ثورية لتقليص النفقات وخفض التكاليف ، فكتب يقول إن الطائرات قد أثبتت جدواها في الحرب . المدافع

---

(١) استشاط الفرنسيون غضباً . واسترضاهم البريطانيون بمنحهم حصة هي ربع أسهم ما عرف لاحقاً بشركة نفط العراق (IPC) ، والموافقة على قبول الانتداب الفرنسي على سوريا – المؤلف .

الرشاشة، والقنابل، والغازات السامة (التي حث تشرتشل ورئيس هيئة الأركان المشتركة للإمبراطورية البريطانية على «اعتبارها أسلحة مشروعة في الحرب» في عام ١٩٢٠)، سترهب رجال العشائر وتوقع الرعب في قلوبهم. وفضلاً عن ذلك، تستطيع الطائرات أن تقوم بعمليات استطلاعية في مساحات واسعة، وأن تكشف التحشدات غير الاعتيادية للناس، وأن تنقل المعلومات إلى الوحدات الأرضية. وحينئذٍ تستطيع الشاحنات التي تحمل المدافع الرشاشة، وتدعى «الفوردات المسلحة»، أن تهرع إلى المكان المقصود. والبدو المسلحون ببنادق قديمة ويتنقلون على ظهور الإبل، لن يستطيعوا أن يصمدوا أمامها. وإذا حاولوا أن يفعلوا ذلك، يمكن عند ذاك مهاجمتهم بالغازات السامة، كما حدث بالفعل في بعض الأحيان.

مشكلة السيطرة على الصحراء، التي واجهها الفرس الساسانيون بتقديم المساعدات المالية إلى مملكة اللخميين في الحيرة، سيتم التعامل معها بالطائرات. والتقرير الذي قدّمه المندوب السامي إلى عصبة الأمم في ١٩٢٣ يلخص التأثير بقوله «العامل الرئيسي في تهدئة البلاد كان القوة الجوية الملكية (RAF). بالتظاهرات الفورية عند أول إشارة بالاضطراب وتنفيذها فوق أية منطقة مضطربة، أمكن تهدئة العصيان العشائري قبل أن يتحول إلى حالة خطيرة... في الأزمنة الماضية، كان على الطوابير التأديبية أن تتحمل الكثير من المشقات للوصول إلى أهدافها عبر الصحاري أو مروراً بمناطق وعرة، مع اضطرارها، بفعل ضرورات استعداداتها وزحفها، إلى منح أعدائها ما يحتاجونه من وقت لكي يستزيدوا من أسباب قوتهم، ولكن الآن، وحتى قبل أن يستكمل المتمرد المفترض خططه، يسمع أزيز الطائرات فوق رأسه. وفي أغلب الأحيان، يكون مجرد ظهورها كافياً. وبفضل القوة الجوية، أمكن الحصول على معلومات شديدة التمركز ولكنها واسعة الفهم، وهي جوهر السيطرة الحكيمة والاقتصادية».

على هذا النحو، بدأ البريطانيون بالفعل ثورة في العلاقة بين العناصر الحضرية والعشائرية في العراق. ولو لم يكن ذلك كذلك، لكانت الحركات السياسية المختلفة في العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي ينظر إليها بوصفها مجرد استمرار للسلسلة البائسة من دسائس البلاط التي شهدتها بغداد في الحقبة العثمانية. الجوانب العسكرية لهذه الثورة يمكن رؤيتها ليس فقط في عمل القوة الجوية الملكية، بل أيضاً في استخدام أناس اعتبرهم العراقيون «لا وطنيين».

كـان هناك في ذلك الوقت حـوالي عـشـرين ألف لاجئ ثوري مـسـيـحي من الأناضـول يقيـمون في مخـيم بالقرب من الموصل . وقرر البريطانـيون أن تجنيـد هؤلاء الرجال في قوة عسكرية ستكون له فائدة مزدوجة هي إطعامهم من جهة ، وتشكيل قوة عسكرية غير مكلفة لكي تحل محل بعض الوحدات العسكرية البريطانية العائدة إلى وطنها . وتلك القوة لا بد أن تدين بالولاء للبريطانيين ، لأن العراقيين سيعتبرونهم وكـلاء بريطانيين . وبمسـاندة «الفـوردات المسلحـة» ودعـمـهـا ، وطائرات القـوة الجـوية الملكية ، ستعمل وحدات «الليفي» ، كما أصبحت تدعى ، في خدمة البريطانيين طوال عـقـد كـامل من السـنين . وبحلول عـام ١٩٢٥ ، وصل عـددهم إلى سـبعـة آلاف وخمسمائة جنديٍّ .

في هذا الوقت ، تأسس جيش عراقي جديد ، يتألف كلياً تقريباً من المسلمين السنة ، ويقـوده ضـبـاط عـرب نالوا تدريبـاً تركـيـاً ، وكـان عـدده يسـاوي عـدد قـوات «الليفي» . ومع مجيء الاستقلال الشكلي ، أو الظاهري ، في الثلاثينيات من القرن الماضي ، استطاعت هذه القوة الصغيرة المسلحة تسليحاً فريداً ، والمدربة تدريباً جيداً ، والمنظمة تنظيماً معقولاً ، التي تمتلك قدرة نسبية على الحركة السريعة ، أن تدمر وحـدات الليـفي في صيف عـام ١٩٣٣ ، وكـان مقـيضـاً لهـذا الجيش أن يتـدخـل في الشؤون السياسية مرة بعد أخرى .

كانت قوات الليفي والجيش ذات فائدة محدودة في العشرينيات من القرن الماضي كقوات لحفظ النظام . والأهم من ذلك والأذكى في الأداء ، التأثير الذي أحدثه شق الطرق «من الحقل إلى السوق» . ضـابط سـيـاسـي بريطاني في كـردسـتـان لاحظ في ١٩٢٨ أن «شيخ قبيلة على مقربة من الحدود الفارسية لديه معاملة يريد أن يقضيها في مركز الإدارة ، كان عليه أن يقطع المسافة في يومين على صهوة حصان ترافقه ثلة من الخيالة المسلحة . وبعد استكمال طريق ريادي للسيارات من السليمانية ، مزود بمراكز للشرطة ، بدأت خدمة المواصلات بسيارات الأجرة (التاكسيات) . وعندما وجد شيخ القبيلة أنه يستطيع أن يحصل على مقعد بثلاث روبيات ويقطع المسافة في ساعتين دون تعب أو عناء ، استغنى عن اصطحاب أعداد كبيرة ومكلفة من الحراس المسلحين . وهكذا بدأت تضعف وتقل عادة حمل الأسلحة» .

الطرق أدت أيضاً إلى نشوء شريحة من التغـيـيرات الأخرى . وعندما وجـد القرويون أنهم يستطيعون بيع محاصيل معينة في المدن وشراء مالا يستطيعون إنتاجه

بأنفسهم ، تقدموا صوب الاعتماد على الأسواق الخارجية بدلاً من الاكتفاء الذاتي[1] الذي كان سائداً طوال آلاف من السنين . ولأنهم شاهدوا الجنود البريطانيين يستخدمون مصابيح الكيروسين والسكاكين الصغيرة التي توضع في الجيب ، وراقبوا تأثيرات البنادق والأسلحة النارية الأكثر تطوراً ، واستمعوا إلى طلبات زوجاتهم بالحصول على الأقمشة القطنية البراقة ، فإنهم هرعوا إلى السوق . وهناك ابتاعوا الأواني الخزفية الواردة من اليابان ، والسكائر من بغداد ، وخراطيش بنادق الرش من انكلترا . ومن النسخة العراقية للقبعة التي يعتمرها على رؤوسهم الجنود البريطانيون عندما يخدمون في المناطق الواقعة وراء البحار ، ونزولاً إلى ما يلبس على الجسد ، بدأ العراقيون يتخلون عن الملابس التقليدية تفضيلاً للأزياء الغربية . الأشياء القديمة ، والأدوات القديمة ، والأسلحة القديمة ، والعادات القديمة ، بدأت تنبذ وتستبعد . واحداً بعد الآخر ، أصبحت للناس مصلحة في التجارة ، ومن خلال التجارة أصبحت لهم مصلحة في استتباب النظام العام ، ومن خلال النظام العام أصبحت لهم مصلحة في الدولة . ومن أجل تسديد أثمان السلع المرغوبة ، كان الوضع يتطلب ثورة زراعية جديدة . فالمزارع لم يعد بوسعه أن ينتظر الفيضانات السنوية . وهذه لم تكن مريحة أبداً ، لأنها تأتي في وقت غير ملائم لنمو النباتات . وكان ذلك مشكلة تصارع معها المزارعون منذ أن بدأ المستوطنون العبيديون الأوائل يزرعون الأرض . والآن كان قد توافر بديل . أصبح من الممكن ضخ الماء إلى الأرض الجافة ، ولكن هذا البديل لا يمكن تنفيذه إلاّ إذا قام الذين يملكون المال ، أي تجار المدن ، بشراء المضخات ، ولكنهم لن يفعلوا ذلك إلا إذا كانت ملكية الأرض مأمونة ومضمونة . وهكذا بدأ البريطانيون ينظمون الملكية . والأساس الذي اعتمدوه وبنوا عليه كان القانون العثماني لسنة ١٨٥٨ ، وكان ذلك القانون يعامل معاملة تفضيلية أولئك الذين يدفعون الضرائب ، أي وجهاء المدن والمرابين .

أولئك الذين حجبت عنهم المعاملة التفضيلية كانوا «الناس الصغار» ، الذين كانوا بالفعل يحرثون الأرض ويشقون الترع ، وينظفون القنوات . أما حقهم في ملكية الأرض فكان بفضل العرف وليس بقوة القانون . وطوال آلاف السنين كان أسلافهم ، تماماً مثل الفلاحين الأوروبيين يخافون من الحكومة ، وكانوا يسعون إلى تجنب التعامل

---

(١) Autarky

معها ، وكانوا أميين إلى آخر فرد منهم ، وكانوا لا يفهمون ولا حتى يعرفون شيئاً عن أية وثائق قد تكون موجودة في مدن نائية . وطالما كان عملهم هو الشيء الوحيد المهم ، فإنهم كانوا في مأمن ، ولكن مع مجيء الطلمبات الميكانيكية والمحاريث التي تقودها الجرارات ، فإنهم أصبحوا في خطر . وذلك الخطر جاء بسرعة فائقة .

في سنة ١٩٢٥ أفاد المندوب السامي في تقرير إلى عصبة الأمم أن «جميع الأراضي بوجه عام تعود إلى الدولة باستثناء الممتلكات الحضرية الحرة ، وأن ملكية هذه الأراضي لا يمكن الحصول عليها إلاّ بتنازل الحكومة عنها . . .» . وكان ذلك يعني أن الفلاحين ليست لديهم حقوق في الأراضي التي عاش عليها أجدادهم منذ زمن سحيق في القدم ، وأن «تنازل الحكومة» كان فعلياً يعني أن هؤلاء الذين كسبوا رضى الحكومة هم مالكوا تلك الأراضي .

خلال الفترة من ١٩٢٠ إلى ١٩٣٢ أصبحت مساحات شاسعة من الأراضي على امتداد النهرين ملكية خاصة . كانت النتيجة إيجابية من الناحية الاقتصادية على الأقل مبدئياً . ازداد الإنتاج مع ازدياد مساحة الأرض المروية بالمضخات من مجرد ٧٢ ميلاً مربعاً إلى حوالي ٤٠٠٠ ميل مربع ، أو من ١٨٠ كيلو متراً مربعاً إلى ١٠٣٠٠ كيلو متر مربع . ولكن التأثير كان مختلفاً تماماً من الناحية الاجتماعية . وكما يوضح التقرير الذي قدمه الجانب البريطاني إلى عصبة الأمم ، «مالك المضخة المحتمل هو في المعتاد من الأحوال رأسمالي حضري مغامر ، لا يملك أرضاً ويتلهف إلى تطوير شطر من الأرض التي تخضع بالفعل للملكية العشائرية» . وهذا «الرأسمالي الحضري المغامر» يكون في العادة قد عقد صفقة مع أحد الرجال الذين «نصبهم» البريطانيون في المشيخة لتحويل الأرض العشائرية إلى ملكية خاصة .

استبعاد الفلاح من حقه في «أرضه» وصل إلى نتيجته المنطقية في ١٩٣٣ . وبحلول ذلك العام ، كان العراق قد أصبح مستقلاً من الناحية القانونية ، وإن كان ذلك الاستقلال شكلياً ، وامتلك برلماناً يتألف من خليط من المستثمرين الحضريين والزعماء العشائريين . وانتهزوا فرصتهم بالقانون رقم ٢٨ «حول حقوق المزارعين وواجباتهم» . وهذا القانون أدى بالفعل إلى تحويل أولئك الذين كانوا فيما سبق رجالاً أحراراً من أبناء العشائر والقرويين إلى أقنان (عبيد الأرض – المترجم) ، وعزز هيمنة «الشيخ» و«الرأسمالي الحضري المغامر» . وتحقق هذا التحول الاجتماعي المذهل من خلال تعريف الدين ، وتم تطبيق هذا القانون على أوسع نطاق ، بحيث لم يعد من

المحتمل أن يتحرر أي فلاح على الإطلاق من الالتزامات التي تقيده لقاء ليس فقط حصوله على البذور والمعدات ، ولكن أيضاً لقاء أي عمل تولاه مالك الأرض ، ولقاء أية مهمات كُلِّف بها ولم ينفذها بطريقة تدعو إلى الرضى . كان الفلاح مقيداً بالأرض . وإذا حاول أن يرحل ، كان مالك الأرض مخولاً باستدعاء البوليس أو حتى الجيش لكي يعيدوه ويرغموه على تسديد تكاليف خدماتهم . وإذا استطاع الإفلات والهرب ، كان اسمه يوضع في القائمة السوداء ، فيحرم من الحصول على عمل لاحق . هذه الثورة الاجتماعية أدت إلى توليد حقد كان سبباً في نشوب تمرد بعد آخر إلى أن حدث الانفجار الهائل في ثورة تموز ١٩٥٨ .

عندما تقرر الانتداب ، عقدت الحكومة البريطانية معاهدة بالتفاوض مع الرجال الذين نصبتهم هي كحكام للعراق . وتم التوقيع على هذه الوثيقة الغريبة في عام ١٩٢٢ . وفي حين أنها أكدت مجدداً على تحقيق الاستقلال بوصفه الهدف النهائي الذي يتوخاه العراق ، إلاّ أنها احتفظت للسلطات البريطانية بالسيطرة على الشؤون الخارجية والجيش والمالية . وكما سنرى ، فإن السلطات الأمريكية استنسخت هذه المعاهدة حرفياً تقريباً في «الدستور» الذي وضعته مع العراقيين الذين قامت بتعيينهم في سنة ٢٠٠٤ . وكما شعر العراقيون في ذلك واستمروا يشعرون طوال فترة «العراق البريطاني» ثم في فترة «العراق الأمريكي» لاحقاً ، فإن ما كان يسمى حكومة عراقية لم يكن إلاّ مجرد واجهة من الناحية العملية .

المعاهدة خلقت أيضاً سخافة قانونية . بريطانيا احتفظت بالتزاماتها أمام عصبة الأمم بوصفها الدولة المنتدبة (بفتح الدال – المترجم) ، ولكنها استبدلت الانتداب في العراق بمعاهدة ثنائية . والسؤال : كيف يمكن تحويل هذه الدائرة إلى مربع كان سؤالاً مثيراً للمنظّرين القانونيين . والجواب كان إعلان دستور جديد . وفي الجو السائد في تلك الأيام ، عندما كان المحامون في سائر أنحاء العالم يكتبون دساتير منمقة طنانة رنانة ، اتفق الجميع على أن العراقيين ينبغي أن يفعلوا الشيء نفسه ، وقضوا شهوراً في مناقشة الكلمات المناسبة ، ودرسوا بدقة دساتير أخرى للعثور على الإيقاعات الملائمة ، واستعيرت أجزاء حتى من بلاد بعيدة مثل نيوزيلندا ، ولكن النتيجة كانت جوفاء . وما تمخضت عنه تلك الجهود كان لا علاقة له مع الحقائق الاجتماعية والسياسية في العراق . وعندما وضع على محك التجربة ، أثبت «الدستور» أنه كان مجرد قصاصة مخربشة من الورق ، كما كان يتحتم أن يكون في الثلاثينات من القرن الماضي .

وفضلاً عن ذلك ، وعلى الرغم من العبارات المنمقة ، كان الدستور الذي جرى التصديق عليه في النهاية قد أبعدت عنه تماماً جميع ضمانات الحرية السياسية ، وأصبح ذلك واضحاً في أول انتخابات جرت تحت الحكم البريطاني في سنة ١٩٢٤ . فأعضاء مجلسي البرلمان (النواب والأعيان – المترجم) الذين تم اختيارهم فرداً فرداً ، اختيروا ليس فقط بالانتخاب غير المباشر بل أحيطوا بمساعدة دقيقة لكي يكون فوزهم بالتزكية . والنظام الانتخابي – من حيث المنطوق الشكلي للقانون ، ومن حيث الوسائل التي اعتمدت في تنفيذه معاً – بقي على حاله حتى سنة ١٩٥٢ . ولكنه من الناحية العملية لم يتغير حتى انقلاب سنة ١٩٥٨ .

مرة أخرى ، سابقة للمستقبل . أحد أسباب ردة فعل العراقيين الحادة ضد «الحكومة العراقية المؤقتة» المسيطر عليها أمريكياً في سنة ٢٠٠٤ ، تعود إلى أنهم – وليس السلطات الأمريكية التي تجهل التاريخ العراقي – وجدوا فيها صدىً لهذا النظام البريطاني القديم .

أهمية التصرف البريطاني غير الملائم ، كما لو أن الحكومة غير التمثيلية وغير الديمقراطية التي نصبوها كانت على الأقل شبه مستقلة ، ستصبح واضحة في الثلاثينيات من القرن الماضي . وكواجهة «لمستشاريهم» البريطانيين ، انغمس أربعون عراقياً في لعبة الكراسي الموسيقية للحصول على مقعد في ٢١ وزارة من سنة ١٩٢١ إلى سنة ١٩٣٦ . هذا النظام الذي جرى توصيفه بمكر ودهاء ، حط من قدر مفهوم الحكومة التمثيلية ذاته . إذا كانت الحكومة التي عرفها العراقيون تحت الانتداب هي «الديمقراطية التمثيلية» ، فإن العراقيين لم يشعروا بأي ميل لتأييدها . والديمقراطية ذاتها أصبحت كلمة سيئة تماماً . وهكذا ، أصبح العراقيون في وضع استحسنوا فيه مزاجاً أو تياراً كان الأوروبيون الأكثر تقدماً ونضجاً قد استحسنوه في تلك الفترة نفسها عندما برزت حركات فاشستية مختلفة . وفي انكلترا ، الرجل الذي بدأ كل ذلك في العراق ، السير آرنولد ويلسون ، انضم إلى الحزب الفاشيستي (البريطاني)[(١)] .

في الثلاثينيات من القرن الماضي ، كان تخفيض قيمة الحكومة التمثيلية ، والافتقار إلى تطوير المؤسسات المدنية ، والاختلال في التوازن بين المدن والأرياف ،

---

(١) الذي أسسه وكان يرأسه السير اوزفالد موزلي – المترجم .

وبين الأغنياء والفقراء ، وبين من يملكون أرضاً ومن لا يملكون أرضاً ، وبين المتعلمين والأميين ، قد أدى إلى ظهور شعور من الإحباط والغضب . وربما كان الأهم حتى من ذلك ، أن تلك العوامل قد شجعت البحث عن الطرق الأسهل والأقصر . وفي ذلك البحث ، ظهر الجيش كما لو أنه يوفر وسيلة للعمل هي الأكثر كفاءة ، والأكثر حداثة ، والأقرب إلى متناول اليد . وهكذا ، في الفترة من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٤١ ، كان الجيش دائماً مرجعاً أساسياً في الحياة السياسية . وفي خلال تلك الفترة ، قام الجيش بتنفيذ أو تأييد سبعة انقلابات . وكان الشباب بالأخص يعتقدون أن الجيش يجسد الروح الوطنية الحقيقية ، أو يأملون أن يكون كذلك ، مدفوعين بشعور من السخط والاستهجان لما كانوا يرونه في الطبقة السياسية من جشع وفساد ، وعدم كفاءة ، وما يعتقدونه من أن السياسيين قد باعوا أنفسهم إلى البريطانيين . وفي السراء (وغالباً) في الضراء ، فإنهم وأولادهم سيستمرون في هذا الاعتقاد إلى الوقت الحاضر . وهذا بالفعل هو الموروث الأسوأ من بين جميع موروثات «العراق البريطاني» .

كان مفهوم الانتداب ، بالنسبة إلى أصحابه وصانعيه ، يبدو في ضوء آخر مختلف تماماً : وقد صوروه كما لو كان مبادرة كبرى من مبادرات التربية والتعليم ، وكان على الشعوب الجاهلة في آسيا أن تتعلم كيف تحكم نفسها بنفسها . «المستشارون» الأوروبيون سيكونون معلميهم ، وكان على تلك الشعوب أن تكون تلاميذهم المطيعين . وهذا أيضاً سيتردد صداه في الأسلوب الأمريكي للتعامل مع العراق في سنة ٢٠٠٣ ، وكان علينا أن نجلب الديمقراطية إلى العراق . وتلاميذنا المطيعون ، العراقيون ، سيتصرفون حسب إرشاداتنا وتعليماتنا ، وسيكون نموذجهم بمثابة البداية لثورة سياسية كبرى ، هي «حرب صليبية» حسب العبارة المؤسفة التي وردت على لسان الرئيس بوش ، ستؤدي إلى تغيير آسيا كلها .

في العراق ، كان لدى البريطانيين لوحة فارغة خالية تماماً . ولم يفعل الأتراك إلاّ قليلاً لتعليم العراقيين . والقليل الذي عملوه في مجال التعليم في العراق كان باللغة التركية التي لم يكن يفهمها إلاّ عدد قليل من العراقيين . وفي البلاد كلها ، كانت هناك حوالي ٥٤ مدرسة ، كلها ابتدائية ، كانت تضم عشية الحرب في سنة ١٩١٣ حوالي ٦٠٠٠ طفل معظمهم كان دوامه جزئياً . وفي النظام الإسلامي التقليدي ، كان التعليم مسؤولية اجتماعية وليس حكومية . ولهذا ، فإن عدداً كبيراً من الصبيان كانوا يتعلمون في مدارس دينية ، المسلمون في الجوامع والمساجد ، اليهود في معابدهم ،

والمسيحيون في كنائسهم .

في البداية ، قام البريطانيون بتغييرات قليلة في النظام العثماني ، سوى أنهم شجعوا على استخدام العربية والإنكليزية . في سنة ١٩١٩ كانت حكومة الاحتلال تدير ٢١ مدرسة . وكانت كلها مدارس إبتدائية تضم عدداً من الطلاب المسجلين يصل إلى حوالي النصف من واحد بالمائة من عدد العراقيين الذين كانوا في عمر الالتحاق بالمدرسة . وكان عدد الذين يداومون بالفعل أقل من ذلك . وفي سنة ١٩٢٠ افتتح البريطانيون مدرستين ثانويتين أيضاً ، واحدة في بغداد (كانت تضم ٢٧ تلميذاً منهم ١٨ مسلماً) وأخرى في الموصل وتضم ٧ طلاب ، وفي سنة ١٩٢١ ، كانت حصة التعليم هي ٣,٠٣ بالمائة من ميزانية الدولة . المدارس الدينية بقيت متفوقة . وفي سنة ١٩٢٣ ، كانت هناك حوالي ٣٠٠ مدرسة قرآنية تضم ١٥٠٠ تلميذ . يضاف إلى ذلك ٥٠٠٠ من الراشدين الذين التحقوا بصفوف محو الأمية في مؤسسة كانت تدعى «المعهد العلمي» . ولكن البريطانيين أدركوا أنهم يحتاجون إلى تبرير الدور الذي نسبوه إلى أنفسهم ، بوصفهم «معلمي» تحويل الجماعة إلى مجتمع وطني . ومن هنا ، أقدموا على تأسيس نظام تعليمي بدائي .

بأي تعريف أو مقياس ، كان هذا النظام بالتأكيد بدائياً . وبحلول ١٩٢٥ ، كانت حكومة الانتداب تستخدم ٨٠٠ معلم ، ولكن نصف هذا العدد تقريباً لم يكن لديه تعليم نظامي رسمي . وجميع هؤلاء الرجال تقريباً كانوا يعملون في المدن الرئيسية ، وكان من المحتمل أن لا يحصل التلميذ على أكثر من سنتين فقط من التعليم الصفي . وكانت هذه الفترة ، كما أفادت بعثة دراسية من أمريكا ، هي أقل من المدة اللازمة لكي يتذكر التلميذ ما تعلمه ويبني عليه . والتسعة من العشرة العراقيين الذين كانوا في ذلك الوقت «ريفيين» لم يشاهدوا معلماً أبداً . وكما أفاد التقرير الرسمي لسنة ١٩٢٣ - ١٩٢٤ «في هذه البلاد ، ليس مرغوباً ولا عملياً أن تتوافر دراسة ثانوية إلاّ للنخبة القليلة» . ويستطرد التقرير قائلاً إن المدارس الثانوية الأربع العاملة في ذلك الوقت أكثر من اللازم عددياً . وفي مثل تلك الذهنية السائدة ، لم يخصص إلاّ القليل من المال أو الجهد لتعليم أو تدريب عراقيين . وعند نهاية الانتداب في سنة ١٩٣٢ ، لم يحصل التعليم إلاّ على ثلث المبلغ المخصص للشرطة .

المعلمون والتلاميذ معاً وجدوا أن ما يسمح لهم بدراسته كان مملاً وباهتاً . والمسائل والأفكار والبرامج السياسية التي اعتبرت هدّامة كانت ، بالطبع ، محرمة

وغير مسموح بها . وبسبب ما عاناه كثيرون من كبت في المدارس ، انضموا إلى حركات سياسية ، التي كان أهمها وأبرزها نسخاً محوّرة من الحركات الشبابية الأوروبية . منظمة الفتوة استعارت اسمها من العصور العباسية ، وكانت تسعى إلى غرس المثل العليا القومية . وتحت رعاية المدير العام للمعارف[1] ، أصبحت حركة فاشستية محلية . وكما حدث في أوروبا في تلك الفترة نفسها ، كان فشل الديمقراطية في وضع اللحم على عظام مثلها العليا ، قد ترك الكثيرين في العراق يتعطشون إلى ما كان يبدو قوياً وحديثاً وهادفاً .

في هذا الوقت نفسه ، كانت النخبة الثرية قد أدركت أن أولادها يحتاجون إلى أكثر مما يمكن توفيره داخل العراق . ومن هنا ، وعلى نحو متزايد ، أخذوا يرسلون أولادهم إلى الخارج للدراسة . وسافرت أول مجموعة تتألف من تسعة شبان إلى الخارج بالفعل في سنة ١٩٢١ ، وذهب معظمهم إلى المؤسسات التعليمية الأمريكية ، مبدين بوضوح عدم ثقتهم ببريطانيا . وفي سنة ١٩٢٣ ، على سبيل المثال ، ذهب أربعة إلى انكلترا ، واثنان إلى أمريكا ، و١٢٠ إلى الجامعة الأمريكية في بيروت . وفي عشية الحرب العالمية الثانية ، كان عدد الدارسين في الخارج قد ارتفع إلى ٢٣٨ . ومع بداية عودة الطلاب إلى وطنهم بعد إكمالهم دراساتهم في الخارج ، اعتباراً من ١٩٢٦ فصاعداً ، جرى امتصاصهم بسرعة في المدارس الثانوية وبرامج تدريب المعلمين ، إلاّ أن طلبة عديدين وجدوا أن تجربة دراستهم في الخارج لم تقتصر على تدريبهم فقط ، بل إنها جعلتهم يشعرون بالغربة في مجتمعاتهم . ومعظمهم أفاد لاحقاً كم كان صعباً عليهم أن يجدوا متنفساً لمهاراتهم الجديدة . والاستثناء الرئيسي كان الكلية الطبية التي تأسست في سنة ١٩٢٧ وألحقت بمستشفى بغداد[2] . والمفارقة الغريبة في بلد ينصرف جهده الأساسي إلى الزراعة كالعراق ، أن مدرسة الزراعة أغلقت في سنة ١٩٣٠ بسبب عدم وجود طلاب .

ربما كان أهم من النظام المدرسي ما نجم من تأثير غير رسمي من التجارة ، والاتصالات العفوية بالأجانب ، والراديو ، والسينما ، والصحافة . صناعة النفط الجديدة أصبحت بالفعل دولة منفصلة . وعلى الرغم من أنها كانت تفضل الكتبة

---

(١) أبو خلدون ساطع الحصري – المترجم .

(٢) المستشفى الملكي ثم المستشفى الجمهوري وأخيراً المدينة الطبية – المترجم .

الهنود والمدراء الإنجليز ، فإن بعض العراقيين استفادوا من التدريب الذي يتلقونه أثناء أدائهم للوظيفة . وكانت الدكاكين والحوانيت والمخازن في الشارع الرئيسي في بغداد تميل إلى استخدام الهنود ، إلاّ أن العراقيين ، الذين كانوا يقومون في البداية بالأعمال اليدوية والوظائف الخدمية تحديداً ، كان من المحتوم عليهم أن يستخدموا أدوات جديدة ، وأن يستعملوا منتجات جديدة ، وأن يتعلموا أفكاراً جديدة . وببطء شديد ومساعدة قليلة من الحكومة ، بدأ العراقيون يحصلون على «مجموعة الأدوات» اللازمة للمجتمع الحديث . ولكنهم كانوا يفتقدون التقدير ، الذي يحقق التوازن في المجتمع المدني - الالتزام بالاحترام المتبادل تحت القانون ، والمشاركة السلمية في المؤسسات السياسية . وسيدفعون ثمناً مخيفاً لهذا الاختلال في التوازن . وهذا الاختلال في التوازن مازال باقياً ، ولا شك في أنه سيستمر في إفساد نوعية الحياة المدنية .

وأعتقد أن ما يلفت النظر ويسترعي الاهتمام بوجه خاص ، الدور الصغير الذي لعبه الدين في تكوين الهوية الوطنية العراقية . وهذا اختلاف كبير بالمقارنة مع مصر ، حيث كان الدين قد ساعد على تشكيل «الهوية الوطنية المصرية» ، وكان عاملاً قيادياً في ردة الفعل ضد الغزاة البريطانيين . صحيح ، أن الجيش المسلم العراقي قد أخذ على عاتقه أن ينفذ مهمة قومية أساسية هي تدمير قوة الليفي الآثوريين المسيحيين ، إلاّ أن الحقيقة التي لمستها من الوثائق ومن محادثات عديدة أجريتها مع عراقيين معاصرين للحدث ، توحي بقوة أن السبب في كره الليفي لا يعود إلى كونهم مسيحيين ، بل يعود إلى كونهم أدوات للبريطانيين . وهؤلاء منهم الذين كانوا ما يزالون يحملون الأسلحة سيثبتون هذه التهمة عندما قاتلوا من أجل البريطانيين في المعركة القصيرة التي أطاحت بالحكومة العراقية في سنة ١٩٤١[١] .

وكان الصحيح أيضاً ، أن رجال الدين الشيعة قاموا بتنشيط حركات الاحتجاج ضد الحكومة . ولكن يبدو لي أنهم قاموا بهذا الدور ليس بوصفهم منظمة دينية ، بل بوصفهم المنظمة الوحيدة غير الحكومية . وقبل أن يقع اختيار البريطانيين على السنّة ، كانوا والشيعة يعملون معاً ضد البريطانيين . وبعد أن أصبح السنة مرتبطين بالحكومة ، وجد الشيعة أنفسهم معزولين في معارضتهم . وعلى هذا النحو ، ما كان من ناحية

---

(١) حكومة الدفاع الوطني برئاسة رشيد عالي الكيلاني في الحرب العراقية - البريطانية في أيار سنة ١٩٤١ - المترجم .

جوهرية شعوراً قومياً ، اكتسب من ناحية جزئية طابعاً دينياً . ومع اكتساب الشعور القومي هذا الطابع الديني ، حصل على واقع تنظيمي ، وما يزال الشعور القومي يحتفظ بهذا الواقع - وللأسباب نفسها - اليوم .

في سنة ١٩٣٢ ، وافق البريطانيون على إنهاء انتدابهم ، وعبر العراق عن وضعه الرسمي الجديد بالانضمام إلى عصبة الأمم . وبعد سنة واحدة فقط ، سافر الرجل الذي أحضره البريطانيون إلى العراق لكي يكون ملكاً ، إلى الخارج للعلاج الطبي . ولم يكن الملك فيصل (الأول) محبوباً لدى العراقيين ، وتوفي في سويسرا . وخلفه ابنه الملك غازي الذي كان يتمتع بشعبية أكبر (لأنه كان أكثر تمسكاً بالمبادئ القومية) . وجرب طرقاً جديدة للالتفاف حول البريطانيين والتواصل مع العراقيين ، فأقام إذاعة موجهة ينشر منها عبر الأثير نداءاته القومية إلى العراقيين ، الذين كان معظمهم ما يزالون جمهوراً أمياً إلى حد بعيد ، كما أنه كان ميالاً إلى تشجيع الجيش للتدخل في الشؤون المدنية والسياسية على نحو متزايد .

الجيش أيضاً كان قد بدأ يجرب . وفي ١٩٣٦ ، بعد أن قمع وذبح الكثير من الطائفة الأثورية ، التي كانت في ذلك الحين قد اعتبرت جزءاً لا يتجزأ من الحكم البريطاني ، وبعد أن أحبط تمرداً عشائرياً (في الفرات الأوسط - المترجم) ، قام الجيش بانقلاب كان الأول في سلسلة من الانقلابات[1] . ومنذ ذلك الحين فصاعداً ، أصبح الجيش هو الحَكَم في السياسة . ولكن تورط الملك في نشاطات الجيش جعله ينغمس أكثر فأكثر في صراع مع البريطانيين ، الذين كانوا في ذلك الوقت يقفون إلى حد ما وراء الستار ، إلاّ أنهم كانوا ما يزالون يديرون شؤون العراق . وفي سنة ١٩٣٩ ، قُتل الملك فيما قيل إنه حادث مؤسف وقع للسيارة التي كان يقودها ، واعتقد العراقيون بوجه عام أنه اغتيال مدبر نفذه البريطانيون ؛ فخرجت المظاهرات إلى الشوارع ، واغتيل القنصل البريطاني في الموصل . وتوّج ابنه الطفل ملكاً على العراق (فيصل الثاني - المترجم) تحت وصاية (الأمير عبد الإله بن علي - المترجم) الذي لم يكن يحظى بشعبية واسعة ، والذي كان معروفاً بميله الشديد للبريطانيين .

العداء نحو بريطانيا كان عاماً ، وأدت أعمال بريطانيا وتصرفاتها إلى استفحاله وتفاقمه . وكان يقود المعارضة ضد بريطانيا رئيس الوزراء العراقي في ذلك الوقت

(١) انقلاب بكر صدقي . وكان أول انقلاب عسكري في التاريخ العربي الحديث - المترجم .

رشيد عالي الكيلاني . وكان يتكلم نيابة عن بريطانيا سفيرها في بغداد حينذاك (السير كينهان كورنواليس – المترجم) . وعندما تدهورت العلاقات بين الطرفين ، قام السفير البريطاني بزيارة إلى وزير الخارجية العراقي نوري (باشا) السعيد ، الذي كانت تربطه دائماً علاقات وثيقة مع بريطانيا ، والذي كان سيلعب دوراً رئيسياً في جميع الأحداث اللاحقة حتى العام ١٩٥٨ . السفير البريطاني أخبر الوزير العراقي بالحرف الواحد : «على العراق أن يختار بين الصداقة مع بريطانيا العظمى وبين رئيس الوزراء» . وحاول رشيد عالي أن يلجأ إلى حلول وسط ، فوافق على مطلب بريطاني بالسماح بإنزال قوات كانت قد بدأت بالنزول فعلاً في البصرة . ولكن الكراهية ضد البريطانيين كانت عارمة إلى الحد الذي دفع البرلمان ، الذي مولته وأنفقت عليه السياسة البريطانية ، أن يقرر بالإجماع بخلع الوصي على العرش (الأمير عبد الإله) المؤيد الرئيسي لبريطانيا ، واستبداله بقريبه (الشريف شرف) .

مع نشوب الحرب العالمية الثانية ، بدأت الحكومة الأمريكية تتدخل ، للمرة الأولى ، في الشؤون العراقية . الوزير المفوض الأمريكي (نابنشو – المترجم) قدم مذكرة «ينصح» فيها الحكومة العراقية أن «تتعاون» مع البريطانيين ، قائلاً إن أمريكا ستبذل كل مافي وسعها لمساعدة بريطانيا «دون إعلان الحرب» . العراقيون المنشغلون بالشؤون التي تخصهم ، فهموا هذا على أنه إشارة تدل على أن وضعهم شبه الاستعماري سيستمر . والقوميون العراقيون أضافوا اسم أمريكا إلى قائمة أعدائهم . ومع اتساع الهوة بين الطرفين ، قطعت بريطانيا ما كانت تقدمة للجيش العراقي من تجهيزات عسكرية ومعونات مالية . هذه الأعمال دفعت مجموعة من الضباط الكبار إلى القيام بانقلاب عسكري ضد النظام الملكي الذي كانت بريطانيا تدعمه ، في بادرة تأييد لرئيس الوزراء رشيد عالي الكيلاني .

الوصي على العرش الموالي للبريطانيين هرب من البلاد بمساعدة المفوضية الأمريكية ، وتبعته بسرعة مجموعة من السياسيين وضباط الجيش السابقين ، الذين كانوا دائماً متعاطفين مع بريطانيا . ويبدو أن ذلك قد أخلى الساحة لهؤلاء الذين كانوا يروجون الدعايات ضد بريطانيا منذ وقت طويل . وهؤلاء سرعان ما ركزوا غضبهم على رمز الهيمنة البريطانية ، القاعدة التي أقامتها القوة الجوية الملكية (RAF) على مبعدة خمسين ميلاً (إلى الغرب) من بغداد .

العراقيون اعتبروا هذه القاعدة كخنجر مصوب نحو عاصمتهم . وبالغوا في تقدير

قدراتهم الذاتية ، فقرروا أن يغلقوا تلك القاعدة . وأرسلوا جيشهم الذي كان مازال صغيراً جداً إلى المنطقة المحيطة بالقاعدة ، وأصدروا أمراً بمنع تحليق الطائرات هناك . ورفض البريطانيون ، وكان البريطانيون ينظرون إلى العسكريين العراقيين نظرة استصغار واحتقار ؛ فعقدوا العزم على المحافظة على وضعهم ، وهاجموا الجيش العراقي في الثاني من أيار عام ١٩٤١ .

وكان رشيد عالي مازال يأمل في التوصل إلى حل وسط ، فبعث إلى بريطانيا برسالة استرضائية . ولكن زعماء الطائفة الشيعية «المجتهدون» أخذوا وضعاً قيادياً غير مألوف وأعلنوا الجهاد ضد بريطانيا . وتابعهم في دعوتهم مفتي القدس الأكبر (الحاج أمين الحسيني – المترجم) ، وهو سني ، وكان قد هرب من فلسطين التي كان يسيطر عليها البريطانيون . أخذ رشيد عالي يبحث عن مساعدة أجنبية ضد بريطانيا ، ولم تكن أمريكا تريد أن تساعده ، وفرنسا كانت مهزومة وتحت السيطرة الألمانية المطلقة . فلم يبق إلاّ الألمان[1] أو الروس . في البداية رفض الألمان أن يمدوا يد العون إلى رشيد عالي . ولكن الاتحاد السوفيتي قام بمبادرة رمزية تنطوي على الدعم الدبلوماسي ، مما شدد في تلك الظروف من عزم بريطانيا على الإطاحة برشيد عالي . وفي وقت متأخر عن الأوان الصحيح ، رأى الألمان أنهم قد يحصلون على بعض الفائدة من إحراج البريطانيين . ومن هنا ، دبروا قيام الفرنسيين ، الذين كانوا حينذاك تحت حكومة فيشي[2] ، بإرسال شحنة من الأسلحة والأعتدة بالقطار من سوريا إلى الجيش العراقي عبر تركيا المحايدة . كما أرسل الألمان سرباً من الطائرات المقاتلة التابعة للقوة الجوية الألمانية (اللوفتوافة) عبر سوريا إلى العراق . وفي رد الفعل على هذه التحركات ، قامت الحكومة الأمريكية ، التي كانت ما تزال محايدة رسمياً في ذلك الوقت ، بمصادرة السفن الفرنسية التجارية في الموانئ الأمريكية ، بينما استعد البريطانيون لغزو سوريا ولبنان اللتين كانتا تحت الانتداب الفرنسي . وفي هذا الوقت نفسه ، حشد البريطانيون قواتهم في قاعدتهم الجوية استعداداً للهجوم على بغداد . وهزموا الجيش العراقي بقوة تتألف من ١٥٠٠ آثوري ، وجنود من الهنود ، وبعض من

---

(١) رشيد عالي الكيلاني رئيس حكومة الدفاع الوطني أرسل ناجي شوكت للاتصال بسفير الرايخ في أنقرة فون بابن ، وأرسل طالب مشتاق للاتصال بسفير الرايخ في طهران فون ايتيل – المترجم .

(٢) رئيس الدولة في حكومة فيشي كان الماريشال بيتان ، ورئيس الوزراء كان بيير لافال – المترجم .

الجنود الأردنيين التابعين للفيلق العربي ، ومجموعة صغيرة من الجنود الإنكليز ، في معركة نشبت في الضاحية (الشمالية) الشيعية من بغداد التي تدعى الكاظمية بتاريخ ٢٩ آيار ١٩٤١ . وهرب رشيد عالي الكيلاني إلى إيران[١] أولاً ، وبعد ذلك إلى «عدو عدوه» ألمانيا ، وقبض على قادة الجيش العراقي وأعدموا شنقاً[٢] .

الوصي على العرش ، والمليك الطفل ، ونوري السعيد ، أعيدوا إلى العراق مدعومين بالفولاذ البريطاني . ولم يساور الشك أحداً من العراقيين في أن «حكومتهم» كانت بريطانية . سنوات الحرب كانت بمثابة فجوة بين مرحلتين ، إذ توقفت جميع الأنشطة السياسية تحت الاحتلال البريطاني المسلح .

بعد انتهاء الحرب ، كان لا بد من السماح بشيء معين من النشاط السياسي . وظهرت بعض التجمعات الجديدة التي لا تصل إلى مستوى الأحزاب السياسية ، وكانت كلها معادية للبريطانيين ، وانضم إلى المجموعات الأكثر تمسكاً بالنزعات التقليدية حزب شيوعي حديث التنظيم ، وكان هذا الحزب ثورياً ليس في برنامجه فقط ، بل في عضويته أيضاً ، وبرز اليهود والمسيحيون قياديين في صفوفه . وللمرة الأولى ، بدأت مجموعة سياسية تخاطب العمال مباشرة تحديداً ، وأصغى العمال إلى هذا الخطاب .

على الرغم من تعرضهم إلى قمع عنيف ، بدأ العمال يقومون بإضرابات للمطالبة بتحسين الظروف المعيشية . وكانت إضرابات صغيرة قليلة قد حدثت أثناء الحرب ، ولكن مع انتهاء الحرب ، ازدادت وتيرة نشاطات العمال من حيث المستوى والانتشار معاً . فالإضراب الذي أعلنه عمال السكك الحديد ببغداد عام ١٩٤٥ استمر أكثر من أسبوع وامتد إلى البصرة ومدن أخرى . الإدارة البريطانية التي ساندتها الحكومة حاولت أن تكسر الإضراب بالتهديد أنها ستقطع تجهيزات الماء عن التجمعات السكنية التي يقطنها العمال العراقيون ، واستبدالهم بالعمال الهنود . وبما أن شيئاً لم

---

(١) خرج المترجم وكان صبياً في العاشرة من عمره من بغداد ليلة سقوطها برفقة والده وعائلته متوجهين إلى إيران في سيارتهم عبر الطريق البري خانقين – قصر شيرين . وكان دوي المدافع وانفجار القنابل يتصاعد في الليل البهيم – المترجم .

(٢) العقداء صلاح الدين الصباغ ، ومحمود سليمان ، وفهمي سعيد ، وكامل شبيب ، وقائد كتائب الشباب وزير الاقتصاد يونس السبعاوي – المترجم .

يحدث لمعالجة شكاواهم الحقيقية تماماً ، فإن العمال أعلنوا الإضراب على نحو متكرر مرة بعد أخرى ، طوال السنوات الثلاث التالية .

ما بدأه عمال السكك الحديد التقطه وتابعه عمال الصناعة الرئيسية الوحيدة التي يملكها العراق ، وهي النفط . وللمرة الأولى ، أضرب عمال منشأة كركوك ، وأصيب عدد قليل منهم برصاص البوليس وجرح عدد أكبر . وبما أن البريطانيين هم الذين كانوا يديرون الحقل وكانت الشرطة تحت سيطرتهم ، فإن المعارضة رأت الإضراب العمالي بوصفه عملاً وطنياً ، فانضمت إلى المعركة ، وسميت هذه المعركة في العراق بأنها «الوثبة» .

البريطانيون والمؤسسة الحاكمة اعتبروا «الوثبة» بأنها تمرد يقوده الشيوعيون ، وكانوا مصممين على سحقها . رئيس الوزراء نوري السعيد قرر ، ماكراً وإن لم يكن حكيماً ، أن إحدى الطرق لإضعاف الطرف الآخر تكمن في استبعاد الرمز الذي يوحد المجموعات المختلفة التي تتألف منها المعارضة الداخلية ، أي الهيمنة البريطانية . وعمل نوري مع الوصي لكي يحث بريطانيا على عقد معاهدة إضافية أخرى يمكنها أن تعرض العلاقة البريطانية في ضوء أفضل أدعى إلى الاستحسان . ومعاهدة بورتسموث التي تم التوصل إليها بعد مفاوضات طويلة ولكنها كانت سرية ، قدمت بعض التنازلات إلى القوميين ، بالأخص بإعادة القواعد العسكرية البريطانية إلى سيطرة العراق ، كما كان رشيد عالي قد طالب في وقت سابق ، ولكن المعاهدة حددت في نص واضح وصريح وجوب استمرار الإشراف البريطاني على تلك القواعد إلى أمد بعيد في المستقبل . وعندما تسربت الأنباء عن طبيعة تلك المعاهدة ، خرج طلاب المدارس الحكومية في مظاهرات إلى الشوارع . وقمعتهم الحكومة بقسوة كما فعلت مع عمال النفط ، والشرطة أطلقت النار على الجماهير . هذا العمل القاسي أدى إلى توسيع قاعدة المعارضة ، وامتدادها إلى دائرة أكبر من دائرة الطلاب الفتيان ، تشمل النخبة المهنية النامية . وشعرت الحكومة بأنها تتعرض إلى خطر داهم ، فضربت جميع منتقديها بلا هوادة ، وقمعت المظاهرات السلمية اللاحقة بطريقة دموية ، وألقي القبض على زعماء الحزب الشيوعي ، وحوكموا ، وأعدموا شنقاً على مشهد ومسمع من الناس . والعشرات من أنشط المعارضين للحكومة تعرضوا إلى الاعتقال والتعذيب والسجن أو النفي .

وكانت هذه اللحظة بالذات هي لحظة فوران القضية الفلسطينية واندفاعها إلى

الخانة الأمامية من اهتمامات الوعي العراقي . وكان المشهد يبدو للعراقيين في ذلك الوقت قوامه أن ما فعله البريطانيون في انتدابهم على فلسطين شبيه بما فعلوه في العراق . والبريطانيون في فلسطين لم يكتفوا بالسيطرة على العرب السكان الأصليين في البلاد ، بل أيضاً منحوا أرض هؤلاء السكان الأصليين إلى أوروبيين آخرين لأسباب لا علاقة لها على الإطلاق بآمال السكان الأصليين ورغباتهم . وبالنسبة إلى الجيل العراقي الذي بلغ سن الرشد في نهاية الحرب العالمية الثانية ، كان الدفاع عن الفلسطينيين قد أصبح الاختبار النهائي «للأخوة» العربية .

الجزء العراقي من الفشل العربي في الحرب العربية - الإسرائيلية سنة ١٩٤٨ - ١٩٤٩ كان يبدو للشبان الناشطين سياسياً في العراق بوصفه ليس هزيمة فقط ، بل عاراً قومياً أيضاً . وجنودهم قد سيقوا إلى القتال في تلك الحرب بتدريب قليل ، وكثيرون منهم لم تكن لديهم بنادق أو عتاد ، وبعضهم لم تكن لديه حتى أحذية أو سترات . وشعر العراقيون بأن حكومتهم قد خانتهم ، وأحسوا بالمذلة . والثقافة العراقية ، مثل الثقافة العربية بوجه عام ، مشبعة بالخشية من العار (والحرص على الشرف - المترجم) . وكانت فلسطين جرحاً غائراً في أعمق أعماق عواطفهم ومشاعرهم وأحاسيسهم ، وساورهم الاعتقاد أن مصدر العار الذي يقض مضاجعهم كان بالتحديد الفئة الحاكمة الموالية للبريطانيين ، الذين حكموا البلاد دون انقطاع باستثناء فترات قليلة منذ الحرب العالمية الأولى . وعلى قمة ذلك النظام ، كانت تجلس تلك الشخصية الصارمة للرجل الذي تناوب بين دور رئيس الوزراء ودور الحاكم الألعوبة في يد الآخرين ، نوري السعيد .

كان نوري يدرك تماماً العداء الموجه نحوه شخصياً ، ونحو حكومته والنظام الملكي . ولكي يحمي النظام ، فعل ثلاثة أشياء ، فهوى بقبضته الفولاذية على الخصوم والمعارضين ، وقتل بعضهم ، وسجن البعض الآخر ، واشترى ذمم الكثيرين ، وعمد إلى تحييد الجيش بأن ضمن أنه عندما يكون في الخدمة الفعلية داخل العراق فإن وحداته العسكرية لن يتم تجهيزها بالعتاد مع إبقائها بعيدة عن مراكز السلطة . وفي الوقت نفسه ، بدأ في تنفيذ برنامج يرمي إلى إعمار البلاد اقتصادياً ، واستطاع في سياق هذا الجهد أن يعتمد على عائدات النفط التي ازدادت زيادة كبيرة .

كان إنتاج النفط بكميات تجارية قد بدأ في منطقة كركوك سنة ١٩٢٧ . وبما أن وضع المنطقة كان ما يزال مثاراً للخلاف - لأن البريطانيين كانوا قد استولوا عليها من

الأتراك في خرق لوقف إطلاق النار عند نهاية الحرب العالمية الأولى - فإن حكومة الانتداب عوضت تركيا بحصة من إنتاج النفط تبلغ ١٥٪ لمدة ٢٥ سنة .

لم يكن النفط في تلك الأيام سلعة مربحة كما أصبحت عليه عندما بدأ العالم الغربي يستخدم السيارة والطائرة . ولكن في السنوات الخمس والعشرين الأولى من الإنتاج في كركوك ، أنتج الحقل ما يزيد على ١٠٠ مليون طن من النفط ، وكانت حصة العراق من العائدات قليلة نسبياً . ولم يتم استخدام غير عدد قليل من العراقيين في البداية . ومعظم ما كانت تتطلبه هذه الصناعة كان يتم استيراده . والمبالغ الصغيرة من المال التي كانت تدفع إلى الحكومة العراقية كان معظمها يدخل في الميزانية الاعتيادية للحكومة . ولكن في الخمسينيات من القرن الماضي ، افتتحت حقول جديدة ، فازداد الإنتاج ، وارتفعت بالتالي حصة العراق من الأرباح ارتفاعاً كبيراً . وفي عشية ثورة ١٩٥٨ ، كان العراق يستلم حوالي ٢٥٠ مليون دولار من شركة نفط العراق (IPC) التي كان البريطانيون يسيطرون عليها .

مع حصول العراقيين الشباب على تعليم أفضل واحتكاكهم المتزايد بالمصادر الأوروبية والأمريكية للمعلومات ، بدأوا يدركون الأهمية الفائقة للنفط بالنسبة إلى مستقبلهم . وأصبحوا يعتقدون أن حكومتهم فاسدة وحتى خائنة ، في السياسة النفطية كما في الشؤون الأخرى ، وسمحت لشركة نفط العراق (IPC) أن تأخذ حصة الأسد من الأرباح . ومن هنا ، فإن ازدياد حصتهم ، لم يجعلهم يشعرون بالامتنان ، بل دفعهم إلى انتقاد حكومتهم لأنها قبلت «بحصة ابن آوى» لسنوات عديدة متعاقبة .

حاولت الحكومة أن تتفادى مثل هذا الانتقاد بأن أعلنت في ١٩٥٠ أنها ستضع ٧٠٪ من عائدات النفط بتصرف صندوق يديره «مجلس الإعمار» شبه المستقل المستحدث مؤخراً . وبهذه العائدات التي ازدادت على نحو ملحوظ - وتضاعفت ثلاث مرات بين سنتي ١٩٥١ و١٩٥٦ - استعان المجلس بالاستشاريين الأوروبيين ، والأمريكيين ، وكلفهم بوضع الخطط لبناء الطرق الرئيسية والسدود والقنوات والجسور الجديدة ، ومشاريع البنية التحتية الأخرى . وبدأت الخطط تتجمع وتتراكم في مكاتب المجلس بالأطنان حرفياً .

في بعض الحقول ، تحققت إنجازات حقيقية دائمة ؛ فشيدت سدود جديدة ضخمة للسيطرة على مياه النهرين ، وشقت الطرق وبنيت الجسور ، وأخذ المجلس على

عاتقه القيام بمهمة رئيسية ، هي النهوض بالنشاط الاقتصادي الأبرز في العراق ، الزراعة ، ولكن الطريقة التي اتبعها المجلس في تنفيذ مهامه أدت في الواقع إلى تفاقم المشكلات الاجتماعية والاقتصادية القائمة بدلاً من أن تحلها . وما فعله المجلس هو أنه دعم المشاريع التي جعلت أراضي جديدة تدخل إلى مرحلة الإنتاج بدلاً من معالجة المشكلات «الهيكلية» التي تعانيها الأراضي التي كانت مزروعة بالفعل في ذلك الوقت . وسرعان ما قام تجمع الحضريين الأثرياء والشيوخ العشائريين ، الذي كان يسيطر على البرلمان ، بابتلاع الأراضي الجديدة . وكانوا فيما بينهم يمتلكون تقريباً ثلاثة أرباع الأراضي الصالحة للزراعة في ذلك الحين ، بينما تركت للفلاحين الفقراء أراضي أقل انتاجاً بكثير .

كانت النتيجة بالتالي أن انخفض الإنتاج الزراعي ، على الرغم من الاستثمارات الجديدة الكبيرة نسبياً . البنك الدولي ووكالات أخرى شاهدوا المشكلة ونصحوا بعدم استصلاح الأراضي ، ولكن مجلس الإعمار خضع للأوليجاركية[1] الحاكمة ، وواصل السير على الطريق الذي انتهجه . وباسم استعادة جنة عدن ، خلق المجلس الظروف التي أدت إلى الإطاحة بالحكومة في سنة ١٩٥٨ .

الأسوأ من كل ذلك ، أن القليل من الجهد قد بذل لزيادة قدرة الناس على الاستيعاب . وكانت الأمية منتشرة على أوسع نطاق ، إلى الحد الذي جعل الكثيرين من الشبان في بغداد يعتقدون أن ترويج الجهل بين العراقيين كان سياسة رسمية للحكومة .

من الناحية الموضوعية ، تحققت إنجازات مهمة في تلك السنوات ، ولكنها لم تجد تقبلاً لدى عدد متزايد من الشبان والشابات ، الذين كانوا يعودون من الدراسة في الخارج ، مسلحين بالمهارات التي يحتاجها تنفيذ الخطط . وفي ضوء التجاوب المتصاعد مع السياسات القومية العربية بالإضافة إلى ما تقدم ، فإن تلك الخطوات الإيجابية تناقصت وانخفضت قيمتها . وجابهت الحكومة انتقادهم بفرض الأحكام العرفية . وفي هذه اللحظة بالذات ، تأثر الشباب العراقي بالانقلاب المصري في ٢٢ تموز ١٩٥٢ . وحتى أفضل ما تحقق في العراق سيبدو سيئاً وتافهاً إذا ما قيس بميزان

---

(١) Oligarchy : حكم القلة - حكومة تهيمن عليها جماعة صغيرة شغلها الشاغل الاستغلال وتحقيق المنافع الذاتية والمصالح الشخصية - المترجم .

جمال عبد الناصر . وكل بوصة من التقدم إلى الأمام لم تعد تحسناً ، بل اعتبرت فشلاً لأنها لم تكن باردة . ومن الناحية السياسية ، شعر كثيرون أن الحركة لم تتوجه نحو مستقبل رائع ، ولكنها مجرد خطوة أخرى على الطريق الذي اختير في سنة ١٩٢٠ نحو عراق ليس إلاّ مخفراً أمامياً للإمبراطورية البريطانية .

في هذه اللحظة سنة ١٩٥٥ ، أصبح العراق واسطة العقد في حلف بغداد الأنكلو - أمريكي . ومطالبة جون فوستر دالاس[1] المصيرية بأن العراقيين ينبغي «أن يحسب لهم حساب» في الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفيتي ، كانت الخطوة التي هيأت المسرح للانقلاب الذي وقع سنة ١٩٥٨ ، وكان مدخلاً «للعراق الثوري» .

(١) وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية في تلك الفترة - المترجم .

الفصل الرابع
العراق الثوري

طوال نصف قرن من الزمان، منذ الأيام الأخيرة للإمبراطورية العثمانية، كان ضباط الجيش العراقي يجتمعون ويناقشون الشؤون السياسية، وقد أقنعوا أنفسهم أن لديهم مهمة «مقدسة» لحماية أمتهم، لأنهم كانوا يعتقدون أنهم الوحيدون الذين كانوا فوق الفساد الذي كان مستشرياً بين السياسيين المدنيين. كما أنهم لاحظوا بفخر واعتزاز أنهم وحدهم الذين كانت لديهم القوة لوضع إرادة الأمة موضع التنفيذ. وكان آباؤهم وآباء آبائهم قد قاموا بتشكيل جمعيات سرية قبل الحرب العالمية الأولى، وشاركوا في الثورة العربية، وأطاحوا بحكومات كانوا يعتبرونها خائنة أثناء سنوات «العراق البريطاني»، وسار الضباط الشبان على خطى تلك التقاليد.

وبعد أن كشفت المؤامرات التي كانوا يحيكونها وأحبطت المحاولات الانقلابية التي كانوا يدبرونها، تعرضت مجموعة منهم بعد أخرى إلى النفي أو السجن أو الإعدام رمياً بالرصاص. ولكن بما أن حتى الحكومات المدنية كانت تعتقد أن العراق يحتاج إلى جيش، فإن سيلاً لا ينتهي من المجندين الجدد أعادوا تكوين طوابيرهم وكوادرهم. وفي جميع الأوقات، كان الساخطون يجدون بين الإخوة الضباط من كان مستعداً للإصغاء لهم، وكان الضباط بدورهم يجدون جنوداً مستعدين لإطاعة أوامرهم. وكانت القومية هي قضيتهم، وكان نموها وانتشارها بين العرب قد حدثا معاً مؤخراً وبأسلوب غير مباشر. لقد عاشوا قروناً تحت الإمبراطورية العثمانية التي كانت تتألف من مجموعات اثنية مختلفة كانت تسعى إلى استيعابها والتوفيق بينها. وبعد ذلك، في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، بدأت الأمم المختلفة، التي تنقسم إليها وتتألف منها، تسعى إلى تأكيد هوياتها السياسية المنفصلة. وبدأت تلك المساعي في منطقة البلقان أولاً، وكان اليونانيون والبلغاريون والرومانيون يقفون في طليعة تلك المسيرة، ثم تبعهم الأرمن في الأناضول وهي الولاية المركزية في

الإمبراطورية . هذه المشاعر المنطوية على الكره والنفور دفعت الأتراك في النهاية إلى البحث عن هويتهم الخاصة ، باعتبارها شيئاً منفصلاً عن «الهوية العثمانية» ، وتلاحمت أفكارهم في إحساس غامض مع «الهوية التركية» التي وجدت تعبيرها في «ثورة الأتراك الشبان» سنة ١٩٠٨ . وعندما بدأ قادتها في التأكيد على إحساسهم الجديد بالهوية القومية ، أدى هذا العمل بالضباط العرب الشبان الذين كانوا يخدمون في الجيش العثماني إلى البحث بالضرورة عن هوية غير تركية . ما الذي يمكن أن تكونه هذه «الأمة» العربية التي تشتق منها الهوية ، ويتوجه إليها الولاء ، والتي سيبذل الرجال أرواحهم رخيصة دفاعاً عن قضيتها؟

على خلاف الأمم الأخرى في الإمبراطورية العثمانية ، لم يكن لدى العرب جواب بديهي واضح . وفي حين أن اليونانيين والبلغاريين ، والرومانيين ، والأرمن ، وحتى الأتراك كانوا متحدين في اللغة والدين وطريقة الحياة والجغرافيا ، كان العرب مختلفين ومتفرقين في كل واحدة من هذه العوامل . صحيح ، أن لغتهم الأدبية كانت واحدة ومشتركة ، ولكن لغتهم اليومية كانت تنقسم إلى عشرات من اللهجات المحلية ، التي كان بعضها غير مفهوم إلاّ لدى أصحابها . وفي الدين ، كان العرب حتى أكثر تفرقاً واختلافاً ؛ فبعضهم كانوا مسيحيين . وبالنسبة إلى المسلمين ، كانت الفروق والاختلافات بين السنة والشيعة لا تقتصر على الشعائر والطقوس ، بل كانت تقوم على تجارب تاريخية متعادية ومتضاربة . وفي نمط الحياة ، كان الانقسام بين الحضر والبدو قد جعل العرب يظهرون بمظهر الغرباء بعضهم عن بعض . وأخيراً ، فإن المساحة الجغرافية الواسعة فرضت عليهم تجارب تاريخية مختلفة إلى الحد الذي كاد يجعل إحداها غير مفهومة بالنسبة إلى الأخريات . ومن هنا ، ما إن بدأ العرب يواجهون مسألة الهوية حتى كان عليهم التغلب على جملة من المعيقات الصعبة بوجه خاص ، وما يزال عليهم أن يفعلوا ذلك بما يحقق الرضى المشترك .

المحاولات الأولى للتغلب على هذه المعيقات حدثت بعيداً عن العراق ، في مصر أولاً وفي لبنان بعد ذلك ، حيث بدأ الباحثون يعيدون اكتشاف تراثهم الأدبي ، ولكنهم لم يؤثروا إلاّ في عدد قليل من الناس . ثم حدث بعد ذلك ، في سنة ١٩٠٥ ، أن نشر شاب سوري مسيحي[1] بياناً معادياً للأتراك بعنوان «يقظة الأمة العربية» .

---

(١) يدعى نجيب عازوري .

وكون أن البيان كان مكتوباً باللغة الفرنسية ، وأن كاتبه كان مسيحياً ، يدل على المشكلة التي كان يواجهها المفكرون العرب . وبما أن مشكلة تعريف الهوية المعلنة على هذا النحو ، سيتردد صداها في السياسة العربية طوال القرن اللاحق ، فإنها تصبح ذات أهمية فائقة في فهم الأحداث المستقبلية .

أولاً ، دعونا نتأمل موضوع الدين . وكما رأينا ، أثناء الفتح العربي لما أصبح يسمى العراق ، أراد المسلمون الغزاة من السكان الأصليين أن لا يستعربوا وأن يبقوا في عداد غير العرب ، وعاملوا الموالي كغرباء . وستمر قرون قبل أن يصبح الموالي أعضاء كاملين في المجتمع المسيطر ، واستغرق المسيحيون واليهود زمناً أطول بكثير . وفي العراق ، تحقق ذلك على وجه التقريب في عشرينيات القرن الماضي ، كما يستدل من توزير يهودي عراقي في أول مجلس للوزراء في حكومة «العراق البريطاني» ، وتزايد نفوذ المسيحيين واليهود في التجارة والتعليم والإدارة . وأعقب ذلك تعرض قبولهم كأعضاء كاملي العضوية في الأمة الجديدة إلى نكسة بسبب أحداث لا تخضع إلى سيطرة العراقيين . وتقوّض وضع المسيحيين بسبب استخدام البريطانيين للمسيحيين الليفي الآثوريين ، للمحافظة على هيمنتهم على العراق . كما أن صعود الصهيونية ، والحروب الإسرائيلية – العربية ، ومحنة اللاجئين الفلسطينيين ، تظافرت كلها مجتمعة لكي تجعل وضع اليهود في النهاية صعباً للغاية .

وثانياً ، الجغرافيا : تجارب الناطقين باللغة العربية كانت مختلفة تماماً في أقطارهم المتعددة . وبيان العام ١٩٠٥ كان قد كتبه رجل يعيش في ولاية دمشق العثمانية ، أي في المنطقة التي أصبحت تدعى سوريا فيما بعد . وسوريا بالإضافة إلى لبنان المجاورة ، كانتا منذ وقت بعيد ، يعتبرهما الفرنسيون تخصانهم ثقافياً على الأقل . وفي سنة ١٩٢٠ استولت فرنسا عليهما ، وأدى ذلك إلى تأثير مزدوج جعل العديد من السوريين يكرهون فرنسا بينما وضعتهم تحت النفوذ الثقافي الفرنسي . وكان نابليون قد استولى على مصر في ١٧٩٨ ، ولكن الفرنسيين طردوا منها بعد سنوات قليلة ، ولكن احترام الثقافة الفرنسية بقي ونما خلال القرن . وكانت انكلترا ، التي احتلت مصر في ١٨٨٢ وحكمتها منذ ذلك الحين بطريقة مباشرة أو غير مباشرة حتى سنة ١٩٥٢ ، هي العدو الإمبريالي ، وكانت بريطانيا العظمى قد غزت فلسطين والأردن والعراق وحكمتها منذ منتصف الحرب العالمية الأولى . وكانت ليبيا قد استولت عليها ايطاليا بوقت قصير قبل الحرب العالمية الأولى وحتى منتصف الحرب العالمية الثانية . وبناءً على ذلك ،

انفرد كل بلد من هذه البلدان بنفوذ أجنبي مختلف عن الآخر . وكان للسكان الأصليين في كل بلد من هذه البلدان معلمون مختلفون ، وحكام مختلفون ، وأعداء مختلفون . وكما حدث في سنة ١٩٥٢ ، عندما شاركت في مؤتمر ضم باحثين من هذه المناطق المختلفة ، لاحظت أنهم وجدوا صعوبة كبيرة في تبادل الأفكار باللغة العربية فيما بينهم . ولأنهم درسوا في أوروبا أو على أيدي معلمين اوروبيين ، فإن بعضهم كان يفكر بالإنكليزية ، وبعضهم بالفرنسية ، وبعضهم الآخر بالإيطالية أو الألمانية . وما كان صحيحاً عن المثقفين ، بالطبع ، كان أكثر صحة عن الحرفيين والتجار والجنود . وكل بلد تحت الانتداب أو الاستعمار اكتسب بعض المظاهر من أمة أجنبية مختلفة . والكلمة العربية للأمة الجغرافية هي «وطن» .

بعض زعماء الدول العربية قبلوا هذا الواقع واستشهدوا به لتبرير أدوارهم . وفي العراق ، كان الوزراء في حكومات «العراق البريطاني» يعربون من الناحية اللفظية والشكلية عن تأييدهم لمفاهيم عريضة عن أمة عربية ، ولكنهم كانوا من الناحية العملية والواقعية يركزون اهتمامهم على العراق كدولة . وكانت هذه هي السياسة التي انتهجها رئيس الوزراء المزمن ، نوري السعيد . كما أنها أصبحت استراتيجية الرجل الذي أطاح به ، أول زعيم من زعماء «العراق الثوري» ، الجنرال عبد الكريم قاسم وبعض الذين خلفوه ، بمن في ذلك صدام حسين . وحتى عندما كانوا يكافحون ضد «الوطنية الإقليمية» ، كانوا مدفوعين إلى العمل بحسب تلك السياسة والاستراتيجية .

كثيرون من الناشطين السياسيين العسكريين والمدنيين في مصر وسوريا وسواهما من الأقطار العربية ، كانوا يشعرون بغضب عارم وحنق شديد لأن الأوروبيين قد قسموا[1] بلادهم إلى كيانات منفصلة . وكانت «الإقليمية» في نظرهم مسخاً مشوهاً من الانحراف والضلال خلقته ولفقته الإمبريالية ، وكون أن تلك «الإقليمية» كانت حقيقة واقعة جعلها هدفاً للمزيد من الكراهية . وأعلن هؤلاء الناشطون أن القومية الحقيقية هي تلك التي تقوم على الأمة . واقتبس العرب للتعبير عن تلك الفكرة القومية مصطلحاً مثيراً للذكريات والعواطف ، مشتقاً من الجماعة التي كانت هويتها

---

(١) معاهدة سايكس - بيكو بين بريطانيا وفرنسا في الحرب العالمية الأولى ، التي أقامت الحدود «الوهمية» بين مناطق نفوذهما - المترجم .

حقيقة مطلقة وكان الولاء لها حتمياً ، أي العشيرة أو القبيلة «القوم» ، وقد ساروا على خطى محمد بطريقة لاشعورية عندما سعى إلى التغلب على الانقسامات العشائرية بالتعامل مع المجتمع الإسلامي الأول كما لو كان ضرباً من ضروب العشيرة المشتركة الواحدة . وبما أنهم كانوا بالدرجة الأولى علمانيين ، فإنهم نقلوا تعريف «القوم» من المعنى الديني إلى المعنى الأثني (العرقي) . الوطنية الأثنية تعني «القومية» في العربية ، وأصبحت القومية محوراً أساسياً ومنطلقاً مباشراً للشبان العراقيين الناشطين سياسياً ، وللرئيس المصري جمال عبد الناصر ، وللبعثيين في سوريا والعراق في المرحلة الأولى على الأقل . وبالنسبة إلى هؤلاء جميعاً ، فإن القومية الحقيقية ، «العروبة» ، نشأت من نزعة موازية للنزعة الطورانية «التركية» التي كانت قد فرّقتهم في مرحلة سابقة . منقسمين ومدفوعين بهذين التعريفين المختلفين ، «الوطنية» و«القومية» ، سيدور صراع على الزعامة بين سنتي ١٩٥٨ و٢٠٠٣ في ما أسميته هنا «العراق الثوري» . هيمن نوري السعيد على السياسة العراقية منذ الإطاحة برشيد عالي الكيلاني في سنة ١٩٤١ وحتى نشوب الثورة في سنة ١٩٥٨ ، أما عندما كان رئيساً للوزراء أو عندما كان يعمل من وراء الستار ، فمن خلال مريديه وأعوانه . وفي حين أنه بدأ حياته العملية كضابط عسكري يقاتل من أجل الوحدة العربية ، ولم يعد إلى العراق إلاّ في نهاية الحرب العالمية الأولى بوصفه أحد الضباط الشبان الملتحقين بالملك فيصل (الأول) ، الذين شاركوا تحت قيادته في «الثورة في الصحراء» ، إلاّ أن العراق كان شغله الشاغل منذ وقت طويل . كان العراق قاعدة سلطته الشخصية ، والسبب الذي دفعه إلى التحالف مع البريطانيين . وكان العراق أيضاً كياناً سياسياً واقتصادياً . وكان نوري السعيد يعتقد أنه قابل للبقاء . ومن هنا ، كان الوضع الشخصي والواقع الجغرافي يمليان سياسة «الوطنية» (وليس القومية) ؛ فهو كان زعيم العراق ، والعراق كان ببساطة بلداً مختلفاً عن البلدان العربية الأخرى .

أمن العراق كان يتأثر بإيران وتركيا المجاورتين ، اللتين لم يكن لدى مصر البعيدة ، مثلاً ، ما يقلقها منهما على نحو خطير . وبالإضافة إلى ذلك ، فبينما تستطيع مصر أن تغازل الاتحاد السوفياتي من موقعها المنعزل نسبياً ، كان الاتحاد السوفياتي في تقدير نوري السعيد يشكل تهديداً خطيراً للعراق . ومن هنا ، ومنذ سنة ١٩٥٤ ، بدأ يتحرك باتجاه علاقات أوثق مع تركيا وإيران . وبعد ذلك ، في سنة ١٩٥٥ ، قطع العلاقات مع الروسيين . وعندما بدأت الولايات المتحدة ، التي حلت محل بريطانيا بوصفها القوة

المهيمنة في الشرق الأوسط ، في تأليف ما عرف بحلف بغداد (واسمه الرسمي حلف السنتو CENTO ، أي منظمة المعاهدة المركزية) ، انضم نوري السعيد إليه بحماسة . ومرة أخرى ، كرر التاريخ نفسه . وكوزير للخارجية قبل عشرين عاماً ، كان نوري قد وضع الأساس لحلف مماثل (ولكنه كان حلفاً معادياً للأكراد بدلاً من أن يكون معادياً للشيوعية) ، وكان ذلك الحلف يعرف بميثاق سعد أباد . وبالنسبة إليه ، كانت الأفكار الداعية إلى الوحدة العربية ، أفكاراً خيالية تصرف النظر عن المسائل الحقيقية والواقعية ، وتضعف استقلال العراق . وكانت تعني من الناحية الشخصية أنه سيكون في المرتبة الثانية بعد الرئيس المصري جمال عبد الناصر . كان نوري من الناحية العملية ممارساً مزمناً لا يحيد عن ممارسة السياسة «الوطنية» (في مقابل السياسة «القومية» - المترجم) .

بالنسبة إلى مجموعة متزايدة من ضباط الجيش العراقي الشبان ، الذين نجوا من عمليات تطهير متكررة ، كان موقف نوري يبدو بأنه ليس مجرد ردة بل خيانة ، وكانوا يؤمنون «بالقومية» . وكانت المشكلة الأساسية المزمنة التي واجهت نوري هي كيف يمكنه أن يكسبهم أو كيف يمكنه أن يمنعهم من التدخل في السياسة . وقد عالج هذه المشكلة بطريقتين ؛ فمن جهة ، استخدم العائدات المتزايدة من النفط لتنفيذ مشاريع إعمار تعود فائدتها بالخصوص على المجموعات التي ينتمي إليها وينحدر منها هؤلاء الضباط . ومن جهة أخرى ، حاول أن يلبي مطالبهم عن طريق تشجيع الولايات المتحدة لكي تزود الجيش العراقي بمعدات عسكرية على مستوى يقارب مقاييس حلف الناتو . وعلى الرغم من أفضل الجهود التي بذلها ، إلاّ أن المؤامرات والدسائس استمرت تحبك وتحاك .

استطاع نوري في الأحوال العادية أن يخمد المعارضة أو يقضي على أولئك الذين كانوا يقومون بعمل منظم ضده ، ولكنه لم ينجح في ذلك أحياناً . وعندما اكتشفت مؤامرة في سنة ١٩٥٦ ، كانت يداه مقيدتين بأعمال لم تكن تحت سيطرته ، فغزو مصر في تلك السنة (في العدوان الثلاثي - المترجم) بالتواطؤ بين بريطانيا وفرنسا وإسرائيل ، ظهر كما لو كان إدانه له بسبب علاقته الطويلة ببريطانيا ، وكان عليه أن يسترضي المشاعر القومية العربية . ومن هنا ، احتج على بريطانيا ، وقطع علاقاته مع فرنسا ، وحاول أن يستغل الشعور المعادي لإسرائيل ضد الشيوعيين واليساريين العراقيين الآخرين . ولكن عندما اندلعت المظاهرات ليس فقط في بغداد والموصل

السنيتين بل أيضاً في النجف الشيعية ، أطلق شرطته لكي تقمع المعارضة العلنية . ولكن خلف الأبواب الموصدة ، أدى القمع الذي مارسه إلى تزايد المعارضة ، وجعلها تتركز في قوة جديدة دخلت مؤخراً إلى السياسة العراقية من سوريا ، وهي حزب البعث .

كان حزب البعث قد تأسس قبل عقد من الزمان في دمشق على يد جماعة من السوريين بوصفه نادياً فكرياً للحوار ، ولكنه تطور إلى حزب سياسي صغير إلاّ أنه نشط . وكان الحزب يتميز بنزعات فاشستية وميول صوفية واتجاهات اشتراكية غامضة ، إلاّ أن تأييده للوحدة العربية الشاملة كان واضحاً وثابتاً وقوياً (كما أدركت بعد مناقشات طويلة مع قادته) . وقد وصلت أفكاره إلى العراق سنة ١٩٥١ على يد مهندس عراقي شاب يدعى فؤاد الركابي ، وسيغتاله صدام حسين في وقت لاحق . والذي يلفت النظر في حزب البعث في المرحلة الأولى من تاريخه ليس أفكاره بل مفهومه للعضوية . الركابي ورفاقه ألقوا بشبكتهم على مجال أوسع من مجرد ضباط الجيش ، وشمل نشاطهم التنظيمي العدد المتزايد من المهنيين المتعلمين . والمسائل التي طرحوها كانت أكثر إثارة من المناقشات المألوفة حول توزيع المناصب الوزارية ، وكانت تلك المسائل لا تدور حول القومية فقط ، بل أيضاً حول المظالم الاجتماعية الصارخة التي نشأت من القانون البريطاني (حول دعاوى العشائر وتسوية خلافاتها) ومن القانون رقم ٢٨ لسنة ١٩٣٢ ، الذي أقره البرلمان (حول حقوق المزارعين وواجباتهم) . انضم عدد قليل من المدنيين إلى الركابي ، ولكنه أحدث تأثيراً في حلقات صغيرة من ضباط الجيش . واستطاعت إحدى تلك الحلقات أن تبرز في المقدمة في سنة ١٩٥٨ ، وكانت تتألف من عدد قليل من «الضباط الأحرار» أقل من ١٢ ضابطاً ، ولكنها كانت حلقة مهمة لأن ضباطها كانوا يقودون بالفعل وحدات عسكرية ميدانية . وتوسع نفوذهم عندما وجهوا الدعوة إلى ضابط من رتبة عليا لكي يصبح قائدهم ، وكان ذلك الضابط هو اللواء الركن عبد الكريم قاسم . وأحضر قاسم بدوره مجموعة أخرى يقودها أحد مريديه وأعوانه ، العقيد الركن عبد السلام عارف ، الذي كان في تلك الفترة قد اعتنق فكرة الوحدة العربية وأصبح أحد أصلب وأشد دعاتها .

هؤلاء الضباط الذين جمعتهم روابط واهية وتحالفات غامضة ، أثار حماستهم ما حدث في شباط ١٩٥٨ ، وكان يبدو لهم بأنه خطوة كبرى نحو تحقيق الوحدة العربية ،

أي قيام جمال عبد الناصر بتكوين «الجمهورية العربية المتحدة» . وكان جواب نوري على هذا العمل الذي اعتبره تحدياً ، أن بادر إلى تشكيل اتحاد مضاد يجمع العراق والأردن ، وكان من المفترض أن تنضم إليه الكويت أيضاً . وما اعتبر مهماً في هذا الاتحاد الجديد كانت نتيجته العكس تماماً مما خطط له نوري . وعندما سعى إلى توطيد هذا الاتجاه بإرسال وحدات من الجيش العراقي إلى الحدود الأردنية ، جعل وقوع عمل انقلابي ممكناً . وللوصول إلى تلك الحدود ، كان على الجيش أن يمر ببغداد ، وكانت تلك هي الفرصة السانحة التي كان ينتظرها قادته .

في ليلة ١٣ تموز ، قامت القوة التي كانت تحت إمرة العقيد عارف بالاستيلاء على ما أسماه لينين بـ «قمم السلطة» . وبالنسبة إلى بغداد ، شملت تلك القمم دار الإذاعة والقصر الملكي ، وأكد رجاله ذلك عصراً بقتلهم الملك وخاله ، الشخص الأول في النظام ، الأمير عبد الإله . وأفلت نوري من قبضتهم في اللحظة الأخيرة ، وهرب عبر النهر ، كما فعل في مرة سابقة سنة ١٩٤١ . وبعد مطاردة حامية ، اغتيل رمياً بالرصاص في شارع من الشوارع . بهذه الطلقات القليلة ، سقط النظام القديم ، وقد أصيب زعماء الانقلاب بالذهول للسهولة التي حدث بها ذلك ، بينما كانت الجماهير المندهشة ترقص في الشوارع على ما اعتبروه موسيقى عهد جديد .

على الفور تقريباً ، كان على الفئتين أن تواجها واقعاً مختلفاً تماماً . وجدت الحكومة الجديدة ، كما اكتشفت من أحاديث طويلة مع أعضائها بعد أيام قليلة ، أنه بينما زالت رموز النظام القديم واختفت ، فإن الكثير من مضمونها ومحتواها بقي واستمر . والعديد من الرجال والنساء الذين عرفتهم قبل خمس سنوات أصبحوا الآن وزراء . وكانوا يعتقدون أن الانقلاب قد حدث باسمهم ، ولكن معظمهم سرعان ما كان ليس فقط سيساق إلى السجن ، بل سيرغم على الذهاب إلى المنفى أو سيعدم رمياً بالرصاص . في العراق كما في كل مكان آخر ، من عادة الثورات أن تأكل أبناءها . الأسياد العسكريون استمروا يتحدثون عن الأخوة «القومية» العربية ، ولكنهم اكتشفوا بسرعة أن حكم العراق يتطلب منهم أن يستخدموا بعض الأساليب التي استعملها نوري . كانت الدولة في أيديهم ، ومواردها كانت تحت تصرفهم ، وأكثر من ذلك ، فإنهم ، وبالأخص عبد الكريم قاسم ، قد ذاقوا حلاوة «تفاحة» السلطة ، ولم يعودوا حريصين أصلاً ، على تسليم السلطة إلى جمال عبد الناصر الزعيم القومي العربي ، الذي يتمتع بشعبية هائلة . ومهما كانت مشاعر قاسم الشخصية في تلك

المرحلة المبكرة ، فإن فئات مختلفة ، وخصوصاً الشيوعيين وحلفاءهم ، الذين قمع ناصر بعنف نظيرهم الحزب الشيوعي المصري ، نصحوه بأن التقارب مع مصر سيعرض العراق ، ويعرضه هو شخصياً ، إلى الخطر . وسرعان ما تبنى الشعار القائل «العراق أولاً» ، الذي يمثل النزعة الوطنية (الإقليمية) . وبسرعة أيضاً لم يعد لديه ما يمكن أن يكون ثانياً ، وتخلى نهائياً عن «النزعة القومية» الداعية إلى الوحدة العربية .

وأتيح لي بعد شهور قليلة من ذلك الوقت أن ألتقي قاسم شخصياً . وكنت قد عدت إلى بغداد لكي أساعد المهندس المعماري الأمريكي من أصل ألماني والتر كروبيوس في التفاوض مجدداً حول المشروع الذي كان قد قدمه إلى نوري السعيد بخصوص تصميم حرم الجامعة (جامعة بغداد) الذي كان قد وضعه . ولكي يستطيع أن يخفض مبلغ الأتعاب ، استعان قاسم بمسرحية توحي أن المفاوضات تبث على الطبيعة وتنقل مباشرة على شاشات التلفزيون . وكان الافتراض أنه طالما أن هيبته كرئيس للوزراء قد وضعت على المحك علناً ، فإن كروبيوس سيضطر إلى الموافقة . وكان مبلغ الأتعاب كبيراً ؛ لذلك اقترحت تخفيضه إلى نصف في المائة . وصرف قاسم هذا الاقتراح بإشارة من يده قائلاً ، «أنا لا أتحدث بنسب النصف في المائة» . وعند هذا الحد كنت قد حدست أن المصابيح الكليغل[1] والكاميرات المتنقلة لم تكن إلاّ حيلة مقصودة ومسرحية مدبرة . فكان أن هززت كتفيّ تعبيراً عن اللامبالاة ، واقترحت أن نرجع إلى العرض الأصلي . انفجر قاسم ضاحكاً ، وصرف المصورين وكاميراتهم بإشارة من يده . كانت مجرد لعبة ، وكان يعتقد أنها طريفة بالفعل . وقفنا على أقدامنا وتصافحنا بالأيدي . وعندما كنت على وشك أن أغادر المبنى ، أدركت أنني قد نسيت حقيبة أوراقي في الغرفة ؛ فعدت أدراجي وارتقيت السلم ودخلت إلى غرفة مكتبه . ولم يكن هناك أحد من رجال الحرس ، وفوجئت برؤيته جالساً وقد وضع قدميه على طاولة وفتح زر ياقته ، وسترته مرمية على كرسي . فابتسم ، ووقف على قدميه ، وأشار إلى حقيبة أوراقي «هل هذا هو ما نسيته؟» فأومأت برأسي موافقاً . فضحك ، وقال : «حسناً ، إنك بالتأكيد لم تنس ذلك الشيء الآخر (الأتعاب)» .

---

(١) مصباح الكليغل : مصباح ينبعث فيه النور القوي من قوس كهربائي ، ويستعمل في تصوير المشاهد السينمائية في الاستوديو – المترجم .

لم يبق قاسم طويلاً على قيد الحياة بعد أن أغرقه المتملقون الأذلاء بطوفان من المدائح التي تشيد بعظمته وعبقريته . وكان الصوت الذي سمعه صوتاً يحثه على استخدام أحد تلك الألقاب التي يتردد صداها على امتداد التاريخ العراقي منذ أول «لوكال» . كان قاسم رجلاً بقدرات محدودة وإنجازات متواضعة ؛ فشرب حتى الثمالة من كأس الغرور وشعر بالخيلاء عندما وصف بأنه «الزعيم الأوحد» . وعندما بدأ رفيقه في السلاح ، العقيد عارف ، يكسب أنصاراً يؤيدونه في معزل عن قاسم ، أبعده هذا الأخير إلى منفى مهذب بتعيينه سفيراً للجمهورية العراقية في ألمانيا الاتحادية . وعندما حاول أن يعود ، سارع قاسم إلى اعتقاله . وأولئك الذين داعبهم الأمل بأن الثورة قد فتحت أبواب العراق للمشاركة الشعبية ، خاب أملهم بسرعة فائقة . وأية فئة بدأت ، أو كانت تبدو أنها قد بدأت ، تكتسب وضعاً مستقلاً ، كانت تعامل على الفور معاملة العدو . وحتى مؤيدوه من الأكراد والشيوعيين ورفاقه من ضباط الجيش تعلموا أن يشعروا بالرهبة من نظراته .

في مثل هذه الظروف ، عاد إلى العراق رئيس الوزراء الأسبق رشيد عالي الكيلاني بعد فترة طويلة قضاها في المنفى ، في إيران أولاً ، ثم في ألمانيا بعد ذلك ، وأخيراً في المملكة العربية السعودية . ويبدو أنه شعر أن الأحداث تعيد مجدداً ذلك الصراع الذي دار في سنة ١٩٤١ حول روح العراق العربية . ومن هنا ، اتصل رشيد عالي على نحو متهور ومكشوف ببعض الضباط الذين شعروا بالغضب لأن قاسم كان يتبع السياسة «الوطنية» (الإقليمية) التي كان يتبعها نوري السعيد ؛ فاعتقله قاسم فوراً . وحوكم رشيد عالي ، وحكم عليه بالإعدام ، ولو كان نوري حياً لوافق تماماً على مثل هذا الإجراء .

كانت هناك تحديات أكثر خطورة ؛ ففي ربيع سنة ١٩٥٩ تعرضت الموصل إلى ما يمكن اعتباره حرباً أهلية . وشعر قاسم بالخطر ، وأدرك أنه لا يستطيع أن يثق بالجيش الذي يمكن أن يكون المشكلة وليس الحل . وهكذا أصبح يتزايد اعتماده على أولئك الذين كانوا يظهرون بأنهم يمتلكون القدرة على استحضار «المقاومة» الشعبية . وأفضل الذين كانوا يستطيعون تعبئة «الشارع» هم الأعضاء الباقون من الحزب الشيوعي العراقي الصغير . وكانوا ، أكثر منه ، يخافون حزب البعث الذي تدثر أعضاؤه بعباءة النزعة الوحدوية العربية «القومية» . ومن جراء الدور المفترض الذي لعبوه في انتفاضة الموصل ، اعتقل عدد من أعضاء الحزب ، وحوكموا ، وأعدموا . وكان ذلك سبباً أدى

إلى وقوع محاولة اغتيال قاسم ، الذي اشترك فيه شاب من تكريت لم يكن حينذاك معروفاً يدعى صدام حسين . وبسرور بالغ ، أراني قاسم بذلته العسكرية الملطخة بالدماء المعروضة في خزانة زجاجية بغرفة مكتبه . وقال «لم يكونوا من المحترفين ، ولم تكن المحاولة جدية ، وأنت دائماً تطلق صلية ثانية ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك . وهذا من سوء حظهم» .

وعلى الرغم من كونهم مفيدين ضد البعثيين ، إلاّ أنه أصبح لا يثق بالشيوعيين أيضاً . وعندما ظهر أنهم يكتسبون قوة ، عمل قاسم على إضعافهم ، ولكن ، لأنه سمح لبعض قيادييهم بالبقاء في الحكومة ، فإنه أقنع بعض ضباط المخابرات البريطانيين والأمريكيين ، الذين كان ديدنهم أن يروا شيوعياً تحت كل سرير ، بأنه كان «أداة» شيوعية . ومن المحتمل أن هذا كان هو الوقت الذي انضموا فيه هم أيضاً إلى المؤامرات التي كانت تحاك ضده . ومن المحتمل أنه بمساعدة هؤلاء الضباط ، بدأ هؤلاء القوميون العلمانيون ، الذين ألهموا المعارضة للنظام الملكي ، والذين بقوا أحراراً خارج السجون ، يحيكون المؤامرات . وعلى نحو منفصل ، بدأ نشاط دعاة الإسلام السياسي يتزايد ، وبدأ السنيون في تأسيس شبيه مستنسخ من تنظيم الإخوان المسلمين الذي ظهر إلى الوجود في مصر في الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين . ولكن الأهم كان نشاط الشيعة ؛ ذلك أنهم في هذه الفترة أسسوا أول تنظيم من عدة تنظيمات متوازية ستعارض في وقت لاحق صدام حسين أولاً ، والاحتلال الأمريكي فيما بعد ، وذلك التنظيم هو حزب «الدعوة» . وفي نهاية عام ١٩٦٠ ، أضيف هذا الحزب أيضاً إلى قائمة أعداء قاسم . وعلى الرغم من أن صد المنافسين أخذ معظم وقته وجهده ، على الأقل في أيامه الأولى ، فإن قاسم قد حقق أيضاً عدداً من المشاريع الاجتماعية والتعليمية والصحية التي تجاوزت حتى أحلام المصلحين أثناء فترة «العراق البريطاني» .

كما سيكونون دائماً ، بقي الأكراد خارج المجرى الرئيسي للشؤون العراقية . وكان قاسم قد بادرهم بإشارات ودية في بادئ الأمر . ولكن بمجيء العام ١٩٦١ ، كان الجيش العراقي مشتبكاً في حرب مع البيشمركة التابعين للملا مصطفى البارزاني ، الزعيم الكردي الذي تولى مقام الزعامة منذ وقت طويل . هذه الحرب الصغيرة استنزفت الدولة العراقية وأدت إلى زيادة الانتقادات التي توجه إلى قاسم في أوساط ضباط الجيش ، الذين أدركوا أنها حرب لا يمكن كسبها . كما أنها وفرت أيضاً فرصة

للأطراف الخارجية - الأمريكيين والإسرائيليين والإيرانيين - للتدخل على نحو يؤدي إلى إضعاف حكمه ؛ وقد استغلتها تلك الأطراف بطريقة مكتومة ولكن فعالة ، لحمتها وسداها تشجيع الأكراد في مقاومتهم ، وتزويدهم بالوسائل التي تساعدهم على إدامتها .

قاسم أعطى إيران الذريعة للحرب الخفية التي خاضتها ضده ، جراء مطالبته المتكررة بمنطقة خوزستان[1] الإيرانية التي يقطنها سكان معظمهم من الناطقين بالعربية . وسار قاسم على نهجه في زيادة عدد الأعداء ، فجدد المطالبة العراقية بالكويت . وعاد إلى استخدام صيغة وظيفية إدارية عثمانية قديمة بطريقة وقحة ولكنها شعبية ، فأصدر مرسوماً بتعيين الشيخ حاكم الكويت «قائم مقام» على «ذلك الجزء من محافظة البصرة العراقية الذي يدعى الكويت» . وكون أن الكويت كانت جزءاً لا يتجزأ من العراق ، وأن بريطانيا فصلتها بطريقة غير قانونية عن ولاية البصرة العثمانية ، وأنها لهذا السبب من بقايا الإمبريالية - كانت مسألة قديمة . وكان الملك فيصل الأول هو أول القائلين بها في العشرينات من القرن الماضي ، وتابعها ابنه الملك غازي الأول في الثلاثينات . كان التأكيد العراقي ينطوي على الحقيقة - كما يعترف العديد من الكويتيين- وكان المجلس التشريعي الكويتي قد صوت في الثلاثينات لصالح الاتحاد مع العراق . ولكن بمجيء العام ١٩٦١ ، كسبت الكويت اعترافاً عاماً باستقلالها ، بفضل برنامج معونة أجنبية سخية ، حتى إن الرئيس ناصر القومي العربي الوحدوي أرسل قوات مصرية لكي تحمي الكويت من العراق بموجب قرار من الجامعة العربية .

في جميع هذه المبادرات الحمقاء في معظمها في الشؤون الداخلية والخارجية معاً ، أصبح قاسم فعلاً ، بمعنى لم يكن يقصده ، زعيماً أوحد ، وانفض أتباعه من حوله في جماعات . واستغل حزب البعث فرصة استعدائه فئات كثيرة ، وبدأ يعيد تنظيم نفسه . ونشط في العمل السري ، وقام بتشكيل خلايا في الجيش ، كما فعل قاسم نفسه في وقت سابق . وفي صبيحة الثامن من شباط (١٤ رمضان - المترجم) قام حلف هش من الضباط باقتحام وزارة الدفاع (في منطقة باب المعظم - المترجم) ، واعتقلوه ، وبعد محاكمة عسكرية ميدانية ، أعدموه رمياً بالرصاص . وقيل إن ذلك

(١) وتدعى أيضاً عربستان ، وهي منطقة غنية بالنفط - المترجم .

الانقلاب قد حدث بمساعدة السي . آي . ايه[1] (وكالة المخابرات المركزية الأمريكية – المترجم) التي شعرت بقلق شديد من مغازلة قاسم للشيوعية[2] .

أطلق الانقلابيون على أنفسهم صيغة تنم على التفخيم هي «المجلس الوطني لقيادة الثورة» . وعينوا حليف قاسم السابق ، الذي كان قد خرج من السجن مؤخراً ، العقيد الركن عبد السلام عارف ، رئيساً للجمهورية ، وعينوا القيادي البعثي البارز العقيد الركن أحمد حسن البكر ، رئيساً للوزراء . واعتقد البعثيون أنهم وصلوا ، ولكي يضمنوا حكمهم ، قاموا بحملة تطهير شرسة طالت المئات وربما الآلاف من أعضاء نظام قاسم الذين تعرضوا إلى القتل . ومرة أخرى ، قيل إن المخابرات المركزية الأمريكية ساعدتهم في تشخيص العناصر التي ينبغي تصفيتها . وبعد أن قتلوا عدداً كبيراً من خصومهم ، كان يبدو للبعثيين أنهم أصبحوا في أمان . ولكن سرعان ما دبّ دبيب الاختلاف بين أعضاء المجلس . والقضية الأساسية كانت هي نفسها تلك التي راودت العراق منذ أيام نوري السعيد وشغلت حكم قاسم : هل ينبغي أن يندمج العراق في دولة عربية وحدوية (كما كان يطالب عارف) ، أي أن يتبع سياسة قومية ، أم أن يبقى دولة منفصلة (كما كان معظم البعثيين قد بدأوا يصرحون) ، أي أن يتبع سياسة وطنية؟ وعمد كل طرف إلى تنظيم قواه بحيث تأرجح العراق ، لفترة من الوقت ، على حافة الحرب الأهلية . وحسم الصراع بانقلاب إضافي آخر ، انقلاب داخل الانقلاب

---

(١) على الرغم من أنني كنت عضواً في مجلس تخطيط السياسة المسؤول عن العراق في ذلك الحين ، إلاّ أنني أبقيت مغيباً عن الاطلاع على المعلومات المتعلقة بهذه الأحداث . ومهما كان ما فعلته وكالة المخابرات المركزية ، كان من المفترض أن ينال مصادقة مجموعة خاصة تدعى لجنة الأربعين – المؤلف .

(٢) ثبت دور المخابرات الأمريكية في الانقلاب بما لا يدع مجالاً للشك فيما بعد . وكان شقيقي الأصغر باسم قائداً للمقاومة الشيوعية في «عكد (أي زقاق) الأكراد» ببغداد . واستمرت تلك المقاومة العنيدة في أنحاء متعددة من المدينة عدة أيام . وكنت يومها قومياً واستاذاً في الكلية العسكرية العراقية . وحملت السلاح مع مجموعة من طلابي الذين كانوا يحرسون دار الإذاعة مقر الحركة الانقلابية . ونقلت رسائل تأييد من المرحوم رشيد عالي الكيلاني . ولم أكن على علم بالدور الأمريكي ، ولكن تلك هي قصة أخرى ليس هذا مكانها ولا أوانها . – المترجم .

السابق . في ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣[1] استولى عارف على السلطة التي كاد أن يستولي عليها وأفلتت منه في ١٤ تموز ١٩٥٨ .

لا عجب أن يتحرك عارف بسهولة فائقة في الظلال ، بالنظر إلى خلفيته في العمل السري ، ودوره بوصفه الرجل الثاني بعد قاسم ، وذهابه إلى المنفى ، ودخوله إلى السجن ، ثم أخيراً نجاحه في الاستيلاء على السلطة . وكان استبدادياً إلى أقصى الحدود ؛ فاحتكر السلطة ، واحتفظ بسيطرة شخصية يقظة على الجيش . ولكي يمنع الآخرين من التآمر ضده ، قام بتشكيل ما أصبح يعرف في وقت لاحق بالحرس الجمهوري ، واختار لقيادته رجلاً من أقاربه من أبناء عشيرته . وهي خطوات سيقوم صدام حسين فيما بعد بما يماثلها . وتعلم بسرعة أن يلعب على النزعتين : نزعة الوحدة العربية(التي أصبح هدف تحقيقها بنداً أساسياً في الدستور الجديد) ، ونزعة الانفصالية (الإقليمية - المترجم) العراقية ، التي لم يكن يعلنها صراحة ، ولكنها كانت تظهر واضحة في الطريقة التي استخدم بها موارد الدولة لبناء قاعدته السياسية . وجاءت القطيعة النهائية بينه وبين القوميين الوحدويين عندما حاول قادة هذا الجناح في الجيش القيام بانقلاب عليه في أيلول ١٩٦٥[2] وكان حكيماً بتشكيل حرسه الجمهوري ، لأنهم كانوا هم الذين أنقذوه . ولكن ما فشل أعداؤه في فعله تحقق ربما عن طريق حادثة عرضية مفاجئة : سقوط طائرة مروحية كان يستقلها في ربيع عام ١٩٦٦ . وخلفه على الفور شقيقه عبد الرحمن عارف الذي واصل السير على نهجه .

كان يبدو ، لفترة وجيزة ، تحت حكم الشقيقين عارف ، أن الحرب الكردية ، القرحة النازفة منذ وقت طويل في الشؤون العراقية ، ربما ستتوقف . وكان عارف الأول

---

(١) وصلني مؤخراً من بغداد تقرير مستنسخ موضوعي بالتفاصيل الدقيقة عن حركة ١٨ تشرين الثاني ، كتبه الصديق العزيز القديم العقيد الركن صبحي عبد الحميد ، الذي كان في تلك الفترة مديراً للحركات العسكرية بوزارة الدفاع ، وكان قطباً رئيسياً في الحركة ، وقيادياً بارزاً للضباط والعسكريين القوميين في الجيش العراقي . ويبدو أن الصراع قد بدأ أولاً بين جناحين من حزب البعث . وتطور فيما بعد إلى صراع بين سلطة الحزب وسلطة الدولة . وانتهى بسقوط سلطة الحزب - المترجم .

(٢) محاولة انقلابية قادها العميد الطيار الركن عارف عبد الرزاق ، الذي كان حينذاك نائب رئيس الجمهورية وآمر القوة الجوية - المترجم .

قد اختار محامياً مدنياً لكي يكون رئيساً للوزراء (عبدالرحمن البزاز - المترجم)[1] . وكان من أهم بنود برنامجه السياسي أن يقدم للأكراد عرضاً جدياً بالحكم الذاتي ؛ وقد خاب هذا الأمل وتبدد عندما اضطر عبدالرحمن عارف إلى عزله بضغط من القادة العسكريين ؛ فتواصلت الحرب وامتدت .

في هذا الوقت ، كان يبدو أن البعثيين لم يعودوا منافسين جديين في الصراع على السلطة ، لأنهم كانوا قد فقدوا تأييد الضباط والعسكريين ، ولكن وضع عبدالرحمن عارف كان قد تدهور أيضاً . وفشل العراق في مساعدة العرب الآخرين في حرب حزيران ١٩٦٧ أدى إلى حدوث مظاهرات واسعة ، ولم يستطع النظام أن يسحقها ، مما أظهر أنه قد خسر حيويته .

وكما يحدث في العرق دائماً ، انطوى هذا الوضع على إمكانية وقوع انقلاب عسكري . وكان كل شيء يتوقف على حجز الزاوية الذي يتمثل في تحييد الحرس الجمهوري . استطاعت مجموعة صغيرة من البعثيين ، بمساعدة من الولايات المتحدة ، أن تحقق هذا الهدف باستغلال ذكي للشكاوى والخيبات التي كانت تعتمل في قلوب ضباط لم يكونوا من المنتمين إلى حزب البعث . وبما أن أحداً لم يكن يخاف من البعثيين ، كان بوسعهم أن يتسللوا إلى العدد القليل من نقاط الضعف في هيكل النظام ، ولكنهم لم يتمكنوا من الوصول إلى المفصل الرئيسي في نظام عارف ، وهو قريب من أقرباء عارف كان قائداً للحرس الجمهوري . وحانت فرصتهم عندما سافر هذا الرجل إلى الخارج لفترة وجيزة . عند ذاك ، تماماً كما فعل عارف سنة ١٩٥٨ (١٤ تموز) ، استولوا على دار الإذاعة ، ووزارة الدفاع ، ومقر قيادة الحرس الجمهوري . وفوجئ عارف بهذا التحرك ، وكان يعتقد أن البعثيين قوة منهكة ومستهلكة (بفتح اللام) وأنهم كانوا معزولين تماماً ؛ فوافق على الاستقالة ، وغادر إلى لندن ، وكان الانقلاب غير دموي .

---

(١) كان عبدالرحمن البزاز أستاذاً في القانون وعميداً لكلية الحقوق ومفكراً قومياً بارزاً . وعندما حدثت حركة ١٨ تشرين ١٩٦٣ ، استدعاني العميد الركن عبد الكريم فرحان الذي كان وزيراً للثقافة والإرشاد ، وكان من قادة الحركة وأراني رسالة بخط اليد من المرحوم البزاز ، الذي كان حينذاك سفيراً للجمهورية العراقية في لندن ، يطلبني فيها بالاسم الصريح شخصياً لكي أكون بمعيته ملحقاً صحفياً . وذهبت بالفعل ، وبقيت هناك حتى الخامس من حزيران ١٩٦٧ - المترجم .

كـان ذلك الانقـلاب المرحلة الأولى ، والبعـثـيـون كـانوا فـيـه مـجـرد طرف في تحالف[1] . وجاءت المرحلة الثانية بعد أسبوعين عندما طرد البعثيون شركاءهم في التحالف وانفردوا بالسلطة ، وكانوا أقلية صغيرة . فلعبوا في سنة ١٩٦٨ في العراق ، وعلى مستوى أصغر ، الدور الذي لعبه البلاشفة مع خصومهم في سنة ١٩١٧ في روسيا . ومثلما فعل البلاشفة في زمان ومكان آخرين ، عمد البعثيون إلى استخدام سلطة الدولة لكي يحققوا إدارياً ما عجز تنظيمهم الصغير عن تحقيقه سياسياً .

كذلك مثل البلاشفة في روسيا ، استفاد البعثيون في العراق من حقيقة أن مفهوم الحكومة التمثيلية ذاته كان يبدو غريباً وغامضاً . والأسوأ من ذلك ، أن هذا المفهوم ، عندما كان معروفاً ، كان يبدو بأنه وجه ، أو حتى سبب ، للضعف والفساد والتشرذم . وكان هذا الغياب العام للممارسات الديمقراطية ، بالإضافة إلى ضعف الاحترام لها والتعلق بها ، الذي ورثته بلاد الرافدين من فترة (العراق البريطاني) والعـقـد الأول من (العـراق الثـوري) ، هو الذي خلق الظروف التي أدت إلى ازدهار ديكتاتورية صدام حسين القاسية .

في هذا النظام الجديد ، لعب صدام حسين في البداية دوراً ثانوياً يكاد يكون محجوباً . في الواجهة الأمامية من السلطة ، كان يقف رجل يتملك سمعة عالية وسلطة واضحة . الجنرال أحمد حسن البكر كان يجمع مناصب رئيس الجمهورية ، ورئيس الوزراء ، والأمين العام لحزب البعث ، ورئيس ما أصبح يدعى منذ أيام الرئيس المصري ناصر «مجلس قيادة الثورة» . وصدام كان يصرح أنه ليس إلاّ مساعده . وكان متواضعاً في العلن ، بالأخص أمام هذا الرجل الذي ينتمي إلى جيل أقدم ، ولكنه كان يتحرك خلسة بثبات وعزم لكي يبني واقعاً سياسياً جديداً يستطيع أن يسيطر عليه ؛ لأنه وحده كان يعرف ما هو . والمقارنة مع هتلر (في ألمانيا) سنة ١٩٣٢ ، الذي كان يقف بتواضع واحترام ويراعي أصول اللباقة أمام الفيلد مارشال الطاعن في السن

---

(١) كان الطرف الآخر يتمثل في عبد الرزاق النايف وعبد الرحمن الداود ومعهما لفيف من الضباط . وكان المترجم يومذاك رئيساً للتحرير في جريدة بغدادية يومية كبرى هي (الثورة) . وطارده النايف الذي كان يعاديه . ولكنه أفلت منه وتوارى عن الأنظار ، وبقي متوارياً عن الأنظار إلى أن سقط النايف . فخرج المترجم من مكمنه ، وعاد إلى وضعه الطبيعي أستاذاً بقسم الفلسفة بكلية الآداب في جامعة بغداد . وهذه قصة أخرى يضيق المجال الآن عن روايتها – المترجم .

فون هندينبورغ ، بينما كان يبني سلطة جديدة ، ربما ليست خاطئة تماماً .

على خلاف البكر والشقيقين عارف وقاسم - ولكن مثل هتلر - لم يكن صدام ضابطاً عسكرياً ولا كان رجلاً مهنياً ، وكان ينحدر من خلفية ريفية فقيرة ، ولم ينل تعليماً نظامياً عالياً ، ولكنه كان مدفوعاً إلى التفوق منذ شبابه المبكر ، لذلك كان قارئاً نهماً ، ولم يكن يميل إلى «النظرة العامة الشاملة» ، بل كان يبتهج بالغوص في التفاصيل . وكان يتملك ذاكرة حاضرة قوية ، كما كان أيضاً رجلاً لا يتعب أبداً من الاهتمام بالتنظيم . وإذا أخذنا مقارنة أخرى ، فيمكن أن نقارنه بالوزير السوفيتي فياجيسلاف مولوتوف ، الذي وصفه ستالين بقوله إنه «أفضل الكتبة الذين يحفظون الملفات في موسكو» . حقاً كان صدام خير خلف للوزير مولوتوف من هذه الناحية ، وجعل شغله الشاغل أن يعرف بالفعل اسم ، ومنزلة ، والرقم التسلسلي لكل عراقي راشد . وكانت المعرفة هي الخطوة الأولى حسب ، واستعان برعاية الدولة وتوزيع الامتيازات بطريقة انتقائية ، والتعيين في المناصب الرسمية لكي يجعل الراشدين من السكان العراقيين يصطفون بالكامل إلى جانب الكادر الصغير من البعثيين . ولم يكن هناك أي موظف حكومي بسيط ، وأي معلم ، وأي ساعي بريد - ويشعر المرء بالإغراء أن يقول ولا أي كنّاس شوارع- يمكن أن يكون أقل من أن يحظى باهتمامه الفائق . والجميع يمكن اختيارهم لكي يصبحوا من أنصاره بالترغيب أو بالترهيب ، بالرشوة ، وإذا كان ذلك ضرورياً ، بالتخويف . وبجهوده الدائبة ، تحول حزب البعث الذي كان حزباً صغيراً في البداية إلى حزب سياسي جماهيري ، أكبر ، إذا أخذنا بالقياس النسبي إلى عدد السكان ، من النازيين لدى هتلر ، والفاشيين لدى موسوليني والشيوعيين لدى ستالين ، ولكن الحزب وأيديولوجيته كانا مجرد وسيلتين لدى صدام . أما الهدف الوحيد الذي كان يشغل بال صدام ليل نهار فلم يكن يتعلق لا بالمنظمة ولا بالأيديولوجية ، وكان يتأرجح بحسب مقتضيات السوانح والأخطار بين القومية والوطنية ، وبين الاشتراكية والرأسمالية ، وبين الحزب والدولة ، وحتى بين الحزب والعائلة . كانت السلطة هي هدفه أولاً وآخراً . وسواء أكان قد قرأ ماكيافيللي (كتاب الأمير - المترجم) أم لم يقرأه ، فإنه كان سيتفق معه في الرأي القائل إن المصلحة العليا للحاكم هي السلطة ، ولا شيء غير السلطة ، وكيف يحصل عليها ، وكيف يحتفظ بها ، وكيف يستخدمها . وهذه كانت هي القوى الدافعة في حياة صدام حسين .

مثل السياسيين الآخرين الذين يبحثون عما يخدم مقاصدهم في القوى السوداء للإنسانية ، أدرك صدام أن الرجال يحتاجون إلى أعداء ؛ وقد قضى معظم حياته العملية في البحث عنهم . ولا يبدو أنه عرف الكثير من التاريخ العراقي ، إلاّ أنه كان يعلم بالتأكيد أن معاصريه شهدوا عدداً كبيراً من الانقلابات ، بحيث انهم أصبحوا يتخيلون وجود مؤامرات أينما صوبوا أنظارهم . وكان صدام نفسه أيضاً يخافها ويخشاها ، ولكنه كان يعرف كذلك كيف يستخدمها لتبرير ما يتخذه من مواقف وقرارات في مساعيه الرامية إلى توطيد دعائم سلطته . وكان لديه العديد من المرشحين المحتملين – رفاقه البعثيين ، وضباط الجيش ، والأكراد ، والشيعة ، والزعماء الدينيين ، والبريطانيين ، والأمريكيين ، والإيرانيين ، والسوريين ، والمصريين ، والإسرائيليين . وسيستخدمهم جميعاً في آخر المطاف ، ولكنه بدأ بالشيعة .

المسلمون السنة مثل صدام والرجال الذين يحيطونه لم يكن بوسعهم الاعتقاد بأن الشيعة ، الذين استبعدوا بوجه عام من المشاركة في الدولة العراقية منذ تأسيسها ، يمكن ببساطة أن يكونوا مواطنين صالحين يدينون بالولاء الحقيقي للعراق وكان الشيعة متأثرين بالثقافة الفارسية ، وأغلبهم يتكلم اللغة الفارسية ويحتفظ بعلاقات مع أقرباء وأصدقاء يعيشون في إيران . لذلك ليس فقط السنة العرب كانوا يعتبرونهم غير عراقيين ، بل حتى البريطانيون كذلك . وفي عهد صدام ، عمدت الحكومة الإيرانية إلى إثارتهم بإقامة محطة للإذاعة كانت تحثهم على إسقاط الدولة العراقية . وفي وقت لاحق ، أمرهم أعضاء المرجعيات والمجتهدون العراقيون أن لا ينضموا إلى حزب صدام ، وأصدروا فتاوى تشجب عدداً من برامجه المختلفة . وعلى هذا النحو ، الذي تعززت فيه الذكريات القديمة بالأعمال الراهنة . وبمنطق منحرف ومعكوس ، فإن حقيقة كون الشيعة قد قاتلوا بشجاعة دفاعاً عن العراق في حربها مع إيران ، جعلتهم يظهرون بأنهم أكثر خطورة ، وكان صدام ينظر إليهم باعتبارهم «مشاريع أعداء» لنظامه إلى أربعين سنة قادمة .

معاملة الشيعة بوصفهم مواطنين لا يدينون بالولاء لوطنهم ، جعلتهم بالطبع يلتزمون جانب الحذر ، وكانت «التقية» هي دفاعهم التقليدي ضد الطغيان . وهذا بدوره أحاطهم بالمزيد من الشبهات والشكوك . التقية كانت سيئة ، ولكن الاحتجاج العلني كان استفزازياً . وحينما كان الشيعة يتجمعون ويتجمهرون ، كانت قوات الأمن والجيش تتحرك ضدهم بوحشية . والأفراد الزعماء ، وبالأخص رجال الدين ،

كانوا يتعرضون إلى الاعتقال والسجن أو الإعدام . وكانت مدارسهم تغلق ، ومواعظهم تمنع . والد وعمة أحد أهم زعماء الشيعة اليوم ، مقتدى الصدر ، كانا من بين آلاف الضحايا . وفي عام ١٩٦٩ ، قامت الحكومة العراقية بطرد عشرين ألفاً من مواطنيها الشيعة عبر الحدود إلى إيران . وعندما لم يستطع صدام أن يهزمهم ، حاول أن ينضم إليهم ؛ فجعل يوم مولد الإمام علي عيداً وطنياً ، وأعاد بناء مساجدهم وعتباتهم المقدسة . حتى إنه أعلن أن نسبه يعود إلى الخليفة الرابع من الخلفاء الراشدين ، علي . ولكن كل ذلك كان بلا جدوى ؛ فبالنسبة إليه ، كان الشيعة شعباً مختلفاً ، ودفعوا ثمن ذلك بالدم .

كان البعثيون يعتقدون أن الأكراد هم أكثر اغتراباً وخطراً على الدولة من الشيعة . وكان البريطانيون ، منذ تأسيس الدولة ، يعتبرون المسألة الكردية بأنها مسألة بالغة الصعوبة تستعصي على العلاج . ولولا اكتشاف النفط في منطقة يسكنها الأكراد ، بالقرب من كركوك ، ولولا الخطر الذي يحتمل أن ينشأ من قيام دولة غير صديقة باستخدام دولة كردية كقاعدة ، فلربما كانت بريطانيا ستسمح لهم بالاستقلال ، ولكنها لم تسمح لهم بالاستقلال . بل نظرت إلى كردستان كما نظرت إلى ولاية الحدود الشمالية الغربية في الهند - أرض عشائرية مشاغبة حرام من الأفضل تركها وشأنها إلى أقصى حد ممكن . وهكذا حدث عندما حصل العراق على استقلاله رسمياً في الثلاثينات ، كانت كردستان ما تزال طعاماً «لم تهضمه» معدة العراق . وستحاول ، مرة بعد أخرى ، أن ترغم الدولة العراقية على أن «تسعلها» إلى الخارج . ونشأت دوامة متواصلة لا تنتهي ، تتألف مراحلها من حرب عصابات يعقبها وقف إطلاق النار ، وغارات من نوع «اضرب واهرب» تلتها مفاوضات ، ومرحلة قبول تأتي بعدها مرحلة تحد ، والمشاركة في الحكومة العراقية والتآمر من ثم مع الدول الأجنبية . وفي المرحلة الراهنة من تلك الدوامة الدورية ، جوبهت كردستان بحملات عسكرية حاشدة .

في أحد تلك الأصداء القادمة من أعمق أعماق التاريخ الطويل الذي رويته في هذا الكتاب ، استنسخ صدام ، وأجزم أنه فعل ذلك على غير علم منه ، السياسة التي رسمتها ونفذتها الدول الآشورية القديمة ، السلف البعيد للعراق ، عندما أرغمت المجموعات السكانية في الإمبراطورية على تبديل أماكن سكنها قسراً . وفي سبعينيات القرن العشرين ، طرد البعثيون عشرات الآلاف من الأكراد عبر الحدود إلى

إيران . وعندما عقدت اتفاقية بين إيران والعراق سنة ١٩٧٥[١] بغية إنهاء الحرب الخفية بين البلدين ، هربت عشرات آلاف أخرى من الأكراد . وفي تلك الصفقة ، باع شاه إيران الأكراد لقاء حصوله على قطعة من الممر المائي (شط العرب - المترجم) المؤدي إلى الخليج الفارسي[٢] . وبعد أن تحررت أيديهم على هذا النحو ، بدأ العراقيون في تنفيذ عمليات الأرض المحروقة التي دمرت الآلاف من القرى على امتداد الحدود الإيرانية . وقامت السلطات العراقية بعد ذلك بتجميع الأكراد ، ونقلتهم بالقوة إلى جنوب العراق ، وجلبت إلى كردستان مجموعات من العرب الذين أمرتهم أو أقنعتهم بالهجرة . هذه السياسات حققت مؤقتاً ما يدعى بـ «سلام المنهكين» . ولكنها لم تنه التحديات التي كانت تواجه حكم صدام ، لأن الأكراد والشيعة لم يكونوا وحدهم .

منذ أن تأسست الدولة ، كان العراقيون من جميع المهن يعتقدون اعتقاداً راسخاً بما يمكن أن يدعى مدرسة جيمس بوند في السياسة . فكانوا يتصورون أن وراء كل بيان ، وكل تحالف ، وكل عمل ، يكمن في السر عملاء أجانب قساة ، أشرار ، لامعون . وكل عراقي قابلته كان متأكداً أن العملاء البريطانيين هم الذين اغتالوا ملكهم غازي . وكانوا يرون وراء نوري السعيد شخصيات يكتنفها الغموض تعمل في السفارة البريطانية . وعندما كان العراقيون يعقدون اجتماعاً سرياً ، كانوا واثقين أن الخبر قد وصل فوراً إلى البريطانيين بواسطة عملاء زرعوا بذكاء في مواقع حساسة . وما فعله البريطانيون ، أو ما اعتقد العراقيون أنهم فعلوه ، أصبح تركة ورثتها المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) . وكان العراقيون يتصورونها تماماً كما تصوروا المخابرات البريطانية MI6 ، مع فارق واحد هو أن المخابرات الأمريكية كانت تتصرف بأموال تزيد بكثير على تلك التي كانت تحت تصرف المخابرات البريطانية القديمة ، واستمع العراقيون إلى الأمريكيين يتفاخرون أن المخابرات الأمريكية (بشيء من المساعدة من المخابرات البريطانية) هي التي أسقطت الحكومة الإيرانية ، التي كان يرأسها محمد

---

(١) سميت باتفاقية الجزائر ، بين صدام حسين وشاه إيران - المترجم .

(٢) بناء على طلب الشاه ، قام صدام أيضاً بطرد آية الله روح الله خميني ، الذي كان يعيش بهدوء نسبي في منفاه في النجف . وينبغي وضع هذا الطلب من الشاه كأحد أغرب المساعي الخرقاء للبحث عن الأمن القومي في هذا القرن - المؤلف .

مـصـدق . وكـانوا على يقين - عن حق - أن المخـابرات الأمـريكيـة لعبت دوراً في الإطاحة بقاسم . كما أنهم كانوا يعلمون أن المخابرات الأمريكية كانت تعمل بتنسيق وثيق مع المخابرات الإسرائيلية (الموساد) ، وأنها كانت تمولها جزئياً .

في حين كـان هناك شطر كبير من الحقيقة وراء ما صرفه المراقبون الخارجيون بوصفه (بارانويا)[1] ، فإن هذه الاعتقادات كشفت الأساس الذي قام عليه ونشأ منه شعور العراقيين بعدم الأمن . وكـانوا يدركون أن بلادهم صغيرة وضعيفة ، ولكنها تمتلك ثروات هائلة من النفط ، مما جعلها هدفاً للسيطرة الأجنبية . وعرف العراقيون أن بعض زعمائهم الأوائل على الأقل كانوا يخدمون كعملاء للدول الأجنبية . وافترضوا أن زعماءهم الحاليين يرغبون في القيام بذلك الدور نفسه . وكانوا يدركون أن المراهنات جسيمة ، وأن الجوائز ضخمة ، وأن الصراع الوحشي على السلطة كان عارياً . لذلك كـان الشك يسـاورهم ، وكـانوا على صـواب في كـثـيـر من الأحـيـان ، أن الزمـلاء والأصدقاء وحتى الأقرباء كانوا مستعدين للمشاركة في اللعبة وراغبين أن يقع عليهم الاختيار . وهكذا كان المزاج العام ، أو بعبارة أخرى ، الجو السائد في العراق شبيهاً بذلك الذي أرعب الأمريكيين في فترة مكارثي ، إلاّ أن الأول كان أشد تغلغلاً وأوسع انتشاراً من الثاني . كانت الثقة ترفاً ، وكان الحذر ضرورياً .

في يدي معلم خبير وأستاذ ماهر في فنون الدعاية ، كما كان صدام بالتأكيد ، كان يتوافر ما يكفي من الواقع لكي يجعل ما يشاع أو ما يخيف قابلاً للتصديق . وقد كان صدام يتصرف كما لو أن الأعداء يوجدون في كل مكان . واستخدم هذا لكي يسدد الضربات إلى الخصوم الحقيقيين أو المفترضين ، وكان ما فعله في هذا الصدد يماثل إلى حد بعيد ما فعله ستالين في روسيا . هذا ما حدث بعد استيلائه على السلطة بوقت قصير ، ثم بدأ يركز الاهتمام الشعبي على مختلف المجموعات أو الأفراد . وقابل الجمهور تلك الاتهامات بالتصديق على أنها حقائق ؛ أو امتنع بحكمة عن طلب الدليل والتساؤل عن البرهان .

من بين أول الضحايا كان أمين العاصمة السابق ، الذي كان يحظى بشعبية واسعة ، والذي أرغم تحت التعذيب على الاعتراف باشتراكه في مؤامرة . هل بوسع

---

(١) PARANOIA : جنون الارتياب - نزعة عند الأفراد والجماعات تجعلهم شديدي الشك والارتياب في الآخرين - المترجم .

أحد أن يستغرب؟ بعد سنوات عديدة من المؤامرات المتعاقبة ، أصبح البغداديون يتناقلون نكتة مفادها أن أحدهم قد وجد رجلاً لم يسبق له أن اشترك في أية مؤامرة . وكان الأجانب دائماً تحيطهم الشكوك والشبهات ، وكانت إسرائيل ، بالطبع ، تتصدر القائمة . ومن هم الذين يوفرون القوى والعناصر البشرية الجاهزة التي تحتاجها المخابرات الإسرائيلية؟ بطبيعة الحال ، الجالية اليهودية العراقية . وسرعان ما كشف النقاب عن مؤامرة حبكها الموساد(١) . وسواء أكانت المؤامرة صحيحة أم لم تكن ، فإنها كانت منطقية . وبعد كل شيء ، كان العراق في حالة حرب مع إسرائيل من الناحية القانونية . والأعداء يقومون دائماً بجمع المعلومات والتجسس ، ورويت العشرات من القصص التي تبين مدى دقة اطلاع الموساد على المعلومات . وإذا كانت إسرائيل هي المشبوه الرئيسي ، فإنها مع ذلك كانت مشبوهاً واحداً من بين مشبوهين كثيرين . «الكشف» والاعتقال ، والمحاكمة الصورية ، والإعدام أو «الاختفاء» أصبحت هي الخطوات المتعاقبة في عملية أساسية متواصلة قذرة ضد المواطنين والأجانب في عراق السبعينات من القرن الماضي ، كما كانت في الاتحاد السوفيتي في الثلاثينات من ذلك القرن . وعلى هذا النحو ، تخلص صدام من خصومه الحقيقيين أو المحتملين ، فرداً بعد آخر ، أو مجموعة بعد أخرى ، أو أبعد آخرين عن طريق الإغراء والتخويف .

وفي حين أن صدام كان راغباً ، بالتأكيد ، في استخدام أشكال بشعة من القمع ، ومن المحتمل أنه كان يستمتع بذلك شخصياً ، إلاّ أنه أدرك أن الخوف وحده لن يضمن بقاء نظامه . وفي مجتمع «عشائري» شديد الترابط مثل العراق ، كان على الزعماء أن يستعينوا بالقواعد الثابتة للتعامل على أساس القرابة ، لكي يتفادوا التعرض إلى الثأر . لذلك بينما عمد صدام إلى تعذيب أو قتل الأعداء المحليين

(١) أربعة عشر سجيناً محكوماً ، بمن فيهم تسعة يهود ، جرى شنقهم علناً في الساحة المركزية ببغداد (ساحة التحرير – المترجم) بعد حملة صحفية واسعة . وتركت الجثث معلقة بالحبال على المشانق تتأرجح في الهواء . وطلب من الجماهير أن تأتي لكي تشاهد ما حدث . واعتبر الرئيس جمال عبد الناصر أن هذه الفعلة شنيعة إلى درجة أنه تكلم مع الرئيس أحمد حسن البكر على الهاتف شخصياً ، وهدده أنه سيشجبه وفعلته على مسمع ومشهد من العالم أجمع ، مما دفع البكر إلى إيقاف هذا المشهد المريع ، ولكن صدام كان قد أوصل بالفعل الرسالة التي يريدها ، ومصير الذين يعارضون الثورة أصبح واضحاً – المؤلف .

والأجانب ، الحقيقيين أو المفترضين ، كان يسعى أيضاً إلى كسب الود والرضى . واستخدم من الوسائل والأساليب ما يمكن ترتيبه في ثلاثة أصناف . أولاً : قام بإطلاق سراح المسجونين من أعداء الأنظمة السابقة . ونال بذلك رضاهم ورضى أقربائهم العديدين وشعورهم بالامتنان . وفضلاً عن ذلك ، فإن إطلاق سراح البعض جعل اعتقال آخرين يبدو أكثر معقولية . وثانياً : أعاد توظيف الآلاف الذين فقدوا وظائفهم لأسباب سياسية أو مالية ، وجعلهم يدركون أنهم يدينون بالفضل له شخصياً ، وأن الأفضال والمكرمات يمكن سحبها واستردادها . وثالثاً ، والأهم من ذلك كله ، تابع الخطة الرئيسية للتنمية الوطنية التي وضعها وأقامها نوري السعيد للمرة الأولى (مجلس الإعمار - المترجم) ، وطبقها من بعده على نحو متقطع قاسم ثم الشقيقان عارف . وبدأ يشجع على نمو طبقة متوسطة وبناء دولة عصرية بأحدث المقاييس ، تضم سكاناً هم الأفضل تعليماً والأصح بدناً والأطول عمراً في العالم العربي .

وفي حين أن الرجال والنساء الذين كانوا يحرثون التربة بجهد سواعدهم في فترة (العراق البريطاني) قد تحولوا تماماً إلى عبيد للأرض بفضل (نظام دعاوى العشائر) الذي وضعه البريطانيون والقانون البرلماني العراقي رقم ٢٨ لسنة ١٩٣٢ (حول حقوق المزارعين وواجباتهم) ، بدأت حكومة البعث الجديدة في سنة ١٩٦٩ عملية توزيع الأراضي العشائرية السابقة ، التي استولى عليها تجار المدن و«شيوخ» العشائر (سميت هذه العملية بالإصلاح الزراعي - المترجم) . وفي غضون سنوات قليلة ، استلم حوالي ربع مليون فلاح قطعاً من الأراضي تكفي كل منها أن تعيل عائلة .

ولعل الأهم والأدعى إلى الإعجاب كان ما اتخذته الحكومة من خطوات أتاحت مجانية العناية الصحية ومجانية التعليم لجميع المواطنين . وفي غضون عقد واحد من الزمان تضاعف عدد الطلاب المسجلين . وفي حين أنه في سنة ١٩٢٠ ، كان عدد الطلاب الذين يتلقون دراسة ثانوية لا يتجاوز الثلاثين طالباً - وهي نسبة اعتبرها البريطانيون في حينه زائدة ربما عن اللازم - أصبح عدد هؤلاء الطلاب في سنة ١٩٨٥ حوالي المليون ونصف المليون طالب . وفي كل مرحلة من المراحل الدراسية ، أصبحت الأرقام بدورها مثيرة للإعجاب . وعندما عشت هناك في الخميسنات ، كان المهندسون الميكانيكيون الذين يمتلكهم العراق يمكن جلبهم مجتمعين في غرفة استقبالي ، لأن عددهم لم يكن يزيد على خمسة . وبحلول العام ١٩٨٠ ، كان عددهم يصل إلى

الآلاف ، بحيث لا تتسع لهم قاعة عامة واسعة للاجتماعات . في سنة ١٩٥١ ، كان واحدٌ من كل خمسة أطفال يموت عند الولادة ، وانخفض هذا العدد إلى المستويات الأوروبية والأمريكية حتى جاءت تسعينيات القرن الماضي (عندما توفي نصف مليون طفل عراقي بسبب الحصار الاقتصادي – المترجم) .

ومع تدريب عدد أكبر من الأطباء ، وعلى الرغم من تزايد عدد السكان ، ارتفعت النسبة من طبيب واحد لكل سبعة آلاف في ١٩٥١ إلى طبيب واحد لكل ١٨٠٠ . ومع ازدياد الدخل ، الذي ارتفع بمقدار حوالي عشرة أضعاف ، ازداد معدل متوسط عمر الإنسان من أربعين سنة بحسب التقدير إلى سبعة وخمسين سنة . وباختصار ، كان الفرق مذهلاً حقيقة بين العراق الذي سبق وأن عشت فيه في الخمسينات من القرن الماضي وبين العراق الذي شاهدته وعدت إليه في الثمانينات من ذلك القرن . ومعظم الفضل في ذلك يعود إنصافاً إلى صدام ، والأداة التي كانت في يده هي النفط .

كان النفط جزءاً من تركة «العراق البريطاني» . وقام البريطانيون بتنظيم الكونسورتيوم الذي عرف باسم «شركة نفط العراق (IPC)»[1] ، وتمويله بالاستثمارات ، وإدارته . وهي الشركة التي تولت تشغيل الحقل النفطي الكبير في كركوك بشمال العراق . وكان عملاً حكيماً أن تتولى (IPC) تنظيم الإنتاج في ذلك الحقل ، لكي تضمن سوقاً مستقراً ومربحاً . وبما أن الشريك الذي تولى الإدارة ، بريتيش بتروليوم (BP) ، حقق أرباحاً أكبر في إيران وأماكن أخرى ، فإنه قام بتحديد ما ينتجه في العراق ، ومنع إلى حد بعيد المزيد من التنقيب والاستكشاف ، ولم يكن لدى الحكومة العراقية إلاّ القليل من التأثير في هذه المسائل .

بناءً على الحافز الذي جاء من الصفقة التي عقدتها شركة النفط العربية الأمريكية (الأرامكو) بتقاسم الأرباح مناصفة مع المملكة العربية السعودية ، تفاوض نوري على صفقة مماثلة مع IPC في سنة ١٩٥٢ . وكانت النتيجة في العراق أن ارتفعت عائدات الحكومة العراقية من ٤٠ مليون دولار في ١٩٥٢ إلى ما يقرب من ٢٣٨ مليون دولار في عشية انقلاب ١٩٥٨ . ومما يذكر له ويحمد عليه ، أن نوري

---

(١) الـ IPC كانت تتألف من خمس شركات : بريتيش بتروليوم (BP) ، وشل ، وايسو ، وموبيل ، والشركة الفرنسية للبترول ، بالإضافة إلى حصة تبلغ ٥٪ تعود إلى آل كولبنكيان ، الذين كانوا قد أتاحوا الحصول على الامتياز الأصلي . وكانت شركة (BP) هي التي تتولى إدارتها – المؤلف .

خصص ٧٠٪ من هذا المورد الجديد للتنمية والإعمار .

إدراكاً منه أن العراق يمكن أن يجني عائدات أكثر بكثير من النفط ، سعى قاسم إلى تغيير العلاقة بين الحكومة والشركة ، وطالب IPC أن تتخلى عن ٩٠٪ من الأراضي المشمولة بامتيازها ، وأصدر قانوناً بهذا المفعول في كانون الأول عام ١٩٦١ ، وأعلن أيضاً أنه ينوي تأسيس شركة وطنية للنفط . وقوبلت هاتان الخطوتان بمقاومة قوية من شركة IPC التي اعتادت أن تتعامل مع حكومات عراقية مطاوعة ومذعنة . غضب قاسم على شركة IPC فشارك في تأسيس منظمة تضم الدول المنتجة للنفط (الأوبيك) التي كان هدفها تحويل ميزان القوة لصالح المنتجين ، ولكنه لم يحرز إلاّ تقدماً قليلاً بسبب انخفاض الطلب على النفط في السوق العالمي . وبعد خلع قاسم بالانقلاب (١٤ رمضان أو ٨ شباط - المترجم) ، واصل عبد السلام عارف السير على خطواته عندما قام سنة ١٩٦٤ ، في ظروف أفضل كانت سائدة في السوق العالمي ، بتأسيس (اينوك : INOC) ، أي شركة النفط العراقية الوطنية . أما شقيقه عبد الرحمن عارف فقد أدخل لاحقاً منافسين من فرنسا وروسيا للإنتاج من حقول جديدة وتسويق النفط العراقي . ومن خلال هذه التدابير ، تزايدت عائدات النفط بسرعة فائقة .

وبعد ذلك ، وفي أعقاب انقلابين آخرين ، بدأ صدام حسين في سنة ١٩٧١ يدرس قضية النفط . وسرعان ما أدرك أن المفاوضات السابقة مع شركة نفط العراق IPC قد أغفلت النقطة الجوهرية . وفي حين أن الشروط التي تتحكم في المشاركة بالعائدات كانت مهمة ، إلاّ أنها كانت عاملاً مرتبطاً بكمية الإنتاج . وإذا كانت الشركة تستطيع أن تقرر تخفيض الإنتاج ، كما فعلت بنسبة ٥٠٪ من إنتاج حقل كركوك في سنة ١٩٧٢ ، أو الاحتفاظ بالإنتاج ثابتاً في العراق ، بينما تستغل نفطاً أرخص في أمكنة أخرى ، فإن العراق عندئذ لا يمكن أبداً أن يكون مستقلاً استقلالاً حقيقياً . وباشر صدام بالسعي إلى قلب تلك المعادلة رأساً على عقب . وبعد أن توصل إلى الاستنتاج أن قاسم والشقيقين عارف لم يفعلوا سوى تعقيد المسألة ، سدد صدام ضربته إلى لبها وصميمها . وفي حزيران سنة ١٩٧٢ ، أصدرت الحكومة العراقية قراراً بتأميم شركة نفط العراق IPC .

تأميم شركة نفط العراق كان ربما الخطوة الأكثر شعبية على الإطلاق التي خطاها صدام . ومن الصعب على الأجانب ، وبالأخص الأمريكيين المعاصرين ، أن يفهموا

مدى مرارة العراقيين من السيطرة الأجنبية . كانت هناك (وما تزال) جروح مفتوحة عديدة في تاريخهم القريب ، إلاّ أن السيطرة الأجنبية على اقتصادهم يبقى الجرح الأكثر مرارة . والجيل الذي نشأ بعد الحرب العالمية الثانية وترعرع في ظلالها كان يعتبر النفط ، الثروة الوطنية الوحيدة الأساسية التي يملكها العراق ، بوصفه رمز الإمبريالية البريطانية وسببها .

سأعود مجدداً في وقت لاحق إلى هذه المسألة الذاتية السياسية والنفسية عندما أتطرق إلى علاقة أمريكا بالعراق وتقدير احتمالاتها المستقبلية . هنا أريد التأكيد موضوعياً أن تأثير التأميم على العراق كان مثيراً وإيجابياً . وارتفعت العائدات من مبيعات النفط من بليون دولار في سنة ١٩٧٣ إلى ٨ بلايين دولار في غضون سنتين ، وكانت تلك هي مجرد البداية . ومع مجيء العام ١٩٨٠ ، ارتفعت تلك العائدات إلى أرقام مذهلة تصل إلى ٢٦ بليون دولار . هذا الازدياد الهائل للعائدات أتاح إعادة تشكيل المجتمع العراقي بالكامل ، وبناء مشاريع واسعة جديدة للبنية التحتية ، وتحديث القوات المسلحة وتوسيعها . وكان يبدو أن عصراً ذهبياً قد بدأ ، وكان هناك شيء في البرامج لكل فرد ، إلاّ أن البعض طبعاً استفاد أكثر من الآخرين ، وكانت هناك سيطرة دقيقة تحدد من الذي سيستفيد وكم ستكون الفائدة التي سيجنيها . ومن هنا ، برزت طبقة جديدة من أصدقاء النخبة الحاكمة وأقربائهم وأنصارهم ، وكانت السلطة هي الغاية . ولكن لا يستطيع أحد أن ينكر أن توزيع المكرمات والأفضال المالية وتخصيص الأموال للإنفاق العام قد أدى إلى نتائج مفيدة . وتكاثرت المدارس والجامعات والمستشفيات والمصانع والمسارح والمتاحف ، وأصبحت العمالة شاملة إلى الحد الذي أدى إلى ظهور نقص في الأيدي العاملة . وبدأ ضباط الجيش يستعملون أفضل المعدات وأحدث التجهيزات المتوافرة في ذلك الوقت ، بعد أن أمضوا زمناً طويلاً في استلام الخردوات العسكرية البريطانية المستهلكة . كانت هناك في تلك الأيام أموالٌ كافية للحصول على «المدافع والزبدة» معاً ، دون التضحية بأحدهما للآخر . ثم بدأ كل شيء يتصدع ويتهاوى . في أيلول ١٩٨٠ بدأ ما سيصبح «المستنقع الذي غاص فيه العراق» ، ثمان سنوات من الحرب مع إيران هدرت موارده ، وكلفته حوالي ١٥ بليون دولار ، وحصدت أرواح مئات الآلاف من شعبه ، وجعلته يخسر ما يقرب من خمسين ألف شاب سقطوا في الأسر ، وأوشكت أن تقوده إلى الإفلاس . وتقاتل الطرفان على جبهة طولها ٧٢٥ ميلاً ، أي ما يعادل ١,١٦٩ كيلو متراً . وكانت

الحرب شبيهة بحرب الخنادق الساكنة الشرسة في الجبهة الغربية في الحرب العالمية الأولى ، وستكون كلفتها بالنسبة إلى عدد السكان ، على العراق ، الذي كان بلداً يبلغ عدد سكانه في ذلك الحين ١٤ مليون نسمة ، أكبر بكثير من كلفة حرب أمريكا في فيتنام .

بالإضافة إلى المال الذي اضطر العراق إلى اقتراضه ، والذي يصل تقريباً إلى عشرة أضعاف مدخولاته السنوية ، فإنه تحمل أيضاً «تكاليف الفرصة» التي تصل تقريباً إلى ٢٥ بليون دولار ، عندما أغلقت سوريا صادراته النفطية جزئياً . ولكن ما وجدته أكثر وضوحاً عندما زرت بغداد في سنة ١٩٨١ كان ما تكبده من خسائر في «كلفة التنمية» . فالخطة الاجتماعية والاقتصادية الطموحة التي كان العراق في طريقه إلى أن يصبح بموجبها الدولة الأكثر تقدماً من بين جميع الدول العربية ، كانت أيضاً ضحية من ضحايا الحرب . الأبنية توقف بنائها ولم يكتمل ، والمشاريع هجرت وألغيت ، والكفاءات لم تعد توظف وتستخدم ، والحوافز غاضت واختفت ، والهمم لم يعد أحد يستنهضها ويستثيرها .

من الطبيعي أن العراقيين كان لديهم سبب للذهاب إلى الحرب ؛ فالحكومات لديها مثل هذا السبب دائماً تقريباً . والنادرون فقط من رجال الدولة هم الذين يفهمون التكاليف والأخطار الرهيبة للحرب ، ويعمل ما في وسعه لكي يصل إلى حلول للمشكلات البارزة بوسائل أخرى . وصدام لم يكن أحد هؤلاء النادرين من رجال الدولة ، بل بالعكس ، نظر إلى الموضوع على أنه فرصة سانحة . إيران كانت تبدو ضعيفة ، وحكومتها الأصولية الثورية كانت قد تولت تطهير طبقة ضباط جيش الشاه الذين دربهم الأمريكيون تطهيراً شرساً ، كما أنها خسرت موردها الأمريكي الذي كان يمدها بالأسلحة والمعدات . وعلى العكس من ذلك ، كان صدام أقوى الآن مما قد كان في أي وقت على الإطلاق ؛ فالصراع مع الأكراد كان قد هدأ مؤقتاً على الأقل ، وجيش العراق كان قد حصل بكثافة على أحدث الأسلحة . وكانت خزينته مليئة بالأموال والمدخرات ، ونال موافقة ضمنية على الأقل من الدول العربية «الشقيقة» . فالأردن أتاح له أن يستخدم ميناء العقبة الذي كان خارج مدى الهجوم الإيراني ، بينما السعودية والكويت وافقتا على إمداده بالأموال . وفضلاً عن ذلك ، كانت إيران تتبع نهجاً استفزازياً ؛ فآية الله خميني كان يحرض شيعة العراق على الثورة ، بل حتى على قتل صدام . ومن المعتقد أنه شجع محاولات الانقلاب في

١٩٨٠ ، وأصدر أوامره إلى جيشه بقصف المدن العراقية (وقصفها بالفعل جواً وبراً - المترجم) . وهكذا أصدر صدام أوامره إلى القوات المسلحة العراقية بالهجوم (المباغت - المترجم) على الأراضي الإيرانية ، وهاجمتها بالفعل في اليوم الثاني والعشرين من شهر أيلول سنة ١٩٨٠ ، وكان هدفه المعلن هو أن يستعيد الأراضي التي تنازل عنها للشاه في اتفاقية ١٩٧٥ لكي يوقف الشاه دعمه للأكراد . ولكن كان من الواضح أن هناك وراء ذلك الهدف يكمن تضاد فلسفي شامل عميق ، شبيه في عمقه وشموله بالتضاد الأمريكي - الروسي بين الرأسمالية والشيوعية ؛ ذلك أن صدام كان يؤمن بالدولة العلمانية القومية ، بينما كان الخميني يؤمن بالدولة الأصولية الدينية . وربما كان الدافع الأعمق يعود إلى أن صدام كان ينظر إلى حربه بوصفها امتداداً واستمراراً للصراع بين العرب والفرس ، الذي بدأ في القرن الأول للإسلام . ولكي لا ينسى أحد هذا القياس التاريخي ، فإنه استخدم المعارك القديمة كأسماء رمزية للعمليات العسكرية التي كان يشنها . وأخيراً ، وكما يفعل الاستراتيجيون من ذوي النظر القصير دائماً ، صرح صدام في مقابلة مع صحفي مصري بارز ، أن الحرب ستكون قصيرة وبسيطة ، وأنها ستنتهي في غضون ثلاثة أشهر .

عندما زرت العراق سنة ١٩٨٣ ، كانت الشهور الثلاثة قد امتدت إلى سنوات ثلاث . وكان العراقيون فخورين بجهدهم الحربي ، ورتبوا جولة في الجبهة . وما شاهدته كان بالتأكيد مجموعة من أغرب ميادين القتال في تاريخ الحروب . وركبت سيارة مرسيدس بينز مكيفة بصحبة سفير عراقي سابق ومسؤول كبير في حزب البعث . وسرنا على طريق عريض للمرور السريع المزدوج ذهاباً وإياباً حتى أوشكنا أن نصل إلى الخطوط الأمامية قبل أن ننتقل إلى سيارة جيب . أميال من مصائد الدبابات مصفوفة في الصحراء ضامنة الحماية ضد الدروع الفارسية التي لا وجود لها ، وطوابير متعاقبة من حاملات الجنود المدرعة الروسية من أحدث طراز ، ودبابات متخندقة جزئياً تحميها بطاريات أرض - جو ، وكان من المفترض أن يثير ذلك إعجابي ، وكان كذلك بالفعل . ولكن ما استوقف نظري أنه حتى مخبأ الملازم الذي يقود سرية من الجنود على خط المواجهة كان مكيفاً ومجهزاً بتلفزيون . (وعندما زرته ، كان مستغرقاً في مشاهدة تمثيلية مصرية) . ومن خلال المناظير الميدانية ، راقبت الجنود الإيرانيين على مبعدة كيلومترين الحرام يغسلون ملابسهم . كانت الحرب قد استقرت على نمط من الرتابة اليومية في الحياة .

في البداية ، كانت الحملة تسير جيداً ، ولكن أصبح من الواضح بسرعة أن الإيرانيين ليسوا مستعدين للاعتراف بالهزيمة أو للتفاوض . وعاد إلى الخدمة في الجيش حتى الضباط الذين كانوا قد نالهم التطهير ، وبعضهم عاد إلى الخدمة مباشرة من السجن . والجنود الإيرانيون ، مثل أولئك الذين قاتلوا مع الشاه إسماعيل (الصفوي - المترجم) ضد السلطان سليم (العثماني - المترجم) ، ذهبوا إلى المعركة بوصفهم استشهاديين - المرادفين الإسلاميين للكاميكازيين (الطيارين الانتحاريين - المترجم) اليابانيين - معلنين إيمانهم في سيرهم إلى ملاقاة الموت الأكيد . وأعقب ذلك نوع من المأزق الناشئ من التعادل استمر إلى وقت زيارتي . ومن ثم أخذ الإيرانيون زمام المبادرة وتحولوا من الدفاع إلى الهجوم . وتزايدت الخسائر العراقية في الأرواح ، حتى وصلت ربما في نهاية الحرب إلى أكثر بكثير من مائة ألف قتيل ، وأكثر من ضعف ذلك العدد من الجرحى ، بالإضافة إلى مئات الآلاف من الأسرى . وكان يبدو لفترة من الوقت أن الجيش الإيراني يحتمل أن يخترق الدفاعات العراقية . والأسوأ من ذلك ، أن عائدات النفط العراقي قد هبطت عمودياً بعد أن دمر الإيرانيون المنشآت النفطية في ميناء الفاو العراقي ، وبعد أن قام السوريون ، الذين تشاجر معهم العراقيون ، بقطع تدفق النفط في الأنابيب الممدودة إلى البحر الأبيض المتوسط .

وبينما طال القتال وامتد ، وأخذت حظوظ العراقيين تتضاءل وتنكمش ، حدثت ثورة غير عادية في بغداد في حزيران ١٩٨٢[1] . أعضاء ينتمون إلى مجموعات كان صدام قد أبقاها بعيدة الواحدة عن الأخرى ، عناصر كان صدام يعتقد أنهم من أوفى الأوفياء له- مسؤولون كبار في حزب البعث ، وضباط من الجيش وحتى أقرباء من أقرب الأقربين له- اجتمعوا وراء ظهره ومن غير علمه لكي يضعوا مسودة عرض إلى إيران من شأنها أن تنهي الحرب ، ولكن رفض الخميني لوقف إطلاق النار ، أنقذ

---

(١) كنت حينذاك في تفرغ علمي أستاذاً زائراً في جامعة كاليفورنيا في لوس انجيليس (معهد غوستاف فون غرونباوم للدراسات العربية والإسلامية والشرقية) . وألقيت محاضرة عن تطورات الوضع في المنطقة في مؤسسة (راند) للدراسات والأبحاث بضاحية سانتا مونيكا (وأخرى مرة ثانية سنة ١٩٨٥) . وكان رئيس الجلسة في المرتين فرانسيس فوكوياما صاحب كتاب (نهاية التاريخ) الذي انقلب مؤخراً على المحافظين الجدد ، وانتقد حربهم على العراق ، بوصفها الحرب الخطأ في الزمان الخطأ والمكان الخطأ . والله أعلم - المترجم .

صدام . قرار الخميني أعطى صدام الفرصة لكي يسدد ضربة جوابية على المترددين من أتباعه . وقيل إنه شخصياً قتل عضواً من تلك المجموعة كان وزيراً في حكومته . وكان مرشح تلك المجموعة للعودة إلى تولي رئاسة الجمهورية هو أحمد حسن البكر ، الرئيس السابق الذي كان صدام يعامله معاملة الأبناء للآباء ، الذي توفي في تلك الآونة في ظروف مشبوهة للآخرين ومريحة لصدام . وباشر صدام على الفور عملية إعادة تنظيم مؤسسات الدولة وتشكيلات الحزب ، وأرغم الجميع على إعادة تأكيد التزامهم بسياسته . العراق سيواصل القتال ؛ لقد عاد إلى تقاليد السياسة «الوطنية» . وبتخويف منتقديه ومنافسيه المحتملين أو التخلص منهم ، وبفرض وحدة جديدة ، استطاع صدام أن يبقى ، ولكن ما أنقذه في الحقيقة كان العون الأمريكي .

جاء العون الأمريكي في عدة أشكال . خشيت الولايات المتحدة أن يخترق الإيرانيون الدفاعات العراقية ، فبدأت تزود العراقيين بصور التقطتها الأقمار الصناعية تبين تفاصيل توزيع القوات المسلحة الإيرانية وانتشارها . هذه الصور الدقيقة التي وصلت في الوقت المناسب ، أتاحت للجيش العراقي أن يتخذ التدابير المضادة الناجعة التي أدت إلى حدوث عشرات الآلاف من الإصابات في صفوف الجيش الإيراني ، وقلبت مجرى الحرب رأساً على عقب . كما بدأت الولايات المتحدة بتزويد العراق بالأسلحة والمواد الغذائية ، وأقرضته أو منحته ما يحتاجه من الأموال . ولولا تلك المعونات لكان الاقتصاد العراقي قد تعرض إلى الانهيار . ولعل التحركات السياسية والدبلوماسية لا تقل أهمية عن كل ذلك . ومن المحتمل أنها كانت أكثر أهمية بالنسبة إلى صدام شخصياً . طار دونالد رامسفيلد إلى بغداد في كانون الأول سنة ١٩٨٣ كمبعوث رئاسي ، وسيصبح فيما بعد وزيراً للدفاع ، لكي يبين وقوف الولايات المتحدة إلى جانب صدام والقضية العراقية . وبعد شهر واحد ، رفعت الولايات المتحدة اسم العراق من «القائمة الإرهابية» وأضافت اسم إيران . وسرعان ما بدأت الولايات المتحدة بتطبيق سياسة عرفت بـ «عملية الوفي» لمنع الدول الحليفة من بيع أو تسليم أسلحة إلى إيران . وأخيراً ، أخذت البحرية الأمريكية مواقعها في الخليج الفارسي . وقد فعلت ذلك في الظاهر لحماية الناقلات التي كانت تنقل النفط من الكويت . ولكن ما عرف بـ «حرب الناقلات» ذهب إلى أبعد بكثير مما كان يتطلبه تحقيق ذلك الهدف ، وقامت البحرية الأمريكية بتدمير البحرية الإيرانية .

قدمت الحكومة الأمريكية إلى صدام عوناً عسكرياً ودعماً سيكولوجياً (نفسياً)

أدى حرفياً إلى إنقاذ نظامه ، ولكن تلك الحقيقة أصبح ينظر إليها في وقت لاحق بوصفها محرجة عندما بدأت أمريكا تتحدث عن «تغيير النظام» . وقد أصبحت تلك الحقيقة محرجة بوجه خاص للولايات المتحدة ، لأن سياستها الجديدة دخلت إلى حيز التنفيذ بعد أن أصبح معروفاً أن صدام قد شرع يباشر برنامجاً لتطوير أسلحة نووية – قامت القوة الجوية الإسرائيلية بقصف وتدمير مفاعله النووي (اوزيريس) – وبعد أن استخدم أسلحة كيماوية محرمة دولياً . وفي الواقع ، سمحت له الحكومة الأمريكية أن يشتري زروع الجراثيم والفطريات ومواد أخرى ضرورية لصنع الأسلحة البيولوجية والكيماوية . السبب الذي دفع إدارة ريغان إلى دعم صدام يحتاج إلى الفهم . أولاً ، علاقات أمريكا مع إيران تدهورت منذ أن أسر الأمريكيون كرهائن في السفارة الأمريكية بطهران في تشرين الثاني ١٩٧٩ . والصور التي تمثلهم ورؤوسهم في أكياس وأيديهم مقيدة ، بالإضافة إلى الفشل الذريع الذي أصاب عملية محاولة إنقاذهم بعد خمسة شهور في نيسان ١٩٨٠ ، جعلت السياسة المعادية لإيران تكتسب شعبية واسعة لدى الرأي العام الأمريكي . إلاّ أن الرهائن أطلق سراحهم في ١٩٨١ ، ولكن السبب الحقيقي الذي دفع أمريكا إلى دعم صدام كان أقل عاطفية . كان السبب الحقيقي هو خوف أمريكا من أن إيران إذا هزمت العراق فسيؤدي ذلك إلى حالة من «عدم الاستقرار» في كامل منطقة الخليج المنتجة للنفط ، بتحريض «إخوانهم» الشيعة على الثورة . ومثل هذا السيناريو «للحالة الأسوأ» سيجعل إيران قادرة على احتكار شامل لنفط الشرق الأوسط ؛ فحتى نفط المملكة العربية السعودية يتم إنتاجه في المنطقة الشرقية ذات الغالبية الشيعية . وبناء على ذلك ، كان المسؤولون في إدارة ريغان يعتقدون أن السياسة الأمريكية ينبغي «أن تمارس لعبة التوازنات» بين العراقيين والإيرانيين . وبما أن إيران كان لديها عدد أكبر من النفوس ، فإن العراق كان يحتاج إلى كمية أكثر من الأسلحة . وأمريكا كانت قد تولت تدريب الإيرانيين (في عهد الشاه – المترجم) ، وبوسعها الآن أن تزود العراقيين بما يحتاجونه . وكما أخبرني وزير خارجية العراق حينذاك طارق عزيز بقوله «أنتم لا تريدون للحرب أن تنتهي ، وتريدون للعراق أن يستمر نزيفه ، وأن لا تدعوا أياً من الطرفين يخرج خاسراً» .

كان ما حدث بالفعل أنه بعد فشل الإيرانيين في حملتهم للاستيلاء على البصرة ، استطاع العراقيون على نحو تدريجي وبجهد مرير أن يسترجعوا زمام المبادرة ، وأن يجعلوا كفة الميزان تميل لصالحهم ، وأوجدوا منافذ جديدة لنفطهم ، خطوط أنابيب

عبر تركيا والمملكة العربية السعودية ، وتمكنوا من زيادة صادرات النفط . واقترضوا حوالي ١٠٠ بليون دولار من المملكة العربية السعودية والكويت ودول الخليج ومصادر أخرى . والاتحاد السوفيتي ، الذي توقف عن توريد الأسلحة إلى العراق في بداية الحرب ، استأنف توريدها على نطاق واسع ، وباستخدام أفضل للدروع (التي كان معظمها من تجهيز سوفيتي) ، والطائرات (التي كانت جزئياً من تجهيز فرنسي[1]) ، والمعلومات الاستخبارية (التي كانت أمريكية في أغلب الأحيان) ، استطاع العراقيون أن ينهكوا الإيرانيين . ومنذ ١٩٨٤ فصاعداً ، استطاعت أسلحتهم الكيماوية أن ترعب الجنود الإيرانيين ، بينما استطاعت ضرباتهم الصاروخية أن تضعف معنويات المدنيين الإيرانيين . ومع ظهور النتائج العملية المحسوسة للهجمات الأمريكية على الأسطول الإيراني في الخليج ، والحظر على مبيعات الأسلحة إلى إيران ، فبدأت عائداتها تنضب ومعداتها تتعطل ، أخذت إيران تتمايل وتترنح . وتوقفت الحرب بموجب قرار من مجلس الأمن في منظمة الأمم المتحدة في تموز ١٩٨٨ يقضي بوقف إطلاق النار . وخرج الطرفان من الحرب وقد هزما معاً . (احتفل العراق بالانتصار ، وصدر التصريح الإيراني الشهير : لقد اضطررنا إلى تجرع كأس السم - المترجم) .

في هذا الوقت ، كانت حظوظ العراق في الحرب ضد إيران قد تحسنت ، وكانت «المشكلة» الكردية قد خفتت . ومنذ ١٩٨٤ ، وافق العراقيون على تخويل الأتراك حق القيام بعمليات عسكرية ضد المتمردين الأكراد ، بما في ذلك ملاحقتهم داخل

---

(١) أرسلت فرنسا إلى العراق عن طريق الاستئجار طائرات قاصفة استراتيجية ثقيلة بعيدة المدى من طراز (السوبر ايتاندار) ، بموافقة ضمنية أمريكية بطبيعة الحال . وتدرب الطيارون العراقيون على قيادتها في القواعد الجوية الفرنسية . وأخذت هذه الطائرات تقوم بغارات جوية طالت أعمق أعماق العمق الإيراني في مضيق هرمز وبحر قزوين . وهكذا استطاع العراق أن يتملك ذراعاً طويلة يمكنها أن تصل إلى أبعد الأهداف الإيرانية . وأصبح العراق يستخدم قوته الجوية استخداماً استراتيجياً بعد أن كان يستخدمها استخداماً تكتيكياً فقط في مساندة العمليات الميدانية والقطعات البرية . وامتلك السيطرة المطلقة على الأجواء في العراق وإيران معاً . ومن المعلوم أن الضربات الجوية على الخطوط الأمامية تؤدي إلى انهيار معنويات الحشود العسكرية المقاتلة (الاستخدام التكتيكي) . ولكن الغارات الجوية على الأهداف البعيدة في الأعماق الجغرافية الغائرة تؤدي إلى انهيار معنويات القيادات السياسية والعسكرية واختلال توازنها (الاستخدام الاستراتيجي) . - المترجم .

الأراضي العراقية . ومنذ ذلك الحين فصاعداً ، قامت القوة الجوية التركية بضربات على أهداف كردية داخل العراق . وحوصر الأكراد بين تركيا والعراق ، وتلقوا الضربات بالتناوب سنة بعد أخرى من الطرفين اللذين يخافونهما ويكرهونهما معاً . وعندئذٍ جاء الدور على العراق . ومع تحول مجرى الحرب ضد إيران لصالح العراق في الجنوب ، تشجع صدام على إعادة الاشتباك في الشمال ضد الأكراد . وكان الأكراد قد استفادوا من نكسات العراقيين في المراحل الأولى من الحرب لكي يجددوا صراعهم ، وحصلوا على التشجيع والعون من الحكومة الإيرانية ومن الإسرائيليين .

استطاع الجناحان الكرديان ، أنصار عشيرة البارزاني ، الذين يعرفون باسم الحزب الديمقراطي الكردستاني ، وأنصار جلال الطالباني ، الذين يعرفون باسم الاتحاد الوطني الكردستاني ، أن يقيموا مؤقتاً نوعاً تقريبياً من أنواع الجبهة المتحدة . ومع مجيء ربيع سنة ١٩٨٧ ، كانوا يسيطرون على كل شيء خارج المدن الكبرى . وكان هذا التهديد يبدو في نظر نظام حكم البعث خطيراً إلى الحد الذي قرر فيه أن يمحو كردستان تماماً . وعلى الرغم من أن الحملات السابقة كانت وحشية ، فإن الحملة الجديدة ، التي دعيت بعملية «الأنفال» تيمناً بسورة الأنفال في القرآن الكريم ، التي تتضمن آية تهدد «الأشرار» بسوء العذاب لأن الله تعالى شديد العقاب «ذلكم فذوقوه وإن للكافرين عذاب النار» ، ستكون بربرية . وليس فقط الجنود العراقيون بل أيضاً أفراد المليشيات الكردية الذين كانوا يحملون في قلوبهم عداوات وتظلمات ضد أكراد آخرين ، أطلقوا العنان للثارات العشائرية ، ومارسوا أعمال السلب والنهب والاغتصاب والقتل على نطاق واسع لا مثيل له منذ الغزوات المغولية .

كانت الفوضى التي تلت ذلك مغرية للإيرانيين إلى الحد الذي لم يتمكنوا فيه أن يقاوموا الإغراء . ونظروا إلى يأس الأكراد وغضبهم نظرتهم إلى فرصة سانحة للتدخل ، فتقدموا إلى داخل كردستان ، مما حفز العراقيين إلى عنف جديد . وفي آذار ١٩٨٨ ، شنوا هجوماً مضاداً ، وكانت مدينة حلبجة هدفاً رئيسياً . وكانت القوات الإيرانية والكردية قد استولت مؤخراً على تلك المدينة . وأسقط العراقيون منشورات على تلك المنطقة يحذرون فيها السكان بأنهم ينوون استخدام الأسلحة الكيماوية . واستخدموا تلك الأسلحة بالفعل ، وقتلوا حوالي أربعة آلاف شخص من الرجال والنساء والأطفال . وكانت تلك حادثة بشعة ، وأدينت بحق . ولكنها لم تكن سوى واقعة مثيرة من وقائع مروعة عديدة ، ومن المحتمل أن عدد الضحايا بالتحديد الدقيق

لن يعرف على الإطلاق ، ولكن من المؤكد أنه يصل إلى عشرات الآلاف ، بينما أجبر ما يزيد على المليون إنسان على النزوح من مساكنهم .

لا الحرب في كردستان ، ولا الحرب مع إيران ، حلت أي شيء . فالأولى دمرت مجتمعاً بالكامل ، ولكنها زرعت أحقاداً في قلوب أصحابها لا تهدأ ولا تخمد . والثانية قضت على جيل كامل من الإيرانيين . وهاتان الحربان معاً عطلتا برنامج الإعمار العراقي الواعد الذي كان يشكل الجانب المضيء من حكم صدام ، ودفعا إلى هجرة أكثر من مليون من الرجال والنساء من ذوي الكفاءات الذين يتوقف عليهم مستقبل العراق . ولا يبدو أن أياً من هاتين الكارثتين أحدث أي تأثير في صدام . وكان شاغله الوحيد كيف يستطيع أن يبقى في السلطة . وذلك ، كما أصبح الآن واضحاً ، كان الهاجس المركزي في حياته . ولكي يبقى في السلطة ، كان على استعداد لأن يدفع أي ثمن ، بما في ذلك تهجير أو قتل الآلاف من الأكراد والشيعة ، أو تطهير حزبه وجيشه ، أو نفي أو سجن أو قتل حتى أقرب الأقربين من مريديه وأقربائه . وكان قد قرر أن البقاء في السلطة يتوقف إلى حد بعيد على مقدار المال المتوافر تحت تصرفه . والمئات من الآلاف من الجنود الذين تسرحوا بعد وقف إطلاق النار مع إيران كانوا يريدون الحصول على وظائف . والنخبة المدللة من أقرباء صدام وأصدقائه ومؤيديه كانوا يديرون مشاريعَ عامة في المرافق والخدمات يمكنهم جني الأرباح من تنفيذها ، والسكان كلهم كانوا متعطشين للبضائع والسلع الاستهلاكية التي أصبحوا يتوقعونها ، وعبارات التذمر والاستياء أصبحت تسمع في كل مكان . ما دعاه المؤرخ العربي العظيم إبن خلدون بـ «صبغة الملوكية» هل أزيل من راية صدام؟ أو ، كما أفاد كيبلينغ[1] في عبارة أقل شاعرية ، هل «أفلتت الفريسة من الذئب؟» . هل فقد صدام قدرته على ممارسة الحكم؟ ونحن نعلم أن هذا الاعتقاد قد ساور بعض العراقيين ؛ لأن الأنباء أفادت بوقوع محاولتين على الأقل لاغتياله . وربما كان هناك عدد من المحاولات أكثر من ذلك بكثير ؛ لأن صدام سدد ضربات عنيفة مفاجئة ليس فقط ضد المتآمرين المعروفين بل أيضاً ضد كثيرين آخرين . ولكنه كان يدرك أن القمع وحده لا يجدي نفعاً ، وكان يحتاج إلى العودة إلى السياسة التي أثبتت جدواها قبل

---

(١) شاعر انكليزي بارز ، تميز بنزعته القومية والإمبراطورية في القرن التاسع عشر . وإليه تنسب العبارة (الشرق شرق ، والغرب غرب ، ولن يلتقيا) – المترجم .

الحرب مع إيران، سياسة «ملء بطون العراقيين بالطعام». وكيفية تنفيذ هذه السياسة أصبحت بالنسبة إليه في ذلك الحين مسألة بقاء، بقاؤه هو والحصول على المال كان هدفه الأكثر إلحاحاً.

هذا الهدف كان يبدو بأنه يتباعد ويتقهقر في سنة ١٩٩١. في شهر كانون الثاني باع العراق نفطه بسعر ٢١ دولاراً للبرميل الواحد. ولكنه بعد ستة أشهر لم يستطع أن يبيع بأكثر من ١١ دولاراً فقط للبرميل الواحد. وكانت الحرب قد انتهت، ولم يعد ممكناً الحصول على قروض من الدول العربية الأخرى. وكانت الكويت تطالب بتسديد قروضها. كان صدام في وضع يائس وحرج، وكان يبدو أن بقاءه بالذات قد أصبح على المحك، وفي البلد المجاور مباشرة كان يوجد البنك. في مثل هذه الظروف، اتخذ صدام قراراً كارثياً كان يقوم على حسابات خاطئة إلى أبعد الحدود، مما دفع بعض المراقبين إلى الاعتقاد بأنه كان ضحية خدعة أو حيلة هدفها جره جراً إلى الهزيمة.

ليس من الضروري أن نتفق مع صدام في الرأي، ولكننا إذا لم نأخذ رأيه بنظر الاعتبار وندخله في الحسبان، وندرك السياق العام والوضع الحقيقي اللذين اتخذ فيهما قراراته، فإننا لا يمكن أن نفهم ما فعله العراق. وأعتقد أن ما يلي في أدناه يمثل طبيعة موقفه وطريقة تفكيره.

مفتاح بقائه كان في أيدي الكويتيين، وكان الكويتيون يتصرفون ليس بوصفهم «أشقاء عربًا» بل بوصفهم مرابين جشعين. وليس الكويتيون سوى عراقيين تخلوا عن الولاء لوطنهم الأم، وانحرفوا عن سواء السبيل، بفعل غواية الإمبريالية البريطانية. وتعاونوا مع أسيادهم البريطانيين، وحصلوا على ثروات طائلة من بيع ما كان في الحقيقة نفطاً عراقياً. وعلى الرغم من ذلك، قاتل العراق دفاعاً عنهم، وحماهم من الإيرانيين. والآن أصبحوا ليس فقط يرفضون أن يساعدوا العراق، بل إنهم يقومون بنشاط ما ويمكن أن يكون حرباً اقتصادية ضد العراق. الكويت والإمارات العربية أصبح إنتاجهما من النفط يزيد بنحو مليوني برميل على اليوم عن الحصة التي قررتها الأوبك، مما أدى إلى هبوط وانخفاض الأسعار. واتهم الكويت بالذهاب في الأذى إلى ما هو أبعد من ذلك، حين أخذت تسرق النفط من العراق بالتنقيب المائل في حقل الرميلة الذي يقع على الحدود المشتركة بين البلدين. وكانت تحاول أن تمنع العراق من تطوير منفذ لإنتاجه من النفط على الخليج. هذه البقية

الباقية من الإمبريالية حان أوان تصفيتها وإزالتها . وعلى كل حال ، حتى الملوك كانوا قد طالبوا «بعودة» الكويت إلى الوطن الأم . وتلك كانت أيضاً السياسة التي انتهجها عبد الكريم قاسم والأخوان عارف . ولو أجري استفتاء للرأي العام العراقي في ذلك الحين لكان معظم العراقيين سيوافقون .

لم تكن لدى صدام وسيلة يختبر بها تقييمه ؛ فهو قد حرم الجمهور من أي صوت في الحكومة ، وحتى أقرب الأقربين من أعوانه كانوا يرتعبون من إبداء أي رأي قد يخالف رأيه . ولم تكن لديه أية وكالة مثل مجلس التخطيط السياسي أو المجلس الوطني للاستخبارات في حكومة الولايات المتحدة . وعلى الرغم من كونه قارئاً نهماً ، إلاّ أنه كان رجلاً محدود التعليم ، لا يمتلك إلاّ معرفة قليلة في الشؤون العالمية . والإدارة الفعالة للحكم كانت في نظره لا تقوم على المعلومات والتحليلات ، بل على التلاعب البارع بالأشخاص والاستحواذ على الأسلحة . وما كان يمتلكه من معلومات تفصيلية أكدت له صواب نهجه وموقفه في هذا الصدد . وكان قد استفاد من كون المخابرات الأمريكية قد استخدمت الكويت بوصفها قاعدة للعمليات التي قامت بها ضد عبد الكريم قاسم . أفلا يمكن أن تستخدمها بطريقة مماثلة ضده؟ وكان سيكون ساذجاً لو لم يفكر في هذا الاحتمال ، ولن يتهمه أحد بأنه كان ساذجاً .

كان يعتقد أن الأسلحة بالتحديد هي التي جعلت الدول تكون «عظمى» ، وأنها هي التي حققت «الأمن» للحكومات . ومنذ السبعينات خصص شطراً كبيراً من مدخولات العراق للحصول بالأخص على «الأوراق الرابحة»- أسلحة الدمار الشامل . وتبين الوثائق انه توصل إلى نتيجة مفادها أن العراق لن يعامل أبداً معاملة قوة رئيسية ، أو حتى أن يحقق الأمن لنفسه ، إلاّ إذا امتلك ترسانة بالمستوى العالمي .

ولأنه بطبيعته كان رجلاً متكتماً ، استولى على السلطة بالتآمر ، كان من السهل عليه أن يقبل ما ثبت أنه من أبرز وأهم خصائص التوازن العالمي للقوة في عصرنا . وتلك الحقيقة هي أن الدول النووية القائمة الآن بالفعل لا تريد أن ينضم إلى «ناديها» أي أعضاء جدد . لذلك كان على الدول التي تسعى للانضمام إلى ذلك النادي أن تمر بفترة تتعرض فيها إلى خطر الهجوم ، وتواجه فيها معارضة أكيدة . وإذا كانت هناك أية شكوك ساورت صدام في هذا الصدد ، فسرعان ما تعلم ذلك الدرس من إسرائيل .

إسرائيل ، التي تمتلك ترسانة كاملة من الأسلحة النووية والكيماوية

والبيولوجية ، ولذلك كانت عضواً في «النادي» من الناحية الواقعية والعملية ، وإن لم تعلن ذلك من الناحية الرسمية ، قامت بسلسلة من الضربات المثيرة على البرنامج النووي العراقي ، بما في ذلك اغتيال العالم النووي[1] المصري الأصل الكندي الجنسية ، وتدمير المعدات والأجهزة التي ابتاعها العراق من دول أوروبية . وبعد ذلك ، وبالتحديد في السابع من حزيران سنة ١٩٨١ ، قام الإسرائيليون بضربة جوية على المركز النووي الذي يقع في ضاحية من ضواحي بغداد . وفي حين أن هذه الأعمال لم تعطل إلاّ أجزاء من برنامج الأسلحة العراقي ، إلاّ أنها أقنعت صدام أنه ينبغي أن يتحرك بسرعة وبأقصى درجة ممكنة من السرية .

من وجهة النظر الغربية ، كانت هذه السياسة تبدو ليس فقط بأنها خطرة بل حتى أيضاً بأنها غير أخلاقية . ولكن نظرة متزنة إلى التاريخ القريب تبين أنها كانت شائعة ، وكانت أمريكا هي السباقة في هذا المضمار . وتابعها الاتحاد السوفيتي في هذا النهج بسرية فائقة وسرعة قصوى . وتلتهما في الاستحواذ على الأسلحة النووية ، الواحدة بعد الأخرى ، كل من فرنسا وإسرائيل والصين والهند والباكستان . وانضمت إليهم في وقت لاحق كل من كوريا الشمالية وإيران في البرامج النووية . وكل حكومة كانت تدرك أن فترة سعيها إلى امتلاك مثل تلك الأسلحة هي فترة تتميز بخطورة خاصة ، ولكنها ما إن تكون قد امتلكت بالفعل حتى مخزوناً محدوداً من تلك الأسلحة ، فإن الأعضاء الآخرين في «النادي» سيذعنون ويعاملونها بوصفها عضواً زميلاً . وهكذا ، تماماً كما حصلت إسرائيل على الورقة الرابحة النهائية ضد العرب ، وتماماً كما حصلت الهند والباكستان عليها ، إحداهما ضد الأخرى ، كذلك شعر صدام أنه ملزم بالسعي للحصول عليها . ويبدو أنه كان يعتقد ، ربما عن حق ، أنه إذا حصل على أسلحة نووية ، فإنه سيكون في مأمن من التعرض إلى هجوم . وكثير من المراقبين كانوا قد صرحوا في حينه أن الخطأ الأكبر في حسابات صدام حول الكويت كانت في «التوقيت» وليس في «الفعل» ذاته . ولو كان قد انتظر إلى الحين الذي يكون فيه قد امتلك أسلحة نووية ، فإن حكومة الولايات المتحدة ربما كانت ستعتبر التدخل عملاً محفوفاً بالمخاطر التي لا تحتمل المجازفة ، كما فعلت على نحو واضح مع كوريا الشمالية . .

---

(١) الدكتور يحيى المشد الذي اغتيل في فندقه بباريس – المترجم .

على كل حال، ربما كان صدام يعتقد، بعد أن استولى على الكويت، أن الدول الأخرى ستذعن لما حدث كما فعلت في أمكنة أخرى. وأخبرني أشخاص كثيرون في العراق أن هذا هو ما حدث عندما قامت الصين بغزو التبت، وعندما استولت اندونيسيا على تيمور الشرقية، وعندما قامت الهند بضم غوا. وأضافوا أن غوا بالأخص كانت مثالاً أكثر قرباً وشبهاً. وقالوا إن غوا هي جزء لا يتجزأ من الهند «بكل مافي العبارة من معنى»، وإن الهند لم تكن موجودة عندما أنشأت البرتغال غوا قبل أربعة قرون، تماماً كما أن العراق لم يكن موجوداً عندما أنشأت بريطانيا الكويت - وأن رئيس الوزراء الهندي جواهر لال نهرو هاجمها بحوالي ثلاثين ألف جندي وضمها إلى الهند في كانون الأول سنة ١٩٦١. وقاتل أهالي غوا قتالاً عنيفاً ضد الغزاة الهنود، ولكن ما من دولة غربية اعترضت على قيام نهرو بغزو غوا. وكما أعلمني عراقيون بمرارة، فإن الفرق هو أن غوا لم يكن لديها نفط.

كان صدام رجلاً تقوده سياسة القوة، لذلك كان مقتنعاً أن الأخلاق لا تعني شيئاً للآخرين. وما عرفه عن السياسات البريطانية والأمريكية في الماضي أكد تلك القناعة لديه. والدولتان كان يقودهما ما تعتقدان أنه يمثل أفضل مصالحهما. ومنذ سنة ١٩٨٢ حتى سنة ١٩٨٧، أثناء الحرب العراقية - الإيرانية، واصلت إدارة ريغان إمداد العراق بالأسلحة والأموال والمعلومات الاستخبارية (وأخفت عن الكونغرس ما كانت تفعله بطريقة غير قانونية في عملية دعيت «عراق - غيت». ومع ذلك، كانت تلك الإدارة مستعدة (في قضية إيران - الكونترا) لتزويد إيران بالصواريخ لكي تهزم قواته. وكانت بريطانيا أيضاً تعمل على تسهيل مبيعات الأسلحة إلى العراق وإيران معاً. وفي كردستان كانت بريطانيا وأمريكا معاً تلعبان على الطرفين. كما أنهما حاولتا اغتيال زعماء مثل كاسترو، وناصر، ولومومبا، والقذافي عندما كانت أغراضهما تقتضي ذلك. كانت هذه حقاً لعبة يفهمها ويتقنها.

وما لم يفهمه، وإن كانت هناك دلائل تشير إلى أنه قد حاول، كان قوة الرأي العام في الغرب. وسياساته الوحشية، وبالأخص استخدامه الغازات السامة ضد الأكراد، كانت مع مجيء سنة ١٩٩٠ قد جعلته مكروهاً على نطاق واسع. وهذا التحول في الرأي العام أتاح لجماعة سميت «المحافظون الجدد» أن تكسب التأييد في الولايات المتحدة. وكان دافعهم ليس المحافظة على «بقاء الكويت» بل المحافظة على «أمن إسرائيل». وكانت فكرتهم الأساسية، التي تبنتها في وقت لاحق الحكومات

الإسرائيلية اليمينية المتعاقبة بقيادة بنيامين نتنياهو وأرييل شارون ، تقوم على مفهوم مفاده أن الفلسطينيين لن يوقفوا انتفاضتهم من أجل الاستقلال إلاّ إذا شاهدوا بعيونهم أن الدولتين العربيتين الرئيسيتين ، سوريا والعراق ، قد هزمتا . وكلما اندفع صدام أكثر في مناصرة قضية الفلسطينيين ، أصبح أخطر على إسرائيل في نظر المحافظين الجدد . وبحلول عام ١٩٩٠ ، كانت الصحافة الأمريكية والإذاعة الدعائية التابعة للحكومة الأمريكية ، صوت أمريكا ، تتحدث بعبارات واضحة وصريحة عن الإطاحة به .

هكذا ، في تلك الخلطة الخطيرة من اليأس ، والجهل ، والغضب ، والجشع ، تحرك صدام نحو غزوه للكويت . المسار الذي اتخذته الأحداث أثار حفيظة الملك حسين ملك الأردن والرئيس المصري حسني مبارك ، فتدخلا للقيام بوساطة . واعتقدا معاً أنهما قد جعلا المنطقة تتفادى أزمة ، ولكنهما لم ينجحا في ذلك . كان صدام قد أرسل أحد مستشاريه إلى الخليج لكي يرى فيما إذا كانت التماساته للمساعدة المالية والتهديدات بتغيير السياسة النفطية قد أحدثت تبدلاً حقيقياً في المواقف . وعاد هذا المبعوث في الأسبوع الأول من شهر تموز لكي يخبره بأن الكويت والإمارات العربية المتحدة لا يحتمل أن يلتزما بحصصهما من إنتاج النفط التي قررتها منظمة الأوبك ، ولذلك فإن سعر النفط سيبقى على الأرجح منخفضاً . وتأكد هذا التقرير بعد بضعة أيام عندما تراجعت الكويت عن صفقة عقدتها بوساطة سعودية للالتزام بالحصة المقررة . عند ذاك قام العراق بتحريك قواته إلى الحدود الكويتية .

كما هي عادته ، احتفظ صدام بخياراته مفتوحة ولم يتخذ قراراً حاسماً . وكان يعلم أن حدوده الشرقية مع إيران قد اصبحت مأمونة منذ أن انتهت الحرب مع إيران ، وأن إيران كانت منهكة . وإلى الشمال ، كانت لديه تفاهمات ضمنية مع الأتراك مقرونة بتعاون عسكري فعال يقوم على سياسة مشتركة معادية للأكراد بين الطرفين . وإلى جهة الغرب ، كان قد اتخذ خطوات من شأنها ترميم علاقاته مع السوريين والأردنيين . ولم يكن في تلك الفترة يشعر بقلق كبير من ناحية السعودية ، كان الأمريكيون هم الذين يقلقونه ويشغلون باله .

في اليوم الذي حرك فيه صدام قواته إلى الحدود الكويتية ، أجاب الناطق الرسمي بوزارة الخارجية الأمريكية عن سؤال حول فيما إذا كانت حكومة الولايات المتحدة قد خططت للدفاع عن الكويت ، بقوله : «ليست لدينا أية اتفاقيات دفاعية مع

الكويت . وليست هناك من جانبنا أية التزامات خاصة دفاعية أو أمنية مع الكويت» .
وللمزيد من التأكد ، استدعى صدام السفيرة الأمريكية في بغداد ، ابريل غلاسبي .
وسألها : ما هو موقف حكومتها من المشكلة العراقية – الكويتية؟ أراد صدام أن يعرف . ومن المحتمل أن تصريحاً واضحاً وقوياً بأن أمريكا ستحمي الكويت كان سيردعه . ولكن بموجب التعليمات الرسمية من واشنطن ، وهي تعليمات مكررة إلى جميع السفارات الأمريكية الأخرى ، أجابت السفيرة بما معناه أن أمريكا لم تتخذ موقفاً من المنازعات الحدودية بين الدول العربية . وهذا التصريح قد نال تأكيداً من مساعد وزير الخارجية أمام الكونغرس بتاريخ ٣١ تموز ١٩٩٠ . أخذ صدام هذه التصريحات بوصفها الضوء الأخضر ، وبدأ يستعد للعمل .

وأصدر أوامره إلى قواته باجتياز الحدود وغزو الكويت في ٢ آب ١٩٩٠ . وبعد أربع وعشرين ساعة كان قد استولى على الكويت . ولكن الهدف الأهم أفلت من قبضة قواته ، وهرب إلى الخارج – الشيخ حاكم البلاد . غير هياب ولا وجل ، أعلن صدام أن الكويت قد «عادت» إلى الوطن الأم ، بوصفها محافظة عراقية . وسرعان ما سيدرك صدام أنه ألقى العراق من المقلاة الإيرانية إلى النار الأمريكية .

الفصل الخامس
العراق الأمريكي

الغزو العراقي للكويت كان فاتحة فترة أُسميها «العراق الأمريكي» ، لأنه منذ ١٩٩٠ وحتى الآن كان الفعل الأمريكي في الأعم الأغلب هو الذي قرر مجريات الأمور وتطورات الأوضاع . وكان تتابع الحوادث الواحدة بعد الأخرى قد جرى بسرعة فائقة بحيث أنها تبدو في معظم الأحيان غير مفهومة أو ضبابية في ضوء ما تبعها في وقت لاحق . وسأسعى هنا إلى إيضاح العلاقات الداخلية بين الوقائع وبيان الصورة النمطية التي نجمت عنها وتولدت منها .

رد الفعل الأمريكي الأولي على غزو العراق للكويت كان متردداً ، وكان ذلك قد نتج عن موضوعتين أساسيتين تحكمتا في السنوات الخمس عشرة من «العراق الأمريكي» . وهاتان الموضوعتان هما : سوء الفهم والتضليل .

كما رأينا ، كانت «الإشارات» التي أرسلت للرئيس العراقي في غضون العام ١٩٩٠ قد شكلت ما اعتبره قبولاً أمريكياً بهجومه على الكويت ، وبدأت تلك الإشارات بسوء الفهم على الأقل . وبينما لا تزال الوثائق المعنية غير متوافرة ، وهي على كل حال قد لا تعبر عن طريقة تفكير المسؤولين الرسميين الأمريكيين ، فإنني أعتقد أنها ستوضح في النهاية أن المسؤولين الرسميين الأمريكيين كانوا يظنون أن صدام لم يكن يريد سوى تسوية النزاع الطويل الأمد حول الحدود العراقية - الكويتية . وكانت الحدود مسألة في غاية الأهمية ، بالأخص في أقصى الجنوب العراقي ، حيث لم يمتلك العراق إلاّ منفذاً واحداً صغيراً فقط على الخليج . وكان العراق قد ذهب بالفعل إلى الحرب مع إيران بسبب النزاع حول ذلك المنفذ جزئياً . وفي سياق مناقشة جرت بيني وبين وزير خارجية العراق في ذلك الوقت ، طارق عزيز ، سنة ١٩٨٣ ، تطرق الحديث إلى مشكلة الخلاف حول الحدود الكويتية . وكانت حجته ، والمسؤولين العراقيين الآخرين ، هي أن طريقة ترسيم الحدود أعاقت

حصول العراق على منفذ على الخليج ، وطرحوا هذا الموضوع في محادثاتهم مع الكويتيين من حين إلى آخر . العراق يحتاج إلى منفذ ، وما أرادوه كان قليلاً في قيمته بالنسبة إلى الكويتيين . ودفع الكويتيين إلى التفاوض كان التفسير الأفضل للتصريحات المتكررة بأن حكومة الولايات المتحدة لا تتدخل في النزاعات الحدودية بين الدول العربية . وإذا لم يستجب الكويتيون ، فمن المحتمل أن إدارة بوش (الأب - المترجم) كانت مستعدة للتسامح مع استيلاء عراقي محدود على قطعة صغيرة من هذه الأرض الجرداء ، وهذا التفسير أكدته السفيرة ابريل غلاسبي في مقابلة صحفية نشرتها جريدة (النيويورك تايمز) بعد الغزو مباشرة . وأفادت أن أحداً من المسؤولين في الحكومة الأمريكية لم يكن يخطر على باله أن العراقيين سيستولون على الكويت «بالكامل» .

إذا كان المسؤولون الأمريكيون قد تفاجأوا بالاستيلاء على الكويت كلها ، فإنهم كانوا تلامذة خائبين وفاشلين في التاريخ والاقتصاد معاً . طوال ثماني سنوات كان العراقيون يعتبرون الكويت بقية باقية من الإرث الإمبريالي ، اقتطعت «بطريقة مصطنعة» مما أصبح يعرف بالعراق فيما بعد ، وهي لهذا السبب جزء لا يتجزأ من العراق من الناحية القانونية الشرعية . ولم يبدأ الكويتيون في الاختلاف مع هذا الرأي إلاّ بعد أن أصبحوا أغنياء بالنفط . وعندما عشت في بغداد في الخمسينيات من القرن الماضي ، قبل أن يصبح تأثير النفط كبيراً وحاسماً ، كانت الكويت في تلك الفترة مجرد قرية صغيرة تعتاش على التجارة وصيد الأسماك ، وليس فيها شوارع معبدة ، ولا كهرباء ، ولا إسالة ماء . وكان سكانها يتطلعون إلى العراق في جميع احتياجاتهم ، وكمالياتهم ، وتعليمهم المدرسي ، ومسراتهم . وقد دعوت شيخها ذات مرة على العشاء ، وكان قد حضر إلى بغداد لكي يشتري خراطيش بندقية الصيد التي لم يجدها في الكويت .

ثم جاء طوفان أموال النفط . وأبرزت التقاليد التجارية الكويتية ، وهي التقاليد نفسها التي كان محمد قد ثار ضدها في مكة . وكان المال معبود الكويت تماماً كما كان معبود مكة في أزمنة قديمة . ودولة - المدينة الصغيرة الكويت - استخدمت أموالها لكي تكسب الأصدقاء بين «الأشقاء» العرب ، تماما كما كانت مكة قد اشترت في حينه ولاء القبائل البدوية ، ولكن الكويت فعلت ذلك على نحو ضخم ونطاق واسع .

أحد رجال الدولة الحقيقيين في الشرق الأوسط ، عبد اللطيف الحمد ، أقام مؤسسة على نمط البنك الدولي ، تدعى صندوق الكويت للتنمية الاقتصادية العربية ، التي ضخت البلايين من الدولارات للدول الآسيوية والأفريقية . وهناك بلايين أخرى منحتها الحكومة الكويتية مباشرة ، وكان العراق إحدى الدول المستفيدة ، ولكن حاجة العراق إلى المال كانت لا نهاية لها بسبب الحرب مع إيران ، وكانت أكثر بكثير مما كانت الكويت مستعدة لدفعه . وعندما انتهت الحرب ، وزال خطر الغزو الإيراني ، لم تعد الكويت في حاجة إلى العراق . وبوصفهم صيارفة ، ألقى الكويتيون نظرة فاحصة على العراق فوجدوه مجازفة سيئة . وهكذا رفضوا تقديم المزيد من القروض وطالبوا بتسديد ما سبق أن اقرضوه . وفي محاولة إقناعهم بفتح جزدانهم ، لجأ صدام أولاً إلى الاستعانة بالأخوة العربية ، ثم تحول إلى المناشدة والالتماس ، وانتقل إلى التهديد ، وأخيراً أقدم على الغزو . وكان لزاماً عليه أن يستولي على الكويت لأنها «المكان الذي توجد فيه الأموال» ، كما أجاب لص أمريكي شهير عندما سئل لماذا يسرق المصارف .

كانت لدى صدام نظرة تقليدية قديمة عن كيفية حفظ الأموال ، وكان يأمل أن يعثر على خزائن مليئة بثروات هائلة . تلك هي الطريقة التي كانت معتادة في حفظ الأموال عندما استباح هولاكوخان بغداد سنة ١٢٥٨ ، وعندما نهب البريطانيون البنغال سنة ١٧٥٨ ، وعندما سلب الفرنسيون ما وصلت إليه أيديهم في الجزائر سنة ١٨٣١ . ومن سوء حظ صدام أن نظام الصيرفة قد تغير واختلف . فالذهب والمجوهرات لم تعد تكدس في الخزينة ، ولكنه عثر بالفعل على حوالي البليونين من الدولارات في البنك المركزي . إلاّ أن الشطر الأعظم من أصول وأرصدة الثروات الكويتية – مئات البلايين من الدولارات – كانت بعيدة عن متناول يده في النظام المالي الدولي . وسرعان ما قامت الولايات المتحدة والدول الأخرى بتجميدها .

في الأمم المتحدة وسواها من المحافل الدولية ، الولايات المتحدة وبريطانيا أدانتا العدوان العراقي ، لم يبد على العراقيين بأنهم قد تأثروا بذلك . ولأن صدام كان من المؤمنين بالسياسة الواقعية ، فإنه افترض أنهم سيعلنون احتجاجات شكلية ، ولكنهم سرعان ما سيعترفون «بالحقائق» . وهذا هو بالضبط ما فعلوه مؤخراً في الهند وأندونيسيا والتيبت . وكان يسخر ، ولسبب وجيه ومعقول لديه ، من تهمة اللا أخلاقية . والقرائن التي بررت سخريته وتوافرت في حوزته كانت مؤثرة ومُقنعة . كان يعرف كل شيء عن «العراق غيت» لأنه كان الطرف المستفيد من الأموال والأسلحة

والمعلومات الاستخبارية الأمريكية ، والدعم الدبلوماسي الذي قدمته الولايات المتحدة ، بل إنه حصل حتى على المواد والمعدات التي يحتاجها صنع الأسلحة الكيماوية والبيولوجية والنووية من أمريكا وبريطانيا[1] اللتين كانتا تعلنان لا أخلاقية امتلاكها أو استخدامها . كما كان يعرف أيضاً كل شيء عن «إيران - غيت» ، عندما لم تتورع أمريكا عن تزويد إيران بأسلحة تستخدمها ضده . ومثل الجميع في الشرق الأوسط ، كان يعرف أن المخابرات الأمريكية CIA والبريطانية MI-6 قد أطاحتا (في انقلاب الجنرال زاهدي - المترجم) بحكومة رئيس الوزراء محمد مصدق المنتخبة ديموقراطياً (لأنه كان قد قام بتأميم النفط الإيراني في خمسينيات القرن الماضي - المترجم) . وبوصفه رجلاً كان ينتمي إلى الحلقة الداخلية ، كان صدام يعلم أن المخابرات الأمريكية قد ساعدت على الأقل في الإطاحة بنظام حكم عبد الكريم قاسم ، وأنها كانت متورطة في حمّام الدم الذي أعقب ذلك . وكان يعلم أن المخابرات الأمريكية والبريطانية والإسرائيلية (الموساد) شجعت على اغتيال سياسيين ، وساعدت على «زعزعة استقرار» حكوماتهم . في «الشارع الخسيس» للسياسة العالمية ، أظهرت الدول الغربية أقل القليل من الاحترام للاعتبارات الأخلاقية والقيم الإنسانية . وعلى هذا النحو ، بالرغم من أن صدام كان قد فوجئ بفورية رد الفعل وشدته وتماثله ، إلاّ أنه استمر طوال شهور في الاعتقاد أن رد الفعل سيبقى كلاماً فقط .

---

(١) هذه معلومات تجاهلتها الصحافة الغربية على الأغلب . ونشرتها الجريدة الألمانية (دي تاكة - بزايتونغ) في عددها الصادر بتاريخ ١٩ كانون الأول ٢٠٠٢ التي كشفت قائمة طويلة بأسماء الشركات المتورطة في هذه القضية ، وشملت هونيويل ، ويونيسيس ، وسبيري ، وروكويل ، وهيوليت - باكارد ، ودوبونت ، وايستمان كوداك ، وبيكتل ، والعديد من الشركات الأوروبية الأخرى . ويمكن الاطلاع على هذه المعلومات في الموقع التالي على الشبكة www.taz.de/pt/200212/19/a0012.mf/text .
ولجنة الصيرفة في مجلس الشيوخ الأمريكي عددت العشرات من العوامل البيولوجية التي شحنت إلى العراق بموجب رخصة من وزارة التجارة ، بما في ذلك سلالات متنوعة من الإنتراكس . انظر الواشنطن بوست في عددها الصادر بتاريخ ٣٠ كانون الأول ٢٠٠٢ . والحكومة الأمريكية زودت العراق أيضاً بالقنابل العنقودية عن طريق شركة تشيلية استخدمتها كواجهة للتغطية - المؤلف .

يبدو أن مالم يحسب صدام حسابه جيداً هو أنه وضع يده في شيئين لا يمكن للدول الكبرى أن تتسامح مع التدخل فيهما ، هما : المال والنفط . وهذان الشيئان ، وليس الاعتبارات الأخلاقية أو القانونية ، هما اللذان جعلا الكويت يختلف عن غوا والتيبت وتيمور الشرقية . وكما أفاد عضو الكونغرس الأمريكي في ذلك الوقت : «لو كانت الكويت تنتج الموز بدلاً من النفط ، لكان من المحتمل أن يقابل اغتصاب صدام بالتسامح» .

قوبل الغزو ذاته بمقاومة قليلة . ولم يكن بوسع الكويت أن تكون نداً للجيش العراقي المتفوق بالكثرة العددية ، والمدرب تدريباً عالياً ، والمتمرس على القتال ، والمسلح تسليحاً ثقيلاً . والكويت لم تكن سوى دولة – مدينة من نمط بابل أو أثينا في الأزمنة القديمة . ولكنهم على الرغم من سرعتهم ، إلاّ أنهم أخفقوا في القبض على الحاكم الذي استطاع أن يطير إلى المملكة العربية السعودية على متن مروحية أمريكية ، حيث استطاع أن يقيم ما يشبه حكومة في المنفى أمكنها أن تمثل تحدياً قانونياً للاحتلال العراقي . في هذا الوقت بدأ العراق يرتبك . فأقام أولاً حكومة كويزلنفية[1] تحت ضابط برتبة صغيرة من ضباط الجيش ، تربطه صلة قرابة بالعائلة الحاكمة . ولكن هذه الحكومة لم تمكث في الوجود مدة كافية لكي تكتسب اسماً . وقرر صدام بعد ذلك أن يقتطع الشريط الشمالي الذي كان موضعاً للنزاع منذ مدة طويلة ، وضمه إلى محافظة البصرة . وأعلن البقية الباقية من الكويت جزءاً لا يتجزأ من العراق بوصفها المحافظة التاسعة عشرة من البلاد .

بسرعة غير مسبوقة ، تبددت المفاجأة التي اجتاحت الغرب . وفي مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة ، مررت الولايات المتحدة القرار رقم ٦٦٠ بموافقة ١٤ صوتاً على صفر ، وكان القرار يقضي بالانسحاب العراقي الفوري . والأهم حتى من كل ذلك ، أن الخصمين القديمين ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، أصدرا بياناً مشتركاً يشجبان فيه الغزو العراقي . ومن المحتمل أن صدام توقع هذه الخطوات وأسقطها من الحساب . ولكن ما هو أهم وأخطر كان قرار مجلس الأمن المرقم ٦٦١ ، الذي صدر بعد أيام قليلة ، والذي ينص على مقاطعة تجارة العراق عبر البحار .

---

(١) كويزلينغ : رئيس وزراء حكومة عميلة أقامها الاحتلال الألماني في النرويج أثناء الحرب العالمية الثانية . وبعد انتهاء الحرب وتحرر البلاد حوكم وأعدم بتهمة الخيانة العظمى – المترجم .

في محاولة للاستجابة، عرض صدام مقترحه الأول للخروج من الأزمة. وفي الشهور التي أعقبت ذلك، عرض مقترحات أخرى. وتقدمت كل من الأردن والمغرب وليبيا وفرنسا ويوغسلافيا، بمقترحات متعددة ومختلفة. ولكنها كلها قوبلت بالرفض من جانب الولايات المتحدة و/أو العراق. ولعل أهم محاولة لتحاشي الحرب كانت تلك التي قام بها العضو في «مجلس الأمن» (الذي أصبح رئيساً للوزراء في وقت لاحق)، الدكتور ايفجيني بريماكوف. وقام بريماكوف بزيارتين إلى بغداد في شهر تشرين الأول. وكما أخبرني في وقت لاحق، فإنه أقنع صدام بالموافقة على الانسحاب من الكويت بشرطين: الأول، أن تنسحب القوات الأمريكية أيضاً، والثاني، أن يعقد مؤتمر دولي يتولى تسوية جميع المشكلات البارزة العالقة في الشرق الأوسط، بما في ذلك مشكلة الأسلحة النووية ومشكلة الصراع الإسرائيلي – الفلسطيني. طار بريماكوف بعد ذلك إلى واشنطن حيث نقل إلى الرئيس جورج بوش في ١ تشرين الأول ما عرضه صدام. وقد أخبرني بريماكوف أن الرئيس بوش ظهر عليه أنه قد فوجئ بهذا العرض وقال، «هذه هي أول مرة أسمع فيها بمثل هذا العرض. ما هي المدة التي ستمكثها في واشنطن؟» فأجابه بريماكوف، «سأبقى في واشنطن المدة الضرورية، سيدي الرئيس». عندئذ قال بوش «أعطني بعض الوقت، وسأعاود الاتصال بك». وكان بريماكوف يتناول طعام الغذاء في دار الضيافة الرئاسية، عندما دخل أحد مساعدي الرئيس وبادره بالقول «قد يكون من الأفضل أن تحزم حقائبك».

الحقيقة، أن إدارة بوش كانت قد عقدت العزم بالفعل على الحرب، وكانت غير مستعدة للتفاوض من أجل إنهاء الأزمة. واعتبرت العرض الذي نقله بريماكوف بمثابة «وضع العصي» في عجلات سياستها في محاولة ترمي إلى إخراجها من مسارها.

لم يحصل العراق على دعم دبلوماسي مفيد لا في الأمم المتحدة ولا في سواها. وفي حين أن السعوديين كانوا يلومون الكويت جزئياً في استثارة الأزمة، إلاّ أنهم كانوا يشعرون بالانزعاج لأن العراقيين استبدلوا نظاماً «ملكياً» بنظام «جمهوري». وكانت الدعوة إلى الجمهورية تعني في نظر الملكيين السعوديين تحريضاً على التمرد والعصيان. وسواء كانت ملكية، أو جمهورية، أو ديكتاتورية، فإن الغالبية العظمى من الحكومات العربية شجبت الغزو العراقي. وفي اجتماع عقدته الجامعة العربية في القاهرة، صوتت الأكثرية ضد العراق. والأخطر بالنسبة إلى صدام، أن السعوديين والأتراك أغلقوا أنابيب النفط التي تمر خطوطها عبر أراضيهم. وهكذا انخفض تدفق

نفط العراق إلى الخارج انخفاضاً حاداً، قابله انخفاض مماثل في تدفق المال إلى الداخل.

في هذا الوقت في الكويت، واصل العراق النمط المتوحش الذي تبناه في قمع الأكراد والشيعة - تدمير الممتلكات، والاعتقالات، وأعمال التعذيب، والإعدامات. وربما أعدم ما يصل إلى ألف كويتي باعتبارهم أعداء الدولة (الجديدة). وأضاف العراق جريمة أخرى إلى هذه الجرائم المريعة، وهي جريمة السلب والنهب على نطاق واسع. وهذا الذي كان العراق يفعله قامت منظمة العفو الدولية بتوثيقه ونشره مما أدى إلى شيوع نظرة إلى نظام البعث بوصفه نظاماً شبيهاً بالنظام النازي. وكما لو أن العراق قد انتقى خطوات تتميز بالدرجة القصوى الممكنة من الحماقة، عمد العراقيون إلى إجبار عشرات الآلاف من العمال الآسيويين على الرجوع إلى أوطانهم، وأخذوا كرهائن الذكور من أعضاء الجالية الغربية المقيمة لاستخدامهم «كدروع بشرية» في حالة وقوع هجوم غربي. ومما فاقم من مشكلة «صورته» أن العراق سمح لهؤلاء الرهائن بالمغادرة في مجموعات صغيرة، بناءً على وساطات رئيس الوزراء البريطاني السابق ادوارد هيث، وعضو البرلمان البريطاني توني بن، والمستشار الألماني السابق ويلي برانت. هذا النشاط المستمر أبقى أجهزة الإعلام الغربية منشغلة به ومتركزة عليه حتى شهر كانون الأول ١٩٩٠، عندما أعيدت المجموعة الأخيرة إلى وطنها.

أثناء هذه الشهور، كانت حكومة الولايات المتحدة تحث السعوديين على «طلب» استحضار قوات أمريكية في بلادهم. وكان الملك فهد متردداً في اتخاذ مثل هذه الخطوة لأن شبه الجزيرة العربية كانت تعتبر منذ وقت طويل حكراً للإسلام، ولأن حكومته المحافظة المتزمتة كانت تعتقد أن العادات الغربية ستجرح مشاعر السكان. وبعد كثير من لي الأذرع على الصعيد الدبلوماسي، وافق الملك فهد على توجيه دعوة إلى وزير الدفاع ديك تشيني للقدوم إلى الرياض. بعد ذلك اكتسبت الأحداث حياة خاصة بها. وفي الأيام الأولى من العام ١٩٩١، احتشد في منطقة الخليج حوالي ٢٥٠,٠٠٠ جندي ومالا يقل عن ١٠٠٠ طائرة، وما يقرب من ٣٠ سفينة حربية قادرة على قذف الصواريخ أو إطلاق الطائرات. وبالإضافة إلى ذلك، احتشدت قاذفات القنابل من طراز باء -١ وباء -٢ وباء -٥٢ البعيدة المدى في قواعد تقع ضمن مديات الأهداف العراقية.

بدأ الأمريكيون أيضاً تلك العملية المجهدة التي ترمي إلى تجميع الحلفاء. وإدارة

بوش (الأب) تلك كانت تنظر إلى الحلفاء بعين الاهتمام ، ذلك أنهم دفعوا معظم تكاليف الحرب (وحصلت أمريكا في ذلك السياق بالفعل على شيء قليل من الربح) . كما أن حضور قوات عربية ، ولو بحجم رمزي ، ساعد فهد على القبول بوجود قوات أجنبية في شبه الجزيرة العربية . وكانت مصر مهمة ؛ لأن قناة السويس كانت أسلم وأسرع طريق إلى شبه الجزيرة العربية ، تماماً كما اكتشف البريطانيون في الحرب العالمية الأولى . ولكي تكسب مصر ، التي كانت في أشد الحاجة إلى المال مثل العراق ، فعلت إدارة بوش للرئيس مبارك بالضبط ما كان صدام حسين قد طلب من الكويت أن تفعله - اعفاؤها من الديون وتزويدها بالمزيد من الأموال . وتصل تلك الأموال في مجموعها الكلي إلى بلايين عديدة من الدولارات بأشكال مختلفة . وتركيا ، التي تقع قاعدة انجرليك الجوية في أراضيها ، حصلت على كمية هائلة من المعدات العسكرية ، والقروض ، وترتيبات تجارية تفضيلية . وسوريا ، وهي «الولد السيء» الآخر في العالم العربي ، منحت الأموال ، والأسلحة ، بالإضافة إلى حصولها على ترخيص بالاستمرار في تدخلها في لبنان . وحتى الاتحاد السوفيتي نال مساعدة للحصول على عدة بلايين من الدولارات في شكل قروض ، وتسهيلات ائتمانية ، وأموال نقدية ، من المملكة العربية السعودية ودول الخليج النفطية . والخاسر الأكبر كانت اليمن التي عارضت السياسة الأمريكية ؛ فأوقفت أمريكا برنامج معوناتها لها . كما أن المملكة العربية السعودية طردت ما يقرب من مليون عامل يمني كانت بلادهم تعتمد على تحويلاتهم إلى حد كبير . ومع بدء تشكيل التحالف ، نجحت إدارة بوش في استصدار القرار رقم ٦٧٨ من مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة . ويقضي القرار أن تنتهي المهلة الزمنية في ١٥ كانون الثاني ١٩٩١ ، بحيث يمكن بعدها استخدام «جميع الوسائل الضرورية» المؤدية إلى تحقيق الانسحاب العراقي .

على الرغم من الجهود الدبلوماسية التي بذلت في الدقيقة الأخيرة ، رفض صدام أن يستجيب أو يستسلم ، بما في ذلك اجتماع متوتر استغرق ست ساعات بين وزير الخارجية الأمريكية جيمس بيكر ووزير الخارجية العراقي طارق عزيز ، عقداه في جنيف . ومن المحتمل أنه كان ما يزال يعتقد أن التحالف سينفرط عقده أو أن الأمريكيين سيتراجعون عند الوصول إلى الحافة . ولعله كان يخشى أنه إذا تصور الناس أنه يدير ظهره ويولي الأدبار هارباً فإن جيشه ذاته سيطيح به . ومن المؤكد أنه أخطأ الحساب وأساء التقدير . وفي آخر لحظة ، بتاريخ ١٣ كانون الثاني ١٩٩١ ، طار

الأمين العام للأمم المتحدة خافير بيريز دي كويار إلى بغداد ، ولكن صدام لم يتزحزح عن موقفه .

جاءت الحرب في ١٧ كانون الثاني ١٩٩١ . ومثل الغزو الأمريكي في سنة ٢٠٠٣ ، لم تكن أبداً مباراة متكافئة بين ندين . كان لدى العراق في ذلك الوقت جيش أكبر مما كان لديه في سنة ٢٠٠٣ ، ولكنه كان جيشاً مسلحاً بمعدات عسكرية قديمة مستهلكة ، وكان ضعيفاً في القيادة والسيطرة ، وكان يفتقر كلياً تقريباً إلى الأسلحة المتطورة ذات التقنية العالية . ولم يكن لدى العراقيين ما يماثل أو يوازي الأسطول الجوي الهائل الذي سيقوم بما يزيد على ١٠٦٠٠٠ طلعة ويسقط ٨٨٠٠٠ طن من القنابل . وأطلقت أيضاً على أهداف عراقية حوالي ٣٠٠ من صواريخ توماهوك - كروز الموجهة ، يحمل كل منها نصف طن من المواد الشديدة الانفجار . هذه الهجمة الجوية المكثفة دمرت العراق قبل وقوع أي اشتباك بين القوات البرية .

في نوبة من الغضب العقيم ، أطلق العراقيون عدداً قليلاً من الصواريخ على إسرائيل . ومن المفترض أن حساباتهم جعلتهم يعتقدون أنه إذا ردت إسرائيل بضربة انتقامية ، فإن الأعضاء العرب في التحالف سينسحبون ، كما أنهم أطلقوا أيضاً عدداً قليلاً من الصواريخ على المملكة العربية السعودية . ولم يؤد أي منها إلى حدوث ضرر فادح . الضرر المريع في الحقيقة كان قد حدث في الكويت حيث أشعلت النار في حوالي سبعمائة بئر نفط اعتباراً من ٢٢ كانون الثاني ، وسمح للنفط أن يتدفق إلى الخليج ويشكل بقعة مساحتها ٣٥٠ ميلاً مربعاً ، أو ٩٠٠ كيلومتر مربع[1] .

حتى بعد الوصول إلى هذه النقطة ، جرت محاولات ترمي إلى إيقاف القتال . وحدثت مظاهرات شعبية كبرى في جميع أرجاء أوروبا وأمريكا ، والبابا جون بول الثاني أدان الحرب ، والرئيس غورباتشوف قدم خطة أخرى للسلام . ويبدو أن الرئيس بوش شعر بقلق شديد من أن تؤدي الأحداث أو المقترحات إلى إجهاض الهجوم . وفي السيرة التي كتبها هو وبرنت سكوكروفت عن فترة رئاسته بعنوان «عالم متغير» ، أفاد بوش أنه «في وقت مبكر من صباح يوم الجمعة الموافق ١٥ شباط ١٩٩١ جاء أحد موظفي البيت الأبيض إلى غرفة نومنا ، حيث كنا باربرا وأنا نتصفح الصحف

(١) في وقت لاحق ، ايفجيني بريماكوف وأنا قمنا بترتيب مبادرة روسية - غربية مشتركة من أجل إطفاء النيران المشتعلة في حقول النفط الكويتية - المؤلف .

ونرتشف القهوة ، وأخبرنا أنه سمع أن بياناً عراقياً سيصدر في السادسة والنصف من العراق . فتحت التلفزيون ، وانتظرنا الساعة السادسة والنصف . وأفاد أن العراقيين قد أعلنوا أنهم سيمتثلون للقرار ٦٦٠ ، بما في ذلك البند المتعلق بالانسحاب من الكويت . وبدلاً من أن يتملكني الابتهاج ، شعرت أن قلبي قد غاص» . بوش كان يريد أن يذهب إلى الحرب .

في ٢٤ شباط ، معتبرين أن الجيش العراقي قد جرى إنهاكه بطريقة فعالة ، بدأ الأمريكيون هجومهم البري . وكان العراقيون قد بدأوا ينسحبون بالفعل في ٢٥ شباط ، ولكنهم تعرضوا إلى مذبحة على «طريق الموت» . ولم تكن حروب الشرق الأوسط قد شهدت مذبحة بهذا المستوى منذ أن استولى هولاكو على بغداد (سنة ١٢٥٨ – المترجم) . وحاول صدام أن يتفاوض حول الشروط ، ولكنه استسلم في النهاية بتاريخ ٢٧ شباط . عند ذلك ، أعلن الرئيس بوش إيقاف إطلاق النار[1] . وكانت خسائر الحرب فادحة في الأرواح . ومن المحتمل أن عدد القتلى من المدنيين وصل إلى عشرة آلاف ، ومن العسكريين إلى ثلاثين ألفاً . وبالمقارنة النسبية مع عدد السكان ، فإن تلك الأرقام تصل إلى خمسة أضعاف الخسائر التي تكبدتها أمريكا في حرب الفيتنام . ولكن بعض قوات النخبة لدى صدام من وحدات الحرس الجمهوري استطاعت أن تنجو . والمفارقة هي أن العراقيين والأمريكيين على حد سواء قد فشلوا في «تسديد الضربة القاتلة الحاسمة» التي كانت ستقرر نتيجة الحرب بعملية واحدة فاصلة . فلو لم يفلت شيخ الكويت من قبضة العراقيين ، فإن استعادة نظامه للسلطة كانت ستكون أصعب بكثير . ولو لم يستطع الحرس الجمهوري أن يفلت من قبضة الأمريكيين ، لما استطاع صدام أن يبقى سالماً .

تعرض الرئيس بوش إلى نقد لاذع لأنه منع الجيش الأمريكي من الاستيلاء على بغداد . ولكنه أفاد في روايته عن الأحداث «عالم متغير» : «لو سرنا على درب الغزو ، لكان من الممكن أن الولايات المتحدة ما تزال حتى الآن قوة احتلال في بلاد تغلي بالعداء الشديد» . وكما أثبتت الأحداث اللاحقة ، لم تكن ملاحظته مجرد تفسير فقط ، بل كانت تنطوي على نبوءة أيضاً .

---

(١) أعلن الرئيس بوش ايقاف إطلاق النار من جانب واحد . ويحتاج هذا الموضوع إلى المزيد من البحث والاستقصاء – المترجم .

في ٢ آذار ، صدر القرار ٦٨٦ عن مجلس الأمن في الأمم المتحدة ، الذي يلزم العراق أن يدفع تعويضات ، وأن يطلق سراح جميع الأسرى ، وأن يعيد سائر الممتلكات المنهوبة ، وأن يلغي جميع القوانين التي أصدرها عن الكويت . ولم يكن بوسع العراق أن يعيد الممتلكات المسروقة التي توزعت على سكانه . كما أنه لم يكن قادراً على دفع التعويضات مالم يعاد بناء اقتصاده المدمر ، جزئياً على الأقل . ولكن العراقيين لم يكونوا في وضع يساعدهم على المراوغة ، ولم يكن بد من القبول والموافقة .

في هذه الأثناء ، نشبت ثورتان ضد النظام في العراق . وبدأت في البصرة بتاريخ الأول من آذار «انتفاضة» مسلحة ضد الحكومة شارك فيها عصاة أغلبهم من الشيعة العراقيين . ويبدو أنها كانت عفوية ، وأن الجنود العراقيين هم الذين أشعلوا شرارتها . وقد نالت هذه الانتفاضة تشجيعاً من الحكومتين الإيرانية والأمريكية . إلاّ أن هاتين الحكومتين لم تقدم أياً منهما مساعدة فعالة إلى المتمردين ؛ بل على العكس من ذلك ، فإن القائد الأمريكي الجنرال نورمان شوارتزكوف ، سمح لنظام صدام أن يستخدم المروحيات العسكرية المسلحة ضد المتمردين . وعلى الأرض ، سمحت القوات الأمريكية للوحدات العسكرية العراقية المهاجمة بالمرور بدون اعتراض من خلال مواقعها ، بل إنها حتى دافعت عن الترسانات لكي تمنع الشيعة من تسليح أنفسهم . واستعاد الشيعة العراقيون في ذاكرتهم ما ظهر من عداء أمريكي للحكومة الإيرانية الشيعية ، فاعتقدوا أن الخطوة التي اتخذها شوارتزكوف كانت خطوة متعمدة مقصودة ترمي إلى إضعافهم .

المنشقون الشيعيون كانوا ضعفاء . وكانت ثورتهم تفتقر ليس فقط إلى الأسلحة والقدرة على الحركة ، بل الأهم من ذلك ، تفتقر إلى التنسيق . وكانت ثورة تقتصر على ضواحي متجاورة ، وليست ثورة وطنية شاملة . وفي خضم ثورة من هذا النوع ، انشغل العديد من المتمردين بتدمير الممتلكات الحكومية ، والسلب والنهب ، وأعمال الثأر والانتقام . والقيادة العامة الوحيدة جاءت من المرجعية الدينية الشيعية التي كانت قد ناضلت طوال سنوات ضد النظام . وعلى الرغم من تعرضها إلى قمع شديد من جانب قوات أمن صدام ، إلاّ أنها بقيت متمتعة بولاء في وقوفها ضد الحرس الجمهوري المدرب تدريباً عالياً والمسلح تسليحاً جيداً . ومن بلدة بعد أخرى ، تغلب الحرس الجمهوري عليهم في مشاهد حقيقية من القمع المريع . وبحلول اليوم الخامس

والعشرين من شهر آذار سنة ١٩٩١ ، قضي عليهم القضاء المبرم .

خارج البلاد ، حدثت عدة محاولات ترمي إلى تشكيل جبهات عريضة للمعارضة . ولكن ، بعد سنوات من المناقشات حول إعادة تكوين العراق ، أظهر المشاركون أنهم لا يستطيعون العمل معاً . والعديد منهم كانوا معزولين تماماً عن التيارات داخل البلاد وحتى عن الشعب الذي كانوا يطمحون إلى قيادته . كما أنهم كانوا بوجه عام لا يتعاطفون مع رجال الدين الشيعة الذين كانوا واقعياً القادة الفعليين للثورة . وهذه الظروف ستتكرر في ٢٠٠٣ .

وحدث حوالي هذا الوقت أن صدام باشر بتنفيذ مشروع سبق وأن نوقش طوال عقود من الزمن تحت حكومات عراقية مختلفة ، مشروع تجفيف الأهوار الواسعة في أقصى الجزء الجنوبي من البلاد . في العصور العباسية ، كانت الأهوار هي «سيبيريا» العراق حيث كان الزنج ، العبيد السود المجلوبين من زنزيبار ، حيث كانوا يكدحون في التنقيب عن المعادن . ومع مرور القرون ، اكتسب «عرب الأهوار» حضارة متميزة تقوم على نمط من الحياة تحكمه بيئتهم والصلة الروحية التي تربطهم بالمذهب الشيعي . وأثناء الحرب مع إيران والحرب الأهلية الأقرب زمنياً ، لجأت إلى هذه الأهوار أعداد كبيرة من الهاربين من الخدمة العسكرية وخصوم نظام صدام . وهكذا ، على الرغم من وجود أسباب اقتصادية كانت تدعو إلى تجفيف الأهوار ، إلاّ أن دوافع صدام كانت تهدف إلى تدمير هذا الملاذ ، وإخماد نشاطات الأهالي الشيعة ، ومنعهم من إيواء الهاربين من الجيش . واليوم ، هذه المنطقة التي تشمل مساحة من الأرض تصل إلى ٨٠٠٠ ميل مربع ، أو ما يعادل ٢٠٠٠٠ كيلومتر مربع ، هي أرض قاحلة جرداء ، خالية من الأهوار والمواطنين معاً .

بلا أي تنسيق مع الشيعة ، قام الأكراد أيضاً بثورة أخرى . ولأنهم كانوا يقاتلون من حين إلى آخر طوال عقود من الزمن ، وكانوا يستفيدون من سهولة الوصول إلى ملاجئ حصينة داخل العراق وملاذات آمنة في إيران ، فإنهم كانوا أفضل تسليحاً وتنظيماً . وازدادت قوتهم عندما انضمت إليهم والتحقت بهم ميليشيات الأكراد «الأليفين» ، الذين كانوا يعرفون «بالفرسان» ، والذين سلحهم النظام لكي يقاتلوا الأكراد «المشاغبين» . واستفاد الأكراد أيضاً من امتلاكهم هدفاً تكتيكياً وآخر استراتيجياً معاً . وكان الهدف التكتيكي هو الاستيلاء على المدينة التي كانت تضم صناعة النفط ، كركوك (التي استولوا عليها في ٢٠ آذار) . في حين كان هدفهم

الإستراتيجي هو كسب الاستقلال (وقد أخفقوا في تحقيق هذا الهدف) . مثل الشيعة في الجنوب ، أصيب الأكراد بالدهشة للسرعة والقوة اللتين استطاع بهما الجيش العراقي أن ينتشر . وقبل أن ينتهي شهر آذار ، كان هذا الجيش قد استطاع أن يعيد الاستيلاء على جميع المراكز الرئيسية . وعندما لم تأت مساعدة خارجية ، انهارت الانتفاضة الكردية . عند ذلك هرب واحد من كل اثنين من الأكراد . وحاول العديد منهم أن يعبروا الحدود إلى تركيا ، ولكن الأتراك أغلقوا حدودهم ، ولم تكن لديهم رغبة أن يضيفوا متمردين جدداً إلى متمرديهم الأكراد . وفي النهاية ، في شهر نيسان ، وبفعل إلحاح رئيس الوزراء البريطاني جون ميجور ، أصدر الرئيس بوش أمراً بتشكيل بعثة للإغاثة عرفت باسم «عملية توفير الإغاثة» ولكن الأكراد لم يحصلوا على الكثير من الغوث .

على خلاف الشيعة ، كان لدى الأكراد جيران معتادون على التدخل في شؤونهم . إيران ساعدتهم ، وباعتهم ، وقاتلتهم ، بالتناوب . وتركيا ذهبت إلى مدى أبعد ؛ فأنكرت وجود الأكراد كشعب - وكان يشار إلى الأكراد بوصفهم «أتراك الجبل» . وحاولت الحكومة التركية أن تطمس اللغة والثقافة الكرديتين . وبطريقة أكثر عنفاً ، شنت عليهم في كثير من الأحيان حملات عسكرية وحشية ، مستخدمة ضدهم الأسلحة التي زودها بها الأمريكيون . والسياسة التركية في هذا الصدد اختلفت عن السياسة العراقية فقط بكونها أقل تشدداً في إبادة الجنس .

لم تكن لدى الأكراد أية أوهام عن الإيرانيين أو الأتراك ، ولكن خيبة أملهم كانت مريرة عندما شجعتهم الولايات المتحدة أولاً ثم تخلت عنهم بعد ذلك ، كما فعلت في الثمانينات من القرن الماضي . وبحكم حقيقة وضعهم ، بانتشارهم وتوزعهم على سوريا وتركيا والعراق وإيران ، كان الأكراد يدركون أن أملهم قليل في تحقيق الاستقلال ، ولكنهم كانوا يعتقدون أيضاً أنهم إذا لم يحصلوا على الحكم الذاتي في الأقل ، فإنهم سيكونون نوعاً بشرياً مهدداً بالانقراض . وهذا التقدير كان صائباً ؛ وقد حدد في ١٩٩١ ويحدد في ٢٠٠٥ أبعاد المأزق الذي يجدون أنفسهم فيه . فالثورة ضد العراق لم تنجح ، والاستقلال لا يسمح به الآخرون . وهكذا كان الأكراد يتأرجحون في تذبذب بين القتال والهرب ، بين المخاصمة والتعاون ، وبين العمل معاً والتصادم ، وبين التعاضد والتشرذم . وبقيت كركوك هي الجائزة الكبرى ، كما كانت أثناء فترة «العراق البريطاني» لأنها كانت تضم حقل النفط الذي تتوقف عليه وترتبط به جميع

الآمال . وعندما استولى العراقيون على هذه المدينة ، انسحبوا إلى خط دفاعي في السهل ، بينما بقي الأكراد في جبالهم . وطوال عقد من الزمان لم يدعم أحد من الجانبين هذا الترتيب ، ولكنهما تصرفا على حد سواء كما لو أنه كان ترتيباً دائمياً . وحصل الأكراد على استقلال واقعي ، وكسب العراقيون الوقت الذي كانوا يحتاجونه لإعادة بناء قواتهم .

في الثالث من نيسان ١٩٩١ ، صدر قرار مجلس الأمن رقم ٦٨٧ الذي أقام ما أصبح يعرف بنظام العقوبات . وبموجب هذا القرار ألزم العراق بتدمير أسلحة الدمار الشامل والمنشآت التي تصنعها . وكان القرار ينص على أن تسمح الحكومة العراقية للجنة الخاصة بالأمم المتحدة (الأونسكوم) أن تراقب امتثالها للقرار المذكور فيما يخص الأسلحة الكيماوية والبيولوجية ، وأن تعمل بالارتباط مع الإدارة الدولية للطاقة الذرية فيما يخص الأسلحة النووية . ولأن المتطلبات وسلطة فرضها معاً كانت تمثل تدخلات رئيسية في السيادة العراقية ، فإن الحكومة العراقية حاولت بين الفينة والأخرى أن تعمل على تأخيرها ، أو عرقلتها ، أو التمرد عليها . وعندما فعلت ذلك ، ردت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى (بمشاركة فرنسية أحياناً) بضربات جوية أو تهديدات بالغزو .

وعلى الرغم من أن القوات البرية الأجنبية كان وجودها مقتصراً على المناطق الحدودية ، إلاّ أن إمكانية القيام بتدخل جوي واسع النطاق بقيت قائمة . لم يكن هناك تفويض واضح من الأمم المتحدة للسيطرة على المجال الجوي العراقي ، ولكن منطقة شمالية لحظر الطيران أقيمت في نيسان ١٩٩١ بذريعة حماية الطائرات التي تنقل معونات الغوث إلى الأكراد . حظر الطيران العراقي شمال خط العرض ٣٦ بقي قائماً بأسماء مختلفة حتى عام ١٩٩٨ . وفي الجنوب أقيمت منطقة مماثلة بعد أربعة شهور . وكانت تقضي بحظر طيران الطائرات العراقية جنوب خط العرض ٣٢ . وهكذا أصبحت الأجواء العراقية كلها ممنوعة للطائرات العراقية ، باستثناء شريط يشمل المنطقة الوسطى من العراق .

بالإضافة إلى الأسلحة والقيود المفروضة على النشاط الجوي ، فرض مجلس الأمن حصاراً اقتصادياً على العراق ، وأقام لجنة تراقب تنفيذه . وبموجب بنود هذا الحصار ، جرى تجميد الأصول المالية العائدة للعراق في الخارج ، ومنعت جميع عمليات الاستيراد والتصدير ، باستثناء التجهيزات الطبية ومواد غذائية معينة شملها

برنامج «الغذاء مقابل النفط» الذي بدأ تطبيقه في ١٩٩٥ . وجرى لاحقاً توسيع القرار الأصلي ليشمل تقييد النقل البحري والجوي ، وتكليف اللجنة بصلاحية تحديد متى أو إذا كان يمكن أن يستورد الغذاء . وقد وصف الناقدون هذه القرارات بأنها أقسى تدابير عقابية على الإطلاق فرضت على دولة مهزومة ، وبقيت سارية المفعول طوال سبع سنوات . وعرّضت الشعب العراقي إلى أذى شديد وضرر فادح[1] ، ولكنها لم تمنع الحكومة من شراء الأسلحة .

وفي حين أن القرارات لم تحدد الهدف بوصفه تغيير النظام ، إلاّ أن ذلك كان متضمناً في صلبها بحكم طبيعتها الأساسية . لأنه طالما بقيت العقوبات سارية المفعول ، فإن النظام لم يكن بوسعه أن يلبي المطالب المحددة التي تقضي بتسديد التعويضات . ومثل لعبة تقذف فيها الكرة وتلتقط ، يكون التأثير دائرياً . فالعقوبات لن ترفع إلاّ بعد تسديد التعويضات ، ولكن التسديد غير ممكن إلاّ إذا رفعت العقوبات . وكان تغيير النظام مقصوداً ومستهدفاً بوصفه الطريقة الوحيدة للخروج من هذه الدائرة المسدودة والدّوامة المغلقة . تغيير النظام - أي الإطاحة بصدام حسين أو قتله - كان هو الهدف الأمريكي كما أعلنه الرئيس بوش بعبارة واضحة وصريحة .

التجربة في العراق أثناء تسعينيات القرن الماضي أظهرت مواطن الضعف في العقوبات التي تفرض ضد حكومات قوية ومصممة . واستطاع النظام العراقي أن يحول تأثيرها بحيث أن المعاناة أصابت عموم السكان ، وليس النواة الصلبة من مؤيديها . وهكذا أصبح السكان يكرهون الذين فرضوا العقوبات بدلاً من أن يكرهوا الذين كانت أعمالهم هي السبب في فرضها . وبما أن العقوبات كانت تهدف إلى تدمير النظام ، فإن الرد العراقي بطبيعة الحال كان يتمثل في بذل جهود دائبة للتسلح . وما فعلته العقوبات بالعراق تطاير رذاذه إلى الدول المجاورة ؛ فالأردن ، الذي كان شريكه التجاري الأكبر هو العراق ، أصيب بخسائر فادحة ، في حين أن تركيا ، التي يمر أنبوب رئيسي للنفط عبر أراضيها ، قدرت مجمل خسائرها بحوالي ٣٠ بليون دولار عندما أرغمت على إغلاق ذلك الخط . (سمح للبلدين بطريقة صامتة أن يخرقا نظام العقوبات) .

لأنه كان يخشى جيشه ، وكان ارتيابه يزداد حتى بالحزب الذي عمل جاهداً

(١) أدت إلى وفاة مليون ونصف المليون عراقي ، منهم نصف مليون طفل - المترجم .

على تكوينه ، عاد صدام حسين إلى السياسة التي وضعها البريطانيون في العشرينيات من القرن الماضي ، والتي طورتها البرلمانات التي أقاموها . وجوهر هذه السياسة كان الاعتماد على شيوخ العشائر ، أي الأشخاص الذين عمد البريطانيون إلى «ترقيتهم» لكي يصبحوا «رؤساء» ، والذين بالاشتراك مع المرابين والتجار من أبناء المدن استعبدوا أبناء عشائرهم . وهذه السياسة التي أحياها صدام كانت تنطوي على تسليم سندات ملكية الأراضي والأموال إلى هؤلاء الرؤساء الذين أعيدوا إلى مواقعهم . وهذه الخطوة وجدت تعبيرها الرمزي في إعادة استخدام الألقاب العشائرية في الأسماء الشخصية . وهذه هي عادة كانت قد منعت قبل عقد من الزمان بوصفها من العادات التي استخدمتها «المؤسسة الإقطاعية» . ومرة أخرى ، كما حدث في الثلاثينات من القرن الماضي ، هيمن شيوخ العشائر على المجلس الوطني . ولكن ، كما حدث في كل ما فعله ، فإن صدام لوى عنق النظام لصالحه ؛ فمنح الرؤساء الذين اختارهم الأموال والأسلحة وجعلهم يشتغلون في مراقبة حتى حزب البعث . وهكذا أقام شكلاً جديداً من العشائرية فوق الشكل القديم . وفي قلب هذه المنظمة الجديدة من الوجاهة والقوة كانت عشيرة صدام نفسه حاضرة ، آل المجيد ، التي كانت جزءاً من تجمع عشائري أكبر وأوسع وأقل ترابطاً من «البوناصر» .

ما كان يفعله هو أنه كان يعود إلى نمط التنظيم الاجتماعي الذي كان سائداً في شبه الجزيرة العربية في العصر الجاهلي . وما كان يعلنه ويطلبه هو الولاء المطلق الذي يسود في القوم . وفي هذه الجماعة المرصوصة القائمة على القرابة المتلاحمة ، كان جميع الأعضاء مسؤولين معاً عن أعمال كل عضو بمفرده ، وكان كل فرد من الجماعة يطلب منه أي يأخذ بثأر أي فرد من الجماعة يتعرض إلى السوء ممن أساء إليه . وفي حين أنه من المشكوك به أن معرفة صدام بالتاريخ كانت كافية لكي يضع سياسته في سياقها الصحيح ، فإنه قد فعل ذلك لا شعورياً على الأقل . ومثل جميع الأطفال العراقيين ، كان صدام قد تعلم لغته من القصائد التي حفظها عن ظهر قلب ، والتي تعود إلى العصر الجاهلي . وكانت تلك القصائد تتميز بتمجيد الثوابت الأخلاقية الأساسية التي تتركز على القوم مثل الولاء والشرف والصلابة . وكان ينبغي أن يكون أعمى وأصم إذا لم يتشبع بهذه الرسالة حتى في التعليم الابتدائي الذي حصل عليه .

وهكذا استند وعاد إلى هذه المفاهيم السياسية العربية الأكثر بدائية عندما التصق ظهره بالحائط بهزيمته في حرب الكويت ، واهتز بعمليات التمرد والعصيان

الكبرى التي تفجرت بين الشيعة والأكراد ، وأصبح يشك حتى بزملائه البعثيين . وفي آخر تغيير جذري أجراه في الحكومة ، وفي جميع المناصب العسكرية الرئيسية ، والشرطة ، وأجهزة الأمن المختلفة المتنافسة ، أسند تلك المواقع الحيوية إلى أشخاص من قومه ، آل المجيد . وأزاح جانباً الأقرباء الأبعدين وأولئك الذين لا يمتون له بصلة قرابة ، وتعرض العديدون منهم إلى التطهير والسجن والإعدام . ويبدو أن صدام قد شعر عندئذ أنه قد وصل إلى النواة الصلبة للقوة التي يملكها .

أصيب صدام بصدمة عنيفة عندما فوجئ سنة ١٩٩٥ بزوج ابنته الكبرى من آل المجيد يغادر إلى الأردن مع زوجته وأطفالهما ، ومعهم شقيقتها وزوجها شقيق زوج الشقيقة الكبرى . ومن المحتمل أن هذه القطيعة المفاجئة قد نجمت عن تضارب بينه وبين ابن صدام عدي المتهور ونصف المجنون والعنيف . وكما كان ينبغي أن يعرف صدام أن هذا النوع من المغادرة هي الطريقة التقليدية لتسوية الخلافات التي تحدث في داخل القوم (التجمع العائلي - المترجم) الواحد ؛ فالطرف الأضعف يغادر ويرمي بنفسه على ضيافة جماعة أخرى . وهذا بالضبط هو ما فعله الجنرال حسين كامل وشقيقه وزوجتاهما . وقد غادروا العراق وطلبوا الحماية من الأردن . وفي خطوة حمقاء ، عاد اللاجئون (من عمان) إلى بغداد حيث يبدو أنهم كانوا يتوقعون أن يُعفى عنهم . ولم يعف صدام عنهم ؛ إذ لم يكن العفو من شيمته أبداً . وعمد إلى تدبير يقوم فيه أعضاء آخرون من العائلة بإعدامهما لأنهما جلبا العار على قومهم . وسعى صدام أيضاً ، ولكن في وقت متأخر ، إلى كبح جماح ابنه عدي واستبداله بشقيقه قصي الأصغر سناً والأكثر تعقلاً .

في حين أن مسألة برنامج أسلحة العراق لم تكن عاملاً رئيسياً في تمزيق عائلة صدام ، فإن ارتداد حسين كامل بالضرورة قد سلط الضوء وركز الانتباه على ذلك البرنامج . وكان قد نقل عنه اعترافه أن صدام كان «يغش» ، وكان صدام يفعل ذلك بطبيعة الحال ، لأنه كان يعلم أن الولايات المتحدة كانت تحاول أن تقتله وتريد أن تطيح بحكومته . وكان يؤمن دائماً أن امتلاك أسلحة الدمار الشامل كان أمله الرئيسي ، أولاً لكي يهزم إيران ، ومن ثم لكي يمنع الآخرين من استرداد الكويت ، وأخيراً لكي يمنع انهيار نظامه . وبينما تركز معظم الروايات على عمليات الخداع والعرقلة التي كان يمارسها ، فإنه كان على درجة كافية من الذكاء لكي يدرك أن «امتلاك الأسلحة» كان شيئاً مختلفاً تماماً عن «محاولة امتلاكها» . ومن المؤكد أنه

كــان يود لو أنه اســتطاع أن يحـصل على تلك الأسلحــة ، ولكنه أدرك في أوائل تسعينيات القرن الماضي أن محاولة امتلاكها كانت ببساطة محفوفة بمخاطر كبرى . ولذلك تخلى عن برنامجه في هذا الصدد . وأثناء مكوثه في الأردن ، عندما كان حراً أن يقول ما يشاء ، نسب إلى الجنرال كامل قوله إنه يستنكر برنامج صدام للأسلحة ، الذي كان هو (أي الجنرال كامل - المترجم) مسؤولاً عن تنفيذه . ولكن ما قاله بالفعل كان على النقيض تماماً ؛ لأنه كان قد قال إن صدام كان قد دمر مثل هذه الأسلحة للدمار الشامل والوسائل التي تستخدم في صنعها . وفي موازاة برنامج العقوبات ، الذي كانت الولايات المتحدة على الأقل قد فرضته بطريقة صارمة في عهدي إدارتي الرئيسين بوش وكلينتون ، فإن الولايات المتحدة قامت بمحاولات ترمي إلى زعزعة استقرار النظام العراقي . ومن خلال تخصيصات الكونغرس بموجب قانون تحرير العراق ، قامت الولايات المتحدة جهاراً نهاراً بدفع معونات مالية إلى عدد من تجمعات المنفيين (العراقيين) التي كانت تهدف إلى إسقاط النظام[1] .

كانت هناك اتهامات عديدة وجهت إلى صدام خلال السنة التي تلت حرب الخليج سنة ١٩٩١ . وشملت تلك الاتهامات إجراء اتصالات مع الإرهابيين ، والتورط في الهجوم على مركز التجارة العالمي ، وكونه العقل المفكر والمدبر وراء الهجوم الإرهابي على نيويورك في ٩-١١ ، ومحاولة امتلاك أسلحة نووية بشراء أنابيب الطرد المركزي و«الكعك الأصفر» (اوكسيد اليورانيوم) . وقد ثبت أن جميع هذه الاتهامات

---

(١) المستفيد الرئيسي كان المؤتمر العراقي الذي يرأسه أحمد الجلبي . المجموعة العربية الرئيسية الأخرى التي كانت «محسوبة» على المخابرات الأمريكية منذ وقت طويل ، كانت الوفاق الوطني العراقي الذي يرأسه إياد علاوي الذي نصبته الحكومة الأمريكية في وقت لاحق رئيساً مؤقتاً للوزراء . والأهم كانت المجموعات الكردية المختلفة - الحركة الإسلامية في كردستان العراق ، الحركة الملكية الدستورية (وهذه ليست حركة كردية بل عراقية - المترجم) والحزب الديمقراطي الكردستاني (مسعود البارزاني - المترجم) والاتحاد الوطني الكردستاني (جلال الطالباني - المترجم) . ولكن هذه المجموعات عصفت بها خلافات حادة إلى الحد الذي جعل إحداها مستعدة للعمل مع صدام . ومع أنها لم تكن فعالة ضده ، إلاّ أنها اقنعت صدام أنه من الحمق أن يعمل بإخلاص مع الولايات المتحدة من أجل السلام عندما يقوم خصومه بتعريف السلام بأنه لا يمكن أن يتحقق إلا بموته - المؤلف .

غير صحيحة . والأنكى من كل ذلك كان الزعم بأن المخابرات العراقية كانت قد حاولت أن تغتال الرئيس الأسبق جورج بوش أثناء زيارته للكويت في نيسان ١٩٩٣ . وكان ذلك الزعم يستند إلى معلومات تكتنفها درجة عالية من الشك ، ولكنها استخدمت من رجال كانوا يروجون أجنداتهم للحرب ، فساعدتهم على تبريرها[١] .

من المؤكد أن صدام مارس الاغتيال داخل العراق وخارجه على حد سواء عندما كان ذلك لصالحه . وكما أخبر السفير الأمريكي في عشية غزو الكويت ، «نحن لا نستطيع أن نقطع المسافة الطويلة لكي نأتي إليكم في الولايات المتحدة ، ولكن أفراداً من العرب قد يستطيعون الوصول إليكم» . ولكن المؤامرة ضد بوش هي غير محتملة أصلاً وأساساً ، وكانت تقوم على معلومات انتزعت بطريقة قسرية من مجرم عادي عراقي كان يعمل مهرباً . ولم تكن هناك قرائن تثبتها أو تؤيدها ، والقصة التي أرغم المهرب على تأكيدها كانت هزلية ومضحكة . ومهما كان صدام شريراً ، فإنه لم يكن سخيفاً أو ساذجاً . وفي ذلك الوقت ، لم يكن لديه ما يكسبه بل كان سيخسر كل شيء باغتيال الرئيس السابق ؛ لأنه كان حينذاك مشغولاً بمفاوضات حساسة حول تصدير النفط . إلاّ أن الكويت ، على النقيض من ذلك ، كان لديها ما تكسبه من «اكتشاف» مؤامرة . وكانت تريد أن تتسبب في انهيار المفاوضات حول النفط العراقي .

كان لدى الكويتيين تاريخ في تلفيق الحوادث واختلاق الوقائع[٢] عندما كانوا

---

(١) أثناء إدارة كلينتون ، كان الموظفان الرسميان ، مارتن أنديك وصموئيل برغر ، عضوين في مجلس الأمن القومي . وفي وقت لاحق ، أثناء إدارة بوش الثاني بذلت زمرة المحافظين الجدد جهداً اكبر بكثير في تنظيم العمل . وكان يقودهم بول وولفوتز ، وكانوا يتمركزون رئيسياً في البنتاغون (وزارة الدفاع) ومكتب نائب الرئيس ديك تشيني – المؤلف .

(٢) وزير الإعلام الكويتي في ذلك الوقت ، الشيخ سعود ناصر الصباح ، الذي تحدث إلى المراسلين الصحفيين عن المؤامرة ، كان العقل المفكر والمدبر في حادثة مماثلة أثناء الغزو العراقي للكويت . وبوصفه سفيراً للكويت في واشنطن ، جعل ابنته تشهد أمام الكونغرس بأن الجنود العراقيين قد انتزعوا أطفالاً حديثي الولادة من حاضناتهم وقذفوهم على أرض إحدى المستشفيات وتركوهم يموتون . هذه القصة كانت مختلقة وكاذبة . وكانت فيكتوريا كلارك ، المدير في إحدى وكالات الإعلان ، هي التي ساعدت السفير وابنته ، وأصبحت فيما بعد الناطقة الرسمية باسم البنتاغون (وزارة الدفاع) في إدارة بوش الثاني – المؤلف .

يريدون أن تقوم الولايات المتحدة بمعاقبة العراق . وقد نجحت مساعيهم . وكانت هذه القصة المشكوك فيها إلى أقصى حد اتخذت منها إدارة كلينتون مبرراً ، وأصدرت أوامرها بإطلاق ٢٣ صاروخاً من طراز توماهوك كروز على مقر المخابرات العراقية في وسط بغداد[١] .

يمكن استخلاص ثلاثة أشياء من هذه الحادثة . الأول ، أن الموظفين الرسميين الأمريكيين الذين يدعون إلى تنفيذ سياسات محددة يستطيعون أن يحققوا أهدافهم بطريقة أسهل من خلال ربطها بأحداث درامية مثيرة (حتى لو كان مشكوكا فيها أو كانت غير صحيحة) مما لو استخدموا الحجج المنطقية . والثاني ، أن أي رئيس يستطيع أن يحصل على موافقة الرأي العام بأن يظهر أمامه بمظهر «الرجل الذي يتمتع بالقوة والصلابة» . وأوضح مثال هو الرئيس بيل كلينتون الذي ارتفع رصيده من تأييد الرأي العام بإحدى عشرة نقطة عندما أمر بالهجوم الصاروخي . والثالث ، أن صدام حسين ، الذي كان واضحاً أنه يعرف حقيقة القصة ، سيرى فيها البرهان على أنه مهما فعل أو لم يفعل ، فإن الحكومة الأمريكية كانت قد عقدت العزم على تدميره .

كانت الحكومة الأمريكية قد عقدت العزم على ذلك بالفعل . وقامت المخابرات الأمريكية بتنظيم طلعات فوق بغداد بطائرات من دون طيارين ، وأسقطت منشورات تحرض على الثورة ، وأنفقت الملايين من الدولارات في التشجيع على المؤامرات والانقلابات . ومدير أحد برامج المخابرات الأمريكية أخبر (الواشنطن بوست) أن تلك المخابرات كانت تعمل مع (الوفاق الوطني العراقي) للقيام بسلسلة من الهجمات بالسيارات المفخخة والاغتيالات . وقد فشلت تلك الجهود لأن الوفاق كان «مخترقاً» من قبل المخابرات العراقية التي «لفلفت» وأعدمت معظم أعضائه في حزيران ١٩٩٦ . (رئيس الوفاق في ذلك الحين ، إياد علاوي ، الذي كان هو نفسه مسؤولاً بعثياً سابقاً وعميلاً مخابراتياً انقلب ضد صدام ، لم يلق القبض عليه . وأصبح في وقت لاحق ، في حزيران ٢٠٠٤ ، أول رئيس وزراء مؤقت معين أمريكياً في العراق) .

في آب ١٩٩٨ ، تعرضت حتى اللجنة الخاصة التابعة للأمم المتحدة إلى فضيحة عندما علم صدام أنها تستخدم للتستر على نشاطات عملاء المخابرات الأمريكية

---

(١) أحد هذه الصواريخ أصاب داراً عائلية سكنية قريبة . واستشهدت الرسامة العراقية المعروفة السيدة ليلى العطار مديرة المتحف العراقي للفن الحديث في ذلك الوقت – المترجم .

والبريطانية والموساد . وأجبرت الأونسكوم على مغادرة العراق . الولايات المتحدة وبريطانيا شعرتا بغضب عارم ، ولكنهما لم تنفيا الاتهام العراقي . والدولتان استخدمتا عملية انتقامية عقابية في الرد . وشنتا حملة جوية كبرى (عملية ذئب الصحراء) عارضها معظم العرب ، وفرنسا ، وروسيا ، ودول أخرى . ولم تغب خطورة هذه الأحداث عن ذهن صدام ؛ ذلك أن حرباً سرية نشيطة وواسعة النطاق كانت قد حصلت على المساندة بضربات جوية . وسرعان ما سيبدو واضحاً أن هذه كانت النذر الأولى والخطوت التمهيدية نحو حرب شاملة .

انحدر العراق إلى الحضيض في ١٩٩٤ . وبفعل القيود التي فرضتها العقوبات الاقتصادية ، تدهورت الأوضاع المعيشية إلى مستويات بائسة . وفرغت مخازن المستشفيات من الأدوية والمواد الطبية وحتى من الصوابين التي تستخدم في غسيل الأغطية والشراشف . وانتشرت المعاناة من سوء التغذية على نطاق واسع ، وارتفعت نسب الوفيات بين الأطفال حديثي الولادة إلى درجات عالية غير مسبوقة . وأصبح من الصعب حتى الحصول على مياه عذبة نقية صالحة للشرب ، بل إنه لم يتوافر على الإطلاق في العديد من المناطق . والتضخم المنفلت من عقاله قد قضى تماماً على الطبقة المتوسطة الجديدة . وحتى في هذه الأوقات الصعبة والقاسية ، أنفق النظام أموالاً طائلة على إعادة التسلح وعلى تدليل أولئك الذين كان صدام يعتمد على ولائهم . وفي ذلك الحين ، بعد سنتين ، وعلى الرغم من العقوبات ، والمحاولات السرية للإطاحة بالنظام ، والهجمات الجوية والصاروخية الخطيرة ، بدأ العراق يستعيد عافيته . وأعيد بناء الجسور للعبور على النهر ، وازدادت التجارة ، وأصلحت محطات الطاقة الكهربائية وخطوط التوصيل ، وبدأ توزيع المياه ، والمجاري أصبحت تعمل والمياه العادمة تتم معالجتها . وبدأ العراق يصدّر النفط . وبحلول العام ١٩٩٨ سمح للعراق بموجب برنامج النفط مقابل الغذاء أن يصدّر ما قيمته حوالي ١٠,٥ بليون دولار من النفط . وفي ذلك العام ، حصل الاتفاق مع سوريا على أن تعيد فتح خط أنابيب النفط إلى مينائها على البحر الأبيض المتوسط . وفي العام التالي ، تخلت الأمم المتحدة عن جميع أشكال السيطرة على صادرات النفط . ومع مجيء العام ٢٠٠٠ ، كان العراق يكسب سنوياً دخلاً يزيد على الثلاثين بليون دولار .

على الرغم من الأهمية التي كان عليها هذا التغير الاقتصادي ، فربما ما لا يقل في الأهمية عنه بالنسبة إلى نظام صدام كان انهيار المعارضة الكردية . وما حدث كان

فصلاً جديداً في التاريخ المأساوي لهذا الشعب الجبلي المستقل . وبالإضافة إلى انقسامهم الطويل بجبالهم الشاهقة إلى وديان منفصلة ، انقسم الأكراد أيضاً إلى مجموعات عشائرية ، ولغوية ، ودينية ، وأيديولوجية . وكانوا أحياناً يعملون معاً لفترة وجيزة ضد أعداء مشتركين ، ولكنهم في المعتاد من الأحوال كان أحدهم يكره الآخر إلى الحد الذي كان يسعى فيه إلى الحصول على القوة بمساعدة أطراف خارجية لكي يدمر الآخرين من أبناء جلدته . وطوال سنوات عدة كان الإيرانيون يحاولون أن يقمعوا أكرادهم . وبالطريقة المعهودة ، كانوا يسعون إلى استخدام مجموعة واحدة من الأكراد ضد المجموعات الأخرى . واختاروا كوكلاء جماعة جلال الطالباني التي تدعى الاتحاد الوطني الكردستاني . وفي صيف عام ١٩٩٥ سمح الطالباني بدخول قوة كبيرة من الحرس الثوري الإيراني (الباسدران) إلى العراق عبر منطقة كان يسيطر عليها . ولم يمكث الإيرانيون طويلاً ، ولكن خطوتهم شجعت الاتحاد الوطني الكردستاني على التحالف مع حركة كردية تركية هي حزب العمال الكردي للهجوم على خصم الطالباني الكردي العراقي ، الحزب الديمقراطي الكردستاني . وخوفاً من تعرض جيبه الجغرافي «كردستان الحرة» إلى الاجتياح الوشيك ، تحول زعيم الحزب الديمقراطي الكردستاني ، مسعود البارزاني ، إلى الحليف الوحيد الذي استطاع أن يجده صدام حسين . ولأنه كان ماهراً في اللعبة نفسها التي مارستها إيران ، شعر صدام حسين بأنه كان مسروراً أن يساعد الأكراد على أن يقتل بعضهم بعضاً . وأثناء الأسبوع الأول من شهر أيلول عام ١٩٩٦ ، وبالتعاون مع الحزب الديمقراطي الكردستاني ، استطاعت القوات العراقية والوحدات الاستخبارية المتجحفلة معها أن تستعيد السيطرة على المناطق التي كان الاتحاد الوطني الكردستاني قد استولى عليها . وما هو أهم للعراقيين ، استطاعت تلك القوات أن تعتقل أو تقتل عدداً كبيراً من أعضاء الوفاق الوطني العراقي (الذي يتزعمه إياد علاوي) الذين كانوا يتعاونون مع المخابرات الأمريكية . قانعة بما تحقق في ذلك الحين ، انسحبت القوات العراقية .

شعرت إدارة كلينتون أنها مرغمة على رد انتقامي . ولما لم تجد هدفاً في الشمال ، تحولت إلى الجنوب الذي لم يكن متورطاً ولا دخل له في هذا الموضوع ، وضربته بأربعة وأربعين صاروخاً من طراز كروز ، وأضافت خط عرض واحدًا إلى منطقة «حظر الطيران» في الشمال . وكان الرد الانتقامي الأمريكي غير مناسب إلى الحد الذي جعل حتى المملكة العربية السعودية تنتقده بقوة . وصدام اعتبر الحادثة بوصفها

نصراً ، واعتقد أنه يرى «الضوء في آخر النفق» . أما الأكراد فإنهم ، كالعادة ، كانوا يتقاتلون فيما بينهم ، ولم يبد على الأمريكيين أنهم يعرفون ما الذي ينبغي أن يفعلوه . والحرب ضده بدت كما لو أنها قد توقفت .

كان تقدير صدام عن النصر قد شاركته فيه مجموعة جديدة وصلت إلى السلطة في واشنطن عام ٢٠٠١ . «المحافظون الجدد»[1] كانوا يحتلون ما كان لينين سيسميه «قمم السلطة» ، أي ، المراكز الرئيسية في وزارة الدفاع ، وفي مكتب أنشط نائب للرئيس في التاريخ الأمريكي ، وفي أجهزة الإعلام ، وفي تشكيلة متنوعة من مراكز البحوث الممولة تمويلاً جيداً . وسرعان ما بدأوا حملة «صليبية» أمريكية كانوا يبشرون بها ويدعون لها طوال العقد السابق من الزمن . وبالنسبة إليهم فإن الحملة في أفغانستان ضد الطالبان ، الذين كانوا يؤيدون القاعدة وزعيمها بن لادن ، كانت مجرد عرض جانبي ومشهد ثانوي . المسألة الأساسية المهمة في نظرهم كانت العراق ، وهو في رأيهم الخطوة الأولى في حرب دائمة ضد أية فئة أو دولة يمكن أن تعارض أو تناقش الهيمنة الأمريكية . وبفضل تأييد الرئيس جورج دبليو . بوش ، ونائب الرئيس ديك تشيني ، ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد ، شن المحافظون الجدد حملة نشيطة من أجل إقناع الرأي العام الأمريكي بأن النظام العراقي كان متسلحاً بأسلحة نووية والأسلحة الأخرى للدمار الشامل ، وأنه يمثل خطراً مميتاً يهدد أمريكا . وفي أعقاب الهجوم على مركز التجارة العالمي والبنتاغون ، فإنهم شجعوا أيضاً الاعتقاد أن العراقيين كانوا وراء ذلك الهجوم بالتعاون مع القاعدة[2] . وتقليداً للعملية العاطفية (التي قامت على المحاولة المزعومة لاغتيال الرئيس بوش) والتي أقنعت الرئيس كلينتون أن يهاجم العراق بالصواريخ الموجهة سنة ١٩٩٣ ، استخدم المحافظون الجدد رد

---

(١) كتبت ستة مقالات في تحليلهم وتحليل خلفيتهم ونفوذهم وأهدافهم ، وأنهم عرضيون بالنسبة إلى غرضي هنا . ولكن يمكن الاطلاع عليها في موقعي على الشبكة www.williampolk.com .

(٢) جميع هذه التأكيدات ثبت أنها كانت خاطئة . وأفضل دراسة عن مسألة الأسلحة هي تلك التي تعود إلى جوزيف سير بنسيونة ، وجيسيكاتي . مائيوس ، وجورج بركوفيتش . وعنوانها (أسلحة الدمار الشامل في العراق : القرائن والنتائج) . وقفية كارنيجي للسلام العالمي - واشنطن العاصمة - ٢٠٠٤ . وهناك دراسة توثيقية ممتازة تعود للباحث روبرت غرينوالد بعنوان (الكشف : الحقيقة الكاملة عن حرب العراق) www.truthuncovered.com .

الفعل العاطفي الذي تولد من هجوم القاعدة ١١-٩ لكي ينفذوا برنامجهم . ولم يكن ذلك البرنامج سوى أن يقودوا الولايات المتحدة إلى الحرب في العراق . وكان «تغيير النظام» في العراق قد تقرر سراً أن يكون سياسة أمريكا في اليوم التالي للهجوم الذي شنته القاعدة بتاريخ ١١ أيلوم سنة ٢٠٠١ ، ولكنه أصبح هدفاً معلناً بحلول العام ٢٠٠٢ .

عندما أصبح الانزلاق نحو الحرب واضحاً ، قررت الحكومة العراقية أن تتعاون مع تفتيش جديد . بموجب تفويض من مجلس الأمن ، تألفت لجنة الأمم المتحدة للرصد والتحقق والتفتيش (الأونموفيك) برئاسة هانز فليكس الدبلوماسي السويدي والرئيس السابق للإدارة الدولية للطاقة الذرية . وبدأ طاقمه يعمل في تشرين الثاني ٢٠٠٢ . وأعلن العراق أنه لا يمتلك أسلحة دمار شامل ، والأنموفيك لم تجد أي سلاح من هذا النوع ، ولكن إدارة بوش كانت تضغط مراراً وتكراراً على وكالات الاستخبارات الأمريكية لكي تشهد أن العراق لديه بالفعل مثل هذه الأسلحة . وعندما لم تستطع تلك الوكالات ، وهي مكتب الاستخبارات والبحوث التابع إلى وزارة الخارجية ، ووكالة المخابرات المركزية ، ووكالة استخبارات وزارة الدفاع ، عندما لم تستطع هذه الوكالات أن تقول ما أراد المحافظون الجدد أن يسمعوه ، عمد هؤلاء المحافظون الجدد إلى تأسيس وكالة للاستخبارات خاصة بهم تابعة لهم ، أسموها «مكتب الخطط الخاصة» تحت مدير منهم ، لكي تعلن مالم تعلنه الوكالات الأخرى . وبعد الغزو ، تألف فريق من المفتشين يضم ١٢٠٠ عضو ، بالإضافة إلى وحدة المهمات الخاصة الخامسة والسبعين من البنتاغون ، ولم يجد أحد منهم أي دليل على وجود مثل هذه الأسلحة أو أنظمة إيصالها . وتأكدت معلوماتهم بالتقرير المسهب (ألف صفحة) الذي قدمه بتاريخ ٦ تشرين الأول عام ٢٠٠٤ جارلس دولفر الذي عينته إدارة بوش مفتشاً عن الأسلحة . وانتهى التقرير إلى نتيجة مفادها بالحرف الواحد «أن صدام حسين لم يصنع أو يمتلك أية أسلحة للدمار الشامل منذ ما يزيد على عقد من الزمان قبل الغزو الذي قادته الولايات المتحدة» .

أعربت الحكومتان الفرنسية والألمانية عن شكوك قوية حول اندفاع إدارة بوش نحو الحرب ، ولكن ، على الرغم من المعارضة الشديدة التي أبداها الرأي العام ، وحتى على الرغم من الانشقاق الخطير الذي حدث في حزبه ذاته ، فإن توني بلير رئيس الوزراء البريطاني أيد إدارة بوش بقوة .

عندما بدأت القوات العسكرية الأمريكية والبريطانية تحتشد في السعودية والكويت وقطر وتركيا ، حاولت الحكومة العراقية أن تجد من الوسائل ما يدرأ الهجوم . ولما لم تكن لديها قنوات دبلوماسية ، استعانت بوسائل أخرى . أحد هذه المساعي حدثت من خلال المدير السابق لمكتب مكافحة الإرهاب في المخابرات المركزية الأمريكية فينسنت كانيسترارو ، وأفاد أن العراقيين عرضوا أن يسمحوا بدخول عدة آلاف من الجنود أو من عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي للتجول في البلاد لكي يثبتوا أنهم ليس لديهم أسلحة دمار شامل ولا وسائط إيصالها . وبحسب رواية السيد كانيسترارو ، فإن إدارة بوش «قتلت» المقترح العراقي .

في جهد يرمي إلى الاطلاع بالضبط على ما اقترحته الحكومة العراقية ، ذهبت بنفسي شخصياً إلى بغداد في الأول من شباط ٢٠٠٣ ، لمقابلة نائب رئيس الوزراء طارق عزيز ، الذي كنت قد قابلته للمرة الأولى قبل عشرين عاماً . وفي مقابلة استغرقت ساعتين ، كنت أسأله باستمرار مستطلعاً عما سيفعله العراق لكي يتجنب الكارثة . وأخيراً ، قاطعني عزيز قائلاً «إن أمريكا قد قررت أن تهاجم العراق منذ وقت طويل ، ولا شيء يفعله العراق سيمنع ذلك»[١] . وفي الوقت نفسه ، وبالتحديد في الخامس من شباط ، ألقى وزير الخارجية كولين باول بياناً قوياً ينطوي على تفاصيل تتعلق بالتقنيات المتطورة في مجلس الأمن يعرض فيه وجهة النظر الأمريكية عن الحرب . وجميع ما أفاده تقريباً ثبت فيما بعد أنه غير صحيح ، ولكنه في ذلك الوقت أقنع مجلس الأمن والجمهور الأمريكي . (الوزير باول اعتذر في شهر أيار ٢٠٠٤ لأنه ضلل مجلس الأمن والجمهور الأمريكي) .

بدأ الهجوم على العراق في ٢٠ آذار ٢٠٠٣ ، كما كان قد بدأ في ١٩٩١ ، بهجوم جوي عنيف لكي يحدث «صدمة ورهبة» لدى العراقيين ويدفعهم إلى هزيمة سريعة لن تعرف فيها أبداً الأرقام الدقيقة ، ولكن قتل حوالي عشرة آلاف مدني عراقي وعشرات الآلاف من الجنود في غضون ثلاثة أسابيع . وكانت الإصابات البريطانية

---

(١) كنت قد جعلت الأمر واضحاً بأنني جئت كمواطن عادي وباحث علمي . ورجعت إلى أمريكا لكي أقدم تقريراً إلى جمهور من المستمعين كان يتألف في معظمه من موظفين حكوميين كبار حاليين وسابقين في مدرسة الدراسات الدولية المتقدمة بجامعة جون هوبكنز . وكان حديثي يشمل ما سمعته ورأيته ، بالإضافة إلى انطباعاتي عن بغداد في عشية الحرب - المؤلف .

والأمريكية قليلة نسبياً بالمقارنة ، فقتل ١٢٨ جندياً أمريكياً و٣١ جندياً بريطانياً . ومعظمهم قتل «بالنيران الصديقة» ، وكانت قوة النار الحليفة متفوقة تفوقاً ساحقاً . ومن بين الأسلحة المدمرة التي استخدمها التحالف كانت هناك ١٣٠٠٠ من «المتفجرات العنقودية» التي تحولت بانفجارها إلى مليونين من القنابل العنقودية التي محت من الوجود مناطق كاملة . والتنسيق الوثيق بين القوات البرية والجوية والتمزيق الذي أحدثه القصف المكثف قبل الهجوم البري ، يفسران هذا التباين في الإصابات بين الطرفين . وكما أفاد مراقب عسكري بقوله «تعرضت فرق كاملة إلى التدمير» . والحرب الإلكترونية تناوبت في تقطيع الاتصالات العراقية أو استخدمتها لتحديد الأهداف . في كل مجال من مجالات النشاط كان العراقيون أمام عدو يتفوق عليهم في السلاح ، ويتفوق عليهم في العدد ، ويتفوق عليهم في النوع .

إلاّ أن القوات الزاحفة واجهت جيوباً من المقاومة قاتلت قتالاً مستميتاً ، وبالأخص في البصرة وبغداد والموصل . وحتى عندما فقدت التشكيلات العسكرية العراقية تماسكها وترابطها تماماً ، استمرت مجموعات صغيرة في القتال . وتحدثت التقارير في أحيان كثيرة عن حالات فردية من الشجاعة الانتحارية - جنود لا أسلحة لديهم سوى البنادق يهاجمون الدبابات والمركبات المدرعة ، ولكن العراقيين لم تكن لديهم أية فرصة . وبوصفه «حرباً» ، انتهى الصراع بسرعة . وفي أواسط شهر نيسان ، لم يعد الجيش العراقي موجوداً ، وفي ١٦ نيسان ، أعلن الرئيس بوش أن العراق قد «تحرر» .

ما حدث بعد ذلك أذهل القادة العسكريين الأمريكيين والبريطانيين . ومع أنهم أبادوا الجيش العراقي ، إلاّ أنهم لم يستطيعوا أن يعلنوا النصر . فالسلام لم يأت ، والحرب قد اكتسبت شكلاً جديداً . وهذا الشكل الجديد أربك قوات الاحتلال ودفعها إلى تصرفات أدت إلى تأجيج المقاومة بقدر ما أدت إلى تهدئة البلاد . ولكي نفهم ما حدث ، من الضروري أولاً أن نفهم السياق الذي عمل فيه جنود التحالف ، وثانياً ، أن نقوم بتحليل المجموعات التي أنزلت بهم عدداً من الإصابات أكثر من تلك التي أنزلتها بهم الحرب ذاتها .

أولاً السياق

قبل الغزو ، عاش العراق عقداً من الزمان يرزح تحت وطأة حصار اقتصادي خانق بدد مدخرات الطبقة الوسطى الجديدة ، وأرغمها على بيع ممتلكاتها لشراء المأكل والملبس . وعلى الرغم من أوضاعهم البائسة ، لم يكن هناك إلاّ القليل من السرقة والعنف . ومع جميع الجوانب المريعة في نظام البعث ، إلاّ أنه أخمد الجريمة ومنع الأسلحة . وعندما زرت العراق في عشية الغزو الأمريكي ، كان بوسع المرء أن يمشي في أي مكان نهارا أو ليلاً بأمان تام . ولكن هذا الوضع سيشهد تغيراً دراميأً مثيراً ، ويعود جزء من السبب إلى قيام صدام في تشرين الأول ٢٠٠٢ بإعلان العفو العام عن عشرات الآلاف من السجناء ومعظمهم كانوا من السجناء السياسيين . ولكن الآلاف كانوا من المجرمين العاديين ، وبعضهم كان مسجوناً بتهم تشمل القتل والاغتصاب والسرقة بتهديد السلاح . وعندئذٍ ، في خضم الفوضى التي رافقت الغزو ، وعندما انهار الجيش العراقي ، قاموا هم ، والعديد من المواطنين الذين يحترمون القانون ولكنهم كانوا في حالة نفسية سيئة ، باقتحام الترسانات العسكرية ، واستولوا على التجهيزات والأسلحة . وبينما بيعت الأسلحة أو انتقلت إلى الأقرباء والأصدقاء ، امتلك كل عراقي تقريباً بندقية هجومية ، والعديدون امتلكوا المدافع الرشاشة أو حتى قاذفات الصواريخ . ولم يطلع الكونغرس والجمهور الأمريكيان إلاّ بعد مرور ثمانية عشر شهراً ، في نهاية تشرين الأول ٢٠٠٤ ، بأن كمية تتألف من ٣٨٠ طناً من المواد المتفجرة التقليدية الشديدة الانفجار قد نهبت في نيسان ٢٠٠٣ . وهي مواد تستخدم بالأخص في السيارات المفخخة وفي العبوات الناسفة التي تستخدم في الهجمات على المركبات المدرعة والطائرات . ومخزن العتاد ، الذي لا يبعد أكثر من ثلاثين ميلاً عن بغداد ، الذي كانت وكالة الطاقة الذرية الدولية قد أغلقته بالأختام ، استولت عليه القوات الأمريكية أثناء الغزو ، ولكنها تركته بعد ذلك من غير حراسة ، ومن المؤكد أن الفشل في حمايته أو تدميره قد تسبب في وفيات أمريكية عديدة .

في الوقت نفسه ، عشرات الآلاف من الجنود هجروا ما تبقى من وحداتهم . وأخيراً ، في ٢٤ أيار ، الحاكم الإداري الأمريكي الجديد ، بول بريمر الثالث ، أصدر أمراً مفاجئاً بتسريح ما تبقى من الجيش العراقي . وقيل ببساطة لما يقرب من نصف مليون جندي أن يذهبوا إلى بيوتهم . (سلف بريمر ، الجنرال جي غاردنر ، كان قد خطط للاحتفاظ بهم لكي يستخدمهم ، ويدفع لهم رواتبهم ، بوصفهم كتائب عمل) .

الجنود المتجهمون المنهزمون أخذوا أسلحتهم معهم . وعندما وصلوا إلى بيوتهم ، وجدوا أن أحداً لم يكن يملك مالاً ، والرواتب لم تكن تدفع حتى للطواقم الطبية العاملة في المستشفيات ، ولكن عدم امتلاك المال لم يكن مشكلة ولا يسبب أي فرق ؛ لأن التضخم المتفلت من عقاله قد جعل النقود حرفياً لا تساوي ثمن الورق الذي تطبع عليه . وما يهم كان الأشياء . وقبل كل شيء ، الغذاء . كانت هناك شحة في تجهيزات الغذاء إلى الحد الذي جعل المجاعة ، في نيسان وأيار ٢٠٠٣ ، خطراً واضحاً وقائماً ، ولأن القصف كان قد دمر منشآت تنقية المياه وتصريفها في المجاري ومحطات الكهرباء التي تمدها بالطاقة للتشغيل . وحتى قناني المياه الصحية ، وهي النوع الوحيد من المياه الذي يستطيع المرء أن يشربه دون أن يمرض ، كانت غالية إلى الحد الذي لا يستطيع أن يتحمله معظم الناس . وبما أن الجميع كانوا في ضائقة خانقة ، أصبح النهب ظاهرة شائعة إلى الحد الذي يكاد فيه أن يبدو كما لو كان ظاهرة طبيعية . وكل فرد كان يأخذ ما يحتاج إليه ويدافع عما يستطيع أن يحتفظ به .

الجيران الذين استطاعوا أن يخزنوا الرز والفاصوليا اليابسة والطحين كانوا يجتمعون بعضهم مع بعض ، في كثير من الأحيان تحت توجيه المرجعيات الدينية ، لكي يدافعوا عن عوائلهم وبيوتهم . الفقراء المستقتلون الذين يدفعهم الجوع ، والمجرمون الذين يدفعهم الطمع ، كوّنوا عصابات كانت تجوب الشوارع بحثاً عن أهداف . والشرطة كانت قد غادرت مراكزها للانضمام إما إلى لجان الأمن الأهلية أو إلى العصابات ، وتحولت المدن العراقية إلى «مناطق حرة لإطلاق النار» . وأصبح الطرف الأقوى والأفضل تسليحاً والأشد ضراوة هو الذي ينتزع السيطرة . وليس فقط لم يعد بالوسع التحقيق أو العقاب في الجريمة ، بل إنها فقدت حتى تعريفها . والنهب أصبح شكلاً من التسوق ، وجُرِّدت المؤسسات الصناعية من المكائن والأدوات والأسلاك النحاسية والأنابيب (البلاستيكية والمعدنية – المترجم) وحتى من الأزرار والوصلات الكهربائية ، والأبنية الحكومية فقدت شبابيكها وأبوابها . وقصور صدام فقدت قطعها الفنية ذات الطابع الجنسي والذوق السقيم ، وبيت طارق عزيز فقد مكتبته . وأكثر الضحايا مأساوية (في هذا الهيجان البربري – المترجم) كان متحف بغداد العظيم للآثار القديمة ، حيث استخدم اللصوص المناشير الكهربائية لتقطيع التماثيل القديمة وسرقوا آلاف التحف الفنية التي لا تقدر بثمن . وازدهرت سوق رائجة يقتات فيها الشارون على البؤس المحلي . تلك التجاوزات الصارخة كانت على الأقل مفهومة ؛ أما

إحراق المكتبة الوطنية التي كانت تضم مجموعات ضخمة من المخطوطات النادرة والقديمة ، فلم يكن إلا عملاً تخريبياً همجياً بامتياز[1] . وقد وقفت القوات الأمريكية تتفرج ، ورفضت أن تتدخل ولم تكن قد اتخذت أية استعدادات لتدريب الإداريين . وكان هناك موظف رسمي واحد يجيد العربية . ومدن بأكملها كانت تفتقر إلى الشرطة ، أو المطافي ، أو أعمال المرافق الصحية ، أو الأطباء . ويبدو أن إدارة سلطة الاحتلال افترضت ببساطة أن الموظفين العراقيين المحليين سيواصلون أعمالهم ، على الرغم من أنه لم يبذل أي جهد لمساعدتهم على القيام بواجباتهم . والإجراءات التي اتخذت أظهرت الفقدان المذهل للحساسية . ولعل أسوأ تلك الإجراءات كان إعادة فتح سجن أبو غريب الذي ذاعت سمعته السيئة بفعل ممارسات الجلادين وفرق الإعدام التابعة لصدام . وحتى مدير السجن ، الذي أشرف على «اختفاء» الآلاف من ضحايا صدام ، أعادت الإدارة الأمريكية تعيينه .

من هذه السلسلة من غياب الأفعال ، والخطوات الخرقاء ، والفوضى ، ظهرت المجموعات التي ستقاتل قوات الاحتلال الأمريكي أثناء ٢٠٠٣ و٢٠٠٤ . وإذا نظرنا إلى الوراء ، نستطيع أن نرى عملية بدأت بالنهب بدلاً من الحماية . وبعد ذلك حاولت جموع بأعداد متزايدة أن ترغم سلطات الاحتلال بالتظاهر على تفريغ مخزونات الأغذية والتجهيزات الأخرى . وخرج عشرات الآلاف من المدنيين إلى الشوارع في مظاهرات كانت سلمية على الأغلب ، في الموصل والفلوجة وبغداد ومدن أخرى . القوات الأمريكية اعتبرت مظاهراتهم نوعاً من التمرد ، فبدأت في نيسان ٢٠٠٣ تطلق النار على المتظاهرين . ومع ارتفاع عدد الإصابات ، تزايد الغضب . وهذا الغضب أدى إلى وقوع أول هجوم خطير على النمط العسكري ضد القوات الأمريكية بتاريخ الأول من أيار في الفلوجة ، حيث كانت القوات الأمريكية قد قتلت تواً ما لا يقل عن ١٥ من المحتجين المدنيين . ومنذ ذلك التاريخ ، شهراً بعد شهر ، تصاعدت

---

(١) فريق عمل «مستقبل العراق» في وزارة الخارجية كان قد أعد قائمة بالمواقع التي ينبغي على القوات الأمريكية أن تحيط بها وتحميها . وقد نقلت القائمة إلى دوغلاس فيث وكيل وزارة الدفاع . ولكنه لم يرسلها إلى القيادة العسكرية الأمريكية . ومتحف الآثار القديمة كان ترتيبه الثاني في القائمة . انظر بيتر دبليو . غالبريث – كيف ننسحب من العراق – مجلة نيويورك لعرض الكتب – ١٣ أيار ٢٠٠٤ – المؤلف .

المظاهرات والاحتجاجات ، وحوادث قيام الجنود بإطلاق النار على الجماهير ، وأعمال مداهمة البيوت ، والهجمات على القوات .

في البداية ، السلطات الأمريكية صرفت العراقيين بوصفهم «فلول البعثيين» ، ولكن الهجمات تصاعدت حدتها وأعدادها وتوزعها . ومع مجيء الصيف ، شملت الهجمات منشآت كان يعتقد بأنها تبرر أو تدعم الاحتلال (مثل تفجير خط أنابيب نفط مرتين ، في آب ١٥ و١٧ ، ٢٠٠٣) ، وعلى عراقيين تعاونوا مع قوة الاحتلال . وبعد ذلك حتى مقر الأمم المتحدة في بغداد تعرض إلى التفجير في ١٩ آب . ويبدو أن الذين نفذوا الهجوم[1] كانوا يعتقدون أن الأمم المتحدة كانت توفر غطاء للاحتلال . وقتل في ذلك الهجوم رئيس البعثة سيرجيو فييرا دي ميلو ورئيسة هيئة موظفيه ناديا يونس . وفي وقت لاحق ، تعرضت سفارة المملكة الأردنية الهاشمية ، التي كانت حكومتها تتولى تدريب جيش عراقي جديد ترعاه أمريكا ، إلى القصف بالقنابل . وفي أيلول ، اغتيل عضو في مجلس الحكم . وفي كانون الأول حاول أحدهم أن يقتل الحاكم الإداري الأمريكي في الوقت نفسه الذي حوصر فيه صدام حسين أخيراً واعتقل .

في الشهور الأولى ، كان يبدو أن الهجمات منفصلة وغير منظمة ، ولكنها سرعان ما بدأت تصبح منظمة . ولكن من الذي ينظمها ، لا يعلم أحد بعد حتى الآن . ومع التنسيق الذي أظهرته الهجمات ، أخذ المسؤولون الرسميون الأمريكيون ينسبونها إلى محرضين خارجيين ، الذين كانوا يصنفونهم تحت اسم فضفاض هو «القاعدة» . وزعم كولين باول وزير الخارجية ، أثناء زيارة قصيرة إلى بغداد في ١٤ أيلول ٢٠٠٣ أن هناك ما يصل إلى ألفين من المتشددين الأجانب في العراق في ذلك الوقت . ولم يظهر أي دليل على هذا الزعم . ويبدو أن التدخل الأجنبي هو احتمال ضعيف . والمتشددون المعروفون من أعضاء القاعدة هم أصوليون سنّة يحتاجون إلى دعم المجموعات المحلية في توفير المسكن والمأكل والقدرة على الحركة . ويظهر من التجربة أن إدخال حتى عدد قليل من الأجانب إلى أي مجتمع يمثل عملية صعبة ، تحتاج إلى تهيئة مسبقة طويلة وتنظيم على درجة عالية من الدقة . وهذا مالم يتوافر في العراق عامي ٢٠٠٣

---

(١) لا أحد يعلم بالتحديد من الذي ارتكب هذه الفعلة . ولكن مجموعة ما تطلق على نفسها اسم «الطليعة المسلحة لجيش محمد الثاني» أصدرت بياناً يعلن مسؤوليتها عن الحادث – المؤلف .

و٢٠٠٤ . وفضلاً عن ذلك ، لا حاجة للتحريض الخارجي . فالهجمات على القوات الأمريكية والبريطانية كانت تأتي في العادة بعد مصادمات بين القوات والمدنيين أو ضد عراقيين محسوبين بأنهم «كويزلنغيون»[1] .

في بادئ الأمر ، كانت المظاهرات المعادية للأمريكيين تحدث في مناطق غالبية سكانها من العرب السنّة ، ولكنها بدأت تحدث على نحو متزايد بمشاركة العرب الشيعة . وفي الثاني من أيلول ٢٠٠٣ ، وفي تحدٍّ للأمر بمنعها ، سار عشرات الآلاف من المتظاهرين في شوارع مدينة النجف المقدسة . وعندما حاول الجنود أن يمنعوهم ، أو أن يعتقلوا قادة المتظاهرين ، أو إطلاق النار على الجموع ، بدأت الهجمات تتسع في نطاقها حتى اكتسبت أبعاد حرب العصابات . في تشرين الأول وتشرين الثاني ٢٠٠٣ ، استطاع المقاتلون من رجال حرب العصابات أن يسقطوا ثلاثة مروحيات . وفي ٩ كانون الأول في الموصل جرح ٤١ جندياً أمريكياً . وفي ٢٧ سنة ٢٠٠٣ في كركوك شنت هجمات بالسيارات المفخخة وقذائف المورتر والمدافع الرشاشة . وفي مثل هذه المغامرات الجريئة ، لم تكن السرقة هي الهدف . وما بدأ يتبلور ، على الرغم من استمرار افتقاره إلى قيادة معروفة ، كان ثورة وطنية تضم ، في أدنى تقدير ، ما لا يقل عن خمسة آلاف مقاتل ، وبالتالي ، أضعاف ذلك العدد من المؤيدين . وبحلول شهر تشرين الأول ٢٠٠٤ ، كان الرقم المقدر للمقاتلين وأنصارهم النشيطين قد ارتفع إلى حوالي العشرين ألفاً .

مع ازدياد الإصابات الأمريكية ، فإن الحكومتين البريطانية والأمريكية قامتا بتشجيع المشاركة العسكرية الخارجية . وطلب من الهند أن ترسل فرقة كاملة من الجيش ؛ ولكن الهند رفضت هذا الطلب . وأشارت إلى أن برلمانها أعلن أن الحرب غير عادلة ، وأن آلافاً من الجنود الهنود ، تحت القيادة الإمبراطورية البريطانية ، ماتوا في الحرب العالمية الأولى للاستيلاء على العراق واحتلاله . وأتت وحدات صغيرة من دول أخرى يصل مجموع جنودها إلى حوالي تسعة عشر ألف جندي . وبعد أن تعرضت إسبانيا إلى هجوم إرهابي في مدريد ، تبدلت حكومتها وسحبت جنودها في

(١) نسبة إلى كويزلينغ الذي كان رئيس وزراء الحكومة العميلة في النرويج أثناء الحرب العالمية الثانية تحت الاحتلال النازي . وبعد تحرير النرويج ، حوكم وأدين وأعدم بتهمة الخيانة الوطنية العظمى – المترجم .

شهر نيسان سنة ٢٠٠٤ .

لأجل استكمالهم أو استبدالهم ، وَفَد على البلاد حوالي أربعمائة شخص يعملون في ما يعرف بـ «الشركات العسكرية الأهلية» ، بحيث أن الكثير من المهمات «الأمنية» دخلت إلى خانة الخصخصة . وأكبر المجهزين هي هاليبرتون ، الشركة التي كان يرأسها سابقاً نائب الرئيس ديك تشيني ، الذي ما يزال يقبض منها راتباً سنوياً ضخماً . ازدياد عدد المرتزقة كان سريعاً . «الماء الأسود» ، وهي شركة لم تتأسس إلاّ في العام ١٩٩٨ ، حصلت بالفعل على إيرادات تزيد على بليون دولار . وهذه الشركات تحرص أن لا توصف بأنها مورّدة للمرتزقة ، لأن المرتزقة هم فئة غير قانونية بموجب مواثيق جنيف . ومن الصعب أن نرسم خطاً يميز بين ما هو قانوني وما هو غير قانوني . والأعداد ضخمة . وتزعم إحدى الشركات أنها لديها ما يزيد على عشرة آلاف من الجنود السابقين المدربين تدريبًا عالياً ، المسجلين في قوائمها . وهناك شركة أخرى لديها حوالي خمسمائة جندي من الكوركا وعدد مماثل من الفيجيين في العراق . وفي المجموع الكلي يبلغ عدد هؤلاء «الجنود» في العراق عشرين ألفاً تقريباً ؛ أي ضعف حجم القوة العسكرية للحملة البريطانية . وهؤلاء يحرسون الموظفين الكبار ، ويعملون في الدوريات حول خطوط أنابيب النفط ، ويقاتلون أحياناً . وبعضهم تورطوا أيضاً في عمليات التحقيق مع «المقاتلين الأعداء» وتعذيبهم – والمقاتلون الأعداء مصطلح جديد نحتته إدارة بوش لكي لا تمنح للسجناء الوضع الشرعي لأسرى الحرب كما تحدده مواثيق جنيف – في أبو غريب والسجون الأخرى . وهؤلاء يكسبون ثلاثة أمثال رواتب الجنود النظاميين ، ولكنهم لا يخضعون إلى سلطة قضائية عسكرية أو مدنية ، ويعملون فقط تحت سيطرة الجهات التي توظفهم وتستخدمهم . وتحتهم بوصفهم «جنود الظل» تأثرت حرب العصابات في العراق سلباً بعض الشيء .

حتى مع مساعدتهم (أي مساعدة المرتزقة – المترجم) ، فإن العسكريين الأمريكيين أدركوا بحلول ربيع عام ٢٠٠٤ أنهم لا يستطيعون معالجة التمرد ، وبدأوا بإعادة تشكيل الوحدات العراقية العسكرية والبوليسية . وهدف هذه السياسة هو في النهاية أن تناط الحرب بالوحدات العسكرية المحلية كما فعلت أمريكا في حرب فيتنام . وفي تلك الحرب ، كانت أمريكا قد ورثت من الفرنسيين جيشاً ضخماً . وهي ، في العراق ، لم ترث ما يماثل ذلك ، ولذلك فهي تحاول أن تخلق جيشاً . والنتائج كانت مخيبة للآمال . والفكرة التي تقوم على الاعتقاد أن ميليشيا محلية تستطيع أن تحقق

مالم يستطع أن يفعله جيش أمريكا القوي ذاته ليس سياسة بل وهماً . صحيح ، أن البريطانيين ، في أيام إمبراطوريتهم العراقية استخدموا قوة من هذا النوع - تتألف من المسيحيين الآثوريين (وكانت تدعى الليفي - المترجم) ، ولكن فقط بوصفها قوة احتياطية لجيشهم وقوتهم الجوية . و«الحكومة المؤقتة» العراقية قد استخدمت الأكراد بالطريقة نفسها كقوات احتياطية في خدمة القوات الأمريكية . وليس من المحتمل أن يقاتل جيش عراقي ضد متمردين يتعاطف الجنود معهم وبينهم أقرباء لهم . ولكن ، بأمل أن هؤلاء سيقاتلون بالفعل ، بدأت القوات الأمريكية تتحرك إلى خارج بغداد ومدن أخرى في نيسان ٢٠٠٤ . وعندئذ ، وبعد أن أدرك الأمريكيون أن انسحابهم لم يدفع المتمردين إلى التوقف عن القتال ، بدأوا في أيلول يشنون سلسلة من الهجمات المكثفة على الشيعة في كربلاء والنجف وعلى السنّة في الفلوجة وسامراء ، هادفين إلى سحقهم قبل الانتخابات المقرر أن تجري في كانون الثاني ٢٠٠٥ .

وفي حين أن المسؤولين الرسميين في الإدارة الأمريكية يؤكدون دائماً على أن التمرد يدور في نطاق ضيق وصغير ، ولا يشمل إلاّ عدداً قليلاً من «البعثيين المستميتين» ، فإن ضباط الاستخبارات الأمريكية اعترفوا ، بحلول تموز ٢٠٠٤ ، أن هناك على الأقل ٥٠ منظمة تضم ما يزيد على ٢٠٠٠٠ مقاتل ومؤيد نشيط . وذهبوا أيضاً إلى التأكيد أنه بينما دخل إلى العراق بعض الأجانب والغرباء لكي يقاتلوا ضد الأمريكيين والبريطانيين ، فإن العراقيين وليس الأجانب والغرباء ، هم الذين كانوا في مركز القلب من المقاومة . والتمرد قد تحوّل إلى حرب وطنية تعتمد أساليب وحرب العصابات وتكتيكاتها .

وهناك حروب دارت مؤخراً أو تدور حالياً ، وأثبتت أن التكهن بكسب مثل هذه الحرب ليس جيداً . استخدم الفرنسيون في حربهم في الجزائر ما يزيد على ثلاثة أضعاف ذلك العدد من الجنود ، نصف مليون جندي تقريباً ، لكي يقاتلوا ضد العدد نفسه تقريباً من المتمردين الذين تقاتلهم أمريكا الآن في العراق وخسروا تلك الحرب . وبعد أربعين سنة من الحرب ضد الفلسطينيين ، لم يحقق الإسرائيليون لا السلام ولا الأمن . وروسيا القيصرية والشيوعية على حد سواء قد حاربتا الشيشان منذ حوالي ١٧٣١ . وما تزال روسيا الرئيس بوتين تخوض غمار تلك الحرب دون أن تظهر لها نهاية منظورة . وأفاد قائد فرقة المشاة الأمريكية الأولى اللواء جون باتيست ، كما وجد أسلافه في الفيتنام ، أن مثل هذه الحروب «لا يمكن كسبها عسكرياً» .

فهل يمكن كسبها سياسياً؟

هذا السؤال لم يطرح إلاّ بعد أن مضى وقت طويل على الغزو . وكان غياب الاستعداد مذهلاً إلى الحد الذي تبدو فيه الفوضى اللاحقة كما لو كانت متعمدة ومقصودة . ولكي نفهم هذا البعد من الحرب في العراق ، من الضروري أن نعود إلى الأيام الأولى من ربيع عام ٢٠٠٣ . ومع أن وزارة الخارجية كانت قد أعدت خطة شاملة ، فإن هذه الخطة قد وضعها على الرف رجال يسيطرون على وزارة الدفاع ، يقودهم الوزير دونالد رامسفيلد وزمرة المحافظين الجدد ، الذين جمعهم تحت إمرة لوكيلي المساعدين في الوزارة بول وولفيتز ودوغلاس فايث . وكانوا يريدون مقاربة «بالقوة العضلية» للاحتلال تتفق مع هدفهم المعلن في إعادة بناء شطر كبير من العالم على صورة أمريكا ومثالها ، ولم يكونوا يسعون إلى التحول . وتم تبني مقاربتهم لأنهم كانوا يملكون الموظفين ، والتسهيلات ، ووسائط المواصلات في متناول أيديهم وتحت مطلق تصرفهم . ولأن الرئيس بوش صادق على تعيين رجل على اتفاق معهم ، جنرال متقاعد أصبح يعمل مقاولاً في العقود الدفاعية ، بوصفه «الحاكم الإداري» الأمريكي المطلق الصلاحية ، ووصل الجنرال جي غارنر إلى بغداد في ٢١ نيسان ٢٠٠٣ .

غارنر أحضر معه نواة لجنة استشارية عراقية . والشخصية الرئيسية كانت الربيب المفضل لدى البنتاغون ، أحمد الجلبي ، وهو عراقي غادر العراق في صباه المبكر ، وأُدين بالاختلاس عندما كان مصرفياً في الأردن . ونقلت البنتاغون جواً مليشيا أحمد الجلبي المسلحة إلى العراق ، في تدبير شبيه بذلك الذي اتخذته بريطانيا مع الرجل الذي نصبته ملكاً على العراق في ١٩٢٠ عندما وصل ومعه ميليشيته ، ولكن الجلبي كان أقل حظاً من الملك فيصل الأول . وسيتم الكشف لاحقاً بأنه احتال على الحكومة الأمريكية للحصول على الملايين من الدولارات ، وكشف أسرار اتصالاتها إلى دولة أجنبية .

غارنر أدخل أيضاً في خدمته الزعيمين المتنافسين للأكراد ، مسعود البارزاني وجلال الطالباني ، جنباً إلى جنب مع الرجل الذي قدر له بعد سنة أن يبرز بوصفه الرجل الأعلى مقاماً ، إياد علاوي ، الرئيس السابق للمنظمة الإرهابية المعادية لصدام التي تدعى «الوفاق» وكانت تتمتع برعاية المخابرات المركزية . وباستثناء الرجلين الكرديين ، فإن مستشاري غارنر كانوا غير معروفين إطلاقاً في العراق . وتلك كانت هي المشكلة التي واجهها البريطانيون مع الملك فيصل الأول الذي كان بالكاد معروفاً

في ١٩٢٠ . وفي هذا الوقت ، قرعت الفئات المعارضة المحلية جرس الإنذار وناقوس الخطر ، مستعيدة ذكرياتها عن «العراق البريطاني» ، ومحذرة من أن سلطة الاحتلال «المؤقتة» قد تتحول إلى انتداب دائم أو مستعمرة .

يبدو أن الجنرال غارنر لم يكن قادراً على فهم ما يحدث . وحاول بطريقة تبسيطية أن يتوصل إلى حلول للمشكلات السياسية باستخدام الوسائل العسكرية . والفترة القصيرة التي قضاها في منصبه كانت شهراً من الفوضى . وفي السابع من أيار تم استبداله ببول بريمر الثالث ، وهو موظف متقاعد من السلك الخارجي ، كان يعمل سفيراً متجولاً مسؤولاً عن مكافحة الإرهاب ، وأصبح فيما بعد رئيساً للجنة الوطنية حول الإرهاب . وبين هاتين الفترتين في خدمة الحكومة كان مديراً إدارياً في مؤسسة كيسنجر وشركائه . وما زكاه في بادئ الأمر للمنصب الذي شغله في العراق كان أنه نال دعماً متحمساً من نائب الرئيس ديك تشيني والوزيرين رامسفيلد وولفويتز ، بوصفه مؤيداً قوياً للمحافظين الجدد . ولأنه كان موظفاً سابقاً في السلك الخارجي ، فإن وزارة الخارجية لم يمكنها أن تعترض على تعيينه . وبسبب مناصبه الحكومية السابقة وكتاباته ، فإنه كان يرمز إلى الارتباط ، الذي كانت الإدارة تجهد في الترويج له والإعلان عنه ، بين الإرهاب والعراق . وقد وصفه الرئيس بوش بأنه رجل «يستطيع أن يحقق المنجزات» ، يتسنم منصبه «بمباركة كاملة من هذه الإدارة» . ولكن تعيينه قوبل بحماسة أقل من جماعات حقوق الإنسان ، لأنه كان يدعو إلى تجنيد العملاء الأجانب الذين لديهم سجلات شخصية «قذرة» . ومثل المستر وولفوتيز ، كان رد فعله على هجوم القاعدة في ١١-٩-٢٠٠١ أن يدعو إلى الحرب على العراق[1] . وعلى غرار الجنرال غارنر المنكود السيء الحظ ، كان بريمر يُرسل إلى العراق ومعه خطة .

الخطة ، التي قدمت إلى مجلس الأمن في التاسع من أيار ، أسمت أمريكا وبريطانيا بوصفهما «قوّتي احتلال» . ولم يكن واضحاً ماذا يعني ذلك بالضبط . وفي أحد أوائل بياناته ، قال المستر بريمر «نحن لسنا هنا كقوة استعمارية . . . نحن هنا لكي نسلم (السلطة) إلى الشعب العراقي بأسرع ما يمكن» . ولكن المستر بريمر تحرك ببطء

---

(١) بهذا المنطق الأعوج ، كان على الرئيس روزفلت أن يرد على الهجوم الياباني على بيرل هاربر في سنة ١٩٤١ بالهجوم على المكسيك أو الأرجنتين مثلاً والعياذ بالله - المترجم .

لكي يشرك العراقيين . وفي بادئ الأمر تابع السير على النهج الذي اختطه الجنرال غارنر بتأليف «مجلس سياسي» استشاري . ولكن بعد أن رفضت فئات من العراقيين تتمتع بأهمية بارزة أن تتعاون مع هذا المجلس ، قرر بريمر بحلول تموز ٢٠٠٣ أن يبدل اسمه ، إن لم يبدل دوره ، من «المجلس السياسي» إلى «مجلس الحكم» . وأصدر أوامره بتعيين خمسة وعشرين عراقياً كأعضاء فيه : ثلاثة عشر شيعياً عربياً ، وخمسة من السنّة العرب ، وخمسة من الحزبين الكرديين المتنافسين ، وتركماني واحد ، وآثوري مسيحي واحد . وكان من بينهم رئيس الحزب الشيوعي العراقي وثلاث نساء . وعقد المجلس أول اجتماعاته في ١٣ تموز ٢٠٠٣ . وكانت المهمات الموكلة إليه تحت الإشراف الأمريكي هي تحضير ميزانية والتصديق على دستور .

في الوقت نفسه ، بدأت سلطات الاحتلال بإعادة بناء الإدارة بتأليف ٢٥٠ مجلساً بلدياً في الأرياف . وكانت في كثير من الأحيان تعتمد طريقة عملية وتعيد تعيين الموظفين المحليين الذين قضوا فترة طويلة في خدمة نظام صدام . ولأن معظم هؤلاء الرجال كانوا يفتقرون إلى الشعبية ، فإنهم كانوا يعتمدون في حمايتهم على سلطة الاحتلال ، وكان يمكن بالتالي الوثوق بأنهم لن يثيروا المعارضة ضدها . ولكن كان من المحتوم أن يؤدي استخدامهم إلى مزيد من الصعوبة في الدعوة إلى حكومة تمثيلية ، وأدى في بعض الأحيان إلى حدوث اضطرابات مخلة بالأمن . ولكي نكون منصفين ، ينبغي أن نقول إن السلطات لم يكن لديها خيار آخر . وفي حين أن أعداداً كبيرة من سلطات الاحتلال الأمريكي في ألمانيا واليابان في العام ١٩٤٥ كانوا قد تدربوا على لغتيهما ، فإن أعداداً قليلة كان يمكنهم أن يتواصلوا بالكلام مع السكان الأصليين في العراق . وعدم القدرة على فهم ما يقال أدى إلى سوء دائم في الفهم ، وإلى كثير من الغضب لدى الطرفين ، وإلى عدد من الوفيات بين العراقيين .

بعد شهور من النقاش ، وبالتحديد في ٨ آذار ٢٠٠٤ ، صادق مجلس الحكم على الدستور المؤقت . وعرف رسمياً باسم «القانون الإداري الموقت» . وكان محامون أمريكيون هم الذين كتبوه[١] ، ولم يره إلاّ عدد قليل من العراقيين قبل أن يعلن ؛ وقد وصفه وزير الخارجية كولين باول بأنه «إنجاز عظيم» . كما وصفه رئيس الوزراء البريطاني توني بلير بأنه «حجر الأساس» للعراق الجديد ، ولكن العديد من العراقيين

---

(١) نوح فيلدمان وآخرون – المترجم .

رأوا أن التاريخ يكرر نفسه . فقبل ثمانين عاماً تقريباً ، وبالتحديد في ١٩٢٤ ، كان المسؤولون الرسميون البريطانيون في وضع مماثل يعاملون كمستشارين وموجهين لدى لجنة تضم عراقيين اختيروا بدقة ، مهمتها أن تكتب دستوراً ، وهي أيضاً أعلنت الديمقراطية . وعلى الورق ، كانت العبارات رنانة تتميز بالبلاغة ، ولكنها لم تكن تستند إلى الواقع . وعندما كانت هناك حاجة لها ، فإن العراقيين الطامحين لم يعيروها ببساطة أي اهتمام . وخلال ثلاثين سنة تقريباً ، تعرض العراق إلى العنت والعناء تحت ديكتاتوريات فعلية مكشوفة أو مستورة ، عبر دزينة من الانقلابات التي جلب آخرها البعث إلى السلطة .

الدستور قدّم – لفظاً على الأقل – رؤية عن عراق ديمقراطي جديد مع قضاء مستقل ، والأهم من ذلك كله ، سيطرة مدنية على العسكريين . وكان الاختلال في التوازن بين القوة العسكرية والمؤسسات المدنية هو الذي جرح العراق عقداً من الزمان بعد آخر ؛ ولكن الدستور لم يكن بمستطاعه أن يصحح ذلك الاختلال . وعلى الرغم من السجل التاريخي الذي أظهر بوضوح أن الجيش كان عدو الحرية العراقية وليس حاميها ، فإن إدارة بريمر شرعت في تكوين قوة عسكرية جديدة قبل أن تتجذر الجماعات المدنية المعادلة . وفضلاً عن ذلك ، ومثل دستور ١٩٢٤ ، فإن دستور ٢٠٠٤ أظهر ثقة قليلة بالشعب . ونص على أن تجرى الانتخابات العامة في ٣١ كانون الثاني ٢٠٠٥ لتكوين مجلس يتألف من ٢٧٥ عضواً ، يتولى اختيار رئيس للجمهورية ونائبين للرئيس . وهؤلاء الثلاثة يختارون بدورهم رئيساً للوزراء يتولى السلطة التنفيذية .

متحدثاً بالنيابة عن الطائفة الشيعية وهي تمثل الأكثرية العراقية ، أعلن زعيمها الأهم ، آية الله العظمى علي السيستاني ، أنه غاضب . فالأمريكان كانوا ليس فقط يختارون الحكومة دون العودة إلى الشعب ، ولكنهم كانوا أيضاً يمارسون سياسات أخرى غير مشروعة في القانون الدولي وتقوض الإمكانيات للسيادة العراقية . (وسأبحث هذه في الجزء التالي) . ورفض أن يقابل المستر بريمر لمناقشة الدستور الذي حذّر من أنه «لا يتمتع بتأييد الشعب العراقي» . وعلى الرغم من أنهم كانوا أقل صراحة ، إلاّ أنه كان يبدو أن الزعماء الأكراد موافقون على أن الدستور إما أنه غير وارد أو أنه ينطوي على عيوب صارخة . وكان التعبير عن المعارضة عنيفاً عندما انفجرت سيارة مفخخة وقتلت رئيس المجلس في ١٧ أيار . وبعد أسبوعين حاول مسلحون أن يقتلوا عضواً آخر من أعضاء المجلس . وفي ١٤ تموز قتلوا محافظ الموصل الذي عينه

الأمريكيون . ولم تكمن المشكلة أصلاً وأساساً في الوثيقة ، بل في غياب الإجماع . فالشيعة كانوا يلحون على أن يصبح العراق دولة إسلامية ، بينما كان الأكراد يلحون على وضع فيدرالي على الأقل . وكان الشيعة والعرب السنة يخشون أن الدستور لن يضمن لهم الاستقلال التام . ولم يكن من داع إلى القلق ؛ فهذا الدستور كان أقصر الدساتير عمراً على الإطلاق . وبموجب القانون الدولي ، فإن هذا الدستور أصبح لاغياً عندما قامت سلطات الاحتلال بتسليم القيادة السياسية إلى الحكومة العراقية المؤقتة .

«الاستقلال» أعاد إلى أذهان العراقيين ذكريات غائرة . مثل الأمريكيين في ٢٠٠٤ ، كذلك كان البريطانيون قد أعلنوا في ١٩٢٤ أن الدستور كان الخطوة الأولى نحو تقرير المصير . ولكن العراقيين تذكروا أن البريطانيين حكموا العراق بطريقة سافرة أو مقنّعة طوال السنوات الأربع والثلاثين التالية . فهل سيفعل الأمريكيون الشيء نفسه؟ تساءل العراقيون ، وراقبوا الشركات الأمريكية وهي تحصل على عقود بقيمة بلايين من الدولارات ، مما نقل بعضها من حافة الإفلاس إلى الربح الوفير . وفي «الاستقلال» هل سيتخلى الأمريكيون عن احتكارهم الاقتصادي التام؟ والعراق معروف بأنه يمتلك أكبر حوض من النفط غير المستغل في العالم . هل تستطيع أمريكا أن ترحل؟ ألا تفضل الدول الغربية أن تعمل ، كما فعلت في الماضي ، مع حكومات غير ديمقراطية وغير شعبية لا تتحدى هذه المصالح؟ وهل كان العام ٢٠٠٤ مجرد فترة فاصلة بين ديكتاتورين؟

كثيرون كانوا يعتقدون أنه من الأفضل أن لا يسألوا هذا السؤال . وبمساعدة مبعوث الأمم المتحدة ، حلّت الحكومة العراقية المؤقتة في الأول من حزيران محل مجلس الحكم العراقي . وسلطة الحكومة الجديدة ستكون محدودة للغاية – وقواتها المسلحة ستبقى تحت السيطرة العملياتية للعسكريين الأمريكيين ، وشؤونها المالية ستكون بالمثل تحت إشراف الموظفين الرسميين الأمريكيين . وليس لديها سلطة لتعديل المراسيم التي يصدرها الاحتلال الأمريكي أو حتى لتشريع قوانين جديدة ، ووزراؤها الرئيسيون يعملون تحت سيطرة لجان من الأمريكيين الذين تعينهم دولتهم . وكما أفاد أحد الوزراء الجدد ، حيدر العبادي ، أن وزارته ستديرها بالفعل لجنة اختار أعضاؤها المستر بريمر ، وستبقى قائمة لمدة خمس سنوات في كل مرة قابلة للتجديد ، وهي مدة أطول بكثير من مدة ولاية الحكومة العراقية المؤقتة . واستطرد الوزير العبادي

قائلاً إنه يعتبر نقل السيادة بلا معنى ، «فهذه حكومة عراقية ذات سيادة لا تستطيع أن تغير القوانين أو تتخذ القرارات ، ونحن لم نكسب شيئا[1]» .

حدث في هذه الفترة أن الحاكم الإداري الأمريكي المطلق بول بريمر غادر البلاد متسللاً سراً على متن طائرة عسكرية نفاثة . ماذا ترك وراءه؟ تأمل الجواب التالي :

«أسبوعاً بعد اسبوع وشهراً بعد شهر
لزمن طويل قادم ستكون لدينا استمرارية
لهذه الحرب البائسة ، المدمرة المتقطعة ،
/ الموسومة بالتأكيد من حين إلى آخر بكوارث ثانوية /
وموت الجنود والعملاء ، ومن المحتمل تماماً أن
ترافق ذلك واقعة ما غاية في الخطورة . . .
وإنه لشيء استثنائي أن تنجح الإدارة المدنية
في مثل هذا الوقت القصير في استعداء
البلاد بأسرها إلى الحد الذي جعل العرب يدفنون الثارات التي
تناقلوها طوال قرون ، وأن تعمل العشائر
الشيعية والسنّية معاً يداً بيد» .

مما يدعو إلى مزيد من الاهتمام بهذه الفقرة هو أنها قد كتبت قبل ٨٥ سنة ، في ٣١ آب ١٩٢٠ . وكاتبها هو وينستون تشرتشل إلى رئيس الوزراء البريطاني في ذلك الحين ديفيد لويد جورج . وقد وجد أنها تنطوي على تنبؤ قاتم إلى الحد الذي دفعه إلى الامتناع عن إرسالها . أي رسالة كان سيرسلها اليوم؟ سأتحول إلى هذا السؤال بأن أسأل : بلد من سيكون العراق؟

---

(١) كإشارة إلى مدى قلة احترام الوزير ، أفاد أن أحداً من الولايات المتحدة لم يجد حتى الوقت لكي يزورني ويخبرني عن مرسوم بريمر . وعلم بعزله هو بالذات من الصحافة . وحول هذه الحادثة ، انظر يوجي دريزين وكريستوفر كوبر – التخندق : قبضة الولايات المتحدة المحكمة ستقود العراق حتى بعد نقل السيادة – الوول ستريت جورنال – ١٣ أيار ٢٠٠٤ . – المؤلف .

الفصل السادس
عراق مَنْ؟

بلاد من سيكون العراق؟ هل سيكون أمريكياً في شكل من أشكال الهيمنة تحت زعيم عراقي نصبته أمريكا؟ هل سيكون شيعياً تحت حكومة إسلامية أصولية؟ أم سيكون سنياً عربياً بنظام علماني؟ هل سيكون «ديمقراطية موجهة» (اقرأ : ديكتاتورية) تحت لجنة عسكرية مسيطرة أو رجل قوي واحد؟ أم سيكون دولة خاضعة إلى «انتداب» الأمم المتحدة؟ هل سيكون دولة واحدة ، أم دولتين ، أم ثلاث دول؟ جميع هذه الاحتمالات واردة وممكنة . والاحتمال الذي سيكون الأقوى هو ذلك الذي سيقرره الامتداد الطويل للتجربة العراقية والتيارات التي بدأت تتشكل تحت الاحتلال الأمريكي . ومحاولة التصور المسبق هي الغاية المتوخاة من هذا الجزء الختامي من كتابنا «لكي نفهم العراق» .

معظم هذا الكتاب قد خُصص لإيضاح الامتداد الطويل للتجربة وشرحه . ويظهر السجل أن العراق كان طوال آلاف من السنين على نحو متقطع مجتمعاً غنياً وخلاقاً . إلاّ أن فوراته من الازدهار الحضاري العظيم كانت تتخللها كوارث مأساوية - غزوات أجنبية ، ودمار هائل ، ونظم استبدادية محلية ، وانفجارات سكانية ، وأوبئة ، ومجاعات ، وإبادة الجنس . والشعب العراقي أظهر مرونة فائقة وقدرة متميزة على التكيف في مواجهة الشدائد . ولكنه في القرن الماضي تعرّض إلى الانهاك والاستنزاف بفعل هجمات شرسة وعنيفة وشبه متواصلة . والعراق اليوم هو مجتمع جريح .

على امتداد تاريخه الطويل ، الفئة الوحيدة التي نادراً ما «امتلكت» العراق كانت شعبه . ولعل آخر مرة امتلك العراقيون فيها بلادهم كانت قبل آلاف السنين في العصر العبيدي . ومنذ ذلك الحين ، عندما يضغط عليهم تهديد اقتصادي أو اجتماعي أو عسكري ، كانوا في كثير من الأحيان يسعون إلى السلامة بأقصر الطرق .

وفي الماضي ، الديكتاتوريون ، و«اللوكالات» ، والرجال الأقوياء ، و«ملوك الكل» ، و«الزعماء الأوحدون» ، و«الرؤساء الأبطال» ، كانوا ، في كثير من الأحيان يقودونهم عبر هذه الطرق الأقصر . وكانت قيادتهم تنطوي على ثمن فادح . وعلى الرغم من أن الدروب التي سلكوها نادراً ما قادت إلى الأمان والازدهار ، إلاّ أنه كان من الصعب أن يقاوم المرء دعواتهم . وفي كثير من الأحيان ، لم يكن لدى العراقيين خيار آخر . وكانوا ينقادون إلى ما يريده الرجال الأقوياء المحليون أو الغزاة الأجانب ، إما بالإكراه ، أو بالتخويف ، أو بالخداع والتضليل . ومع مرور الزمن ، أصبح الانقياد عادة . ولذلك ، فإن التحدي الذي يواجهه العراقيون اليوم هو أن يكسروا قيود تاريخهم وسلاسله ، وأن يعثروا على صوتهم ، وأن ينتزعوا حقهم في حكم أنفسهم بما يحقق أفضل مصالحهم . هل يستطيعون أن يفعلوا ذلك؟ إنهم شعب صلب وفخور ومقتدر . ولكن الخيار ليس لهم وحدهم تماماً .

ينبغي أن نقيّم أعمال سلطات الاحتلال في سياق هذا التحدي . هل شجعت تلك السلطات التحرك نحو مجتمع عراقي يكون منفتحاً وحراً ومسالماً ، أم أن سياساتها عملت ضد هذه الأهداف؟ هل سينظر المراقبون بعد جيل من الآن إلى هذه الفترة باعتبارها مجرد لحظة فاصلة بين ديكتاتورين؟ قبل تقييم تأثير البرنامج الأمريكي في العراق ذاته ، دعونا نتأمل ما أصبح نمطاً للفعل الأمريكي طوال نصف القرن الماضي من الزمان . السياسة الأمريكية التي رسمتها المجموعة ذات التوجه الأيديولوجي التي تدعى بالمحافظين الجدد أعلنت أن أمريكا لديها الحق ، بل الواجب ، أن تفرض طريقتها في الحياة على العالم أجمع . والعراق كان خطوة أولى في حملة «صليبية» جديدة ستنجز بحرب جوهرها أن تشن بلا نهاية وفي كل مكان . إذا كانت إعادة تشكيل العالم على صورة أمريكا ومثالها هي بالفعل غاية المحافظين الجدد ، وإذا كانت الحرب هي الوسيلة التي ينوون اعتمادها ، فإنهم تلاميذ خائبون في دراسة التاريخ . والنتائج التي تمخضت عن التدخلات العسكرية الأمريكية تبين نمطاً مختلفاً . غواتيمالا في ١٩٥٤ ، و١٩٦٦ ، و١٩٧٢ . ولبنان في ١٩٥٨ . وفيتنام الجنوبية في ستينيات القرن الماضي . وجمهورية الكونغو في ١٩٦٧ . ونيكاراغوا في ١٩٧٨ و١٩٨٢ . وغرينادا في ١٩٨٣ . وباناما في ١٩٨٩ . والعراق في ١٩٩١ . والصومال في ١٩٩٣ . وأفغانستان في ٢٠٠١ . وهذا عدد قليل نذكره على سبيل المثال لا الحصر من ٣٥ تدخلاً أمريكياً منذ الحرب العالمية الثانية . ماذا حدث؟ لم

تتحول دول غير ديمقراطية إلى دول ديمقراطية . فالديمقراطية إما أن تقوم على الصعيد الداخلي بالجهد الذاتي ، أو أنها لن تقوم على الإطلاق ، ولم يحدث أبداً أن فرضت على حكومات أو شعوب بأسنّة الحراب .

إلاّ أن الحراب تستطيع أن تقلل من احتمال إقامة مجتمع أكثر تمثيلاً ، وأكثر تسامحاً ، وأكثر مسالمة ، أو حتى أن تجعله مستحيلاً . تأمل أيضاً ذلك الجانب من السجل . المخابرات الأمريكية (بمساعدة المخابرات البريطانية) دبرت في ١٩٥٣ انقلاباً للإطاحة بالحكومة الإيرانية المنتخبة ديمقراطياً التي كان يرأسها محمد مصدق . وهذا العمل أعاد إلى السلطة حكومة الشاه غير الديمقراطية ، وأدى إلى الثورة التي أقامت الحكومة الأصولية الإسلامية ، وخفضت من قيمة «صورة» أمريكا بوصفها راعية الديمقراطية .

الصلة الوثيقة لهذا الموضوع بالعراق يأتي على نحو ثنائي : الأول : جزئياً بسببه ، لأن الشرق أوسطيين يعتقدون أنه عندما تستهجن الولايات المتحدة أية حكومة ، فإنها تتحرك «لزعزعة استقرارها» . والثاني ، أن النجاح الابتدائي للانقلاب في إيران ، الذي يعتبر مثالاً كلاسيكياً للجاسوسية ، أرسى أسلوباً تابعته أمريكا في عدة دول أخرى[(١)] ، بما في ذلك العراق . في العراق ، قدمت المخابرات الأمريكية مساعدة استخباراتية خفية إلى البعث العراقي لكي تتيح له أن يستولي على السلطة في انقلاب . وكما في إيران ، أقدمت الولايات المتحدة على هذه الخطوة لأنها لم تكن على اتفاق مع حكومة قائمة . وحكومة الجنرال عبد الكريم قاسم لم تكن حكومة ديمقراطية ، ولكن ، كما في إيران ، فإن الانقلاب بدأ عملية كانت ستؤدي إلى حكومة أسوأ بكثير من تلك التي سقطت . وكانت أمريكا شريكة ومتورطة في التطهير الدموي التالي الذي طال أعضاء في الحكومة العراقية المخلوعة . هذه الأحداث

---

(١) الرئيس الأمريكي دوايت ايزنهاور ورئيس الوزراء البريطاني هارولد ماكميلان صادقا في ١٩٥٧ على خطة مشتركة بين المخابرات الأمريكية والبريطانية تقضي بتشجيع وقوع «حوادث» في داخل سوريا ، ثم تلفيق معركة حدودية كمبرر للغزو ، وبعد ذلك تتم «تصفية» قادة الحكومة السورية . وخطط الانقلاب المدير المساعد لشؤون الشرق الأوسط في المخابرات المركزية الأمريكية كيرميت روزفلت الذي كان قبل ذلك قد خطط انقلاباً ضد مصدق في إيران . ولم يتم تنفيذه لأن الحكومتين اللتين طلب منهما أن تشتركا في العملية ، الأردن والعراق ، رفضتاه . والوثائق المتعلقة بهذه الخطة نشرتها جريدة (الغارديان) البريطانية في ٢٧ أيلول ٢٠٠٣ – المؤلف .

أقنعت العراقيين أن أمريكا ، بينما تتحدث عن الديمقراطية ، فإنها تتصرف أحياناً مثل عصابة من عصابات المافيا . وبعض العراقيين الطموحين توصلوا أيضاً إلى نتيجة مفادها أن التجسس «صحيح سياسياً» .

وما هو غير صحيح سياسياً كان معارضة رغبات الدول الكبرى . رئيس مجلس الوزراء مصدق في إيران عبث بالنفط . ورئيس الوزراء قاسم في العراق غازل الشيوعيين لفترة قصيرة . وكان عليهما أن يذهبا . وهكذا ، عندما يسخر الغرباء بجنون الاضطهاد والارتياب في الشرق الأوسط ، فإن العراقيين والإيرانيين وآخرين يتحدثون عن التاريخ .

في أعقاب الانقلاب الذي فتح الطريق ، فإن صدام حسين بنى حزب البعث وأخذ السلطة . وعندما دفع بحزم إلى الاستكانة ، فإن إدارتي ريغان وبوش الأولى وجدتا سبباً يدعوهما إلى ربط الولايات المتحدة بالصداقة معه . وحتى على الرغم من أن سجل صدام حسين من الطغيان ، والتعذيب ، والذبح ، كان واضحاً بالفعل للعراقيين ، وكان معروفاً تماماً في جميع أنحاء العالم ، فإنهم أرسلوا مبعوثين رئاسيين (كان أبرزهم دونالد رامسفيلد) في زيارات نالت تغطية إعلامية واسعة ؛ لكي يؤكدوا لصدام حسين أن أمريكا تدعمه . وبالإضافة إلى هذا الدعم الدبلوماسي ، فإنهم منحوا أو أقرضوا نظامه الأموال والأسلحة ، وأمدوه بمعلومات استخبارية حساسة أتاحت له أن يهزم إيران . وعلى الرغم من تنديدهم العلني بمثل هذه التصرفات ، فإنهم سهلوا بيع المطعومات للأسلحة الكيماوية والبيولوجية إلى العراق ، بالإضافة إلى معدات صنعها – حتى عندما كانوا يعلمون أن هذه الأسلحة كانت تستخدم ضد المدنيين العراقيين . كما أنهم شجعوا الشركات أو سمحوا لها أن تبيع مكونات للأسلحة الذرية .

عند نهاية الحرب العراقية – الإيرانية في ١٩٨٨ ، لم تبد إدارة بوش أية معارضة لنية صدام حسين المعلنة «بتعديل» حدود العراق مع الكويت ، بالرغم من أن مثل هذا العمل قد ينطوي على استخدام القوة العسكرية . وعندما ذهب العراقيون إلى مسافة أبعد مما توقع المسؤولون الرسميون الأمريكيون – مما عرّض إلى الخطر ليس المبادئ الأمريكية بل المصالح الأمريكية في النفط والمال – ذهبت أمريكا إلى الحرب . وبعد ذلك ، في ١٩٩١ ، بعد أن هزمت العراق فإنها لم تمنع النظام من قمعه الوحشي لأولئك العراقيين الذين كانوا يحاولون أن يحرروا أنفسهم . وسمحت أمريكا لصدام أن

يستخدم المروحيات المسلحة ضد المتمردين الشيعة ، وسحبت قواتها إلى الوراء ، لكي تسمح لقوات الشرطة العراقية والحرس الجمهوري بالتحرك ضدهم ، ومنعت المتمردين من تسليح أنفسهم . وكنتيجة لذلك ، تعرض آلاف الشيعة إلى الذبح . والناجون يعتقدون أن الولايات المتحدة قامت بهذه الأعمال ، مهما كان الثمن بالنسبة إلى سلامة العراقيين وحريتهم ، لسبب واحد وحيد ، هو الامتداد المحتمل للنفوذ الإيراني . واعتقادهم مبرر جزئياً بالمقابلة مع السياسة الأمريكية في الشمال الكردي ، حيث أن التدخل الإيراني لم يكن خطراً . وفي تلك المنطقة ، كانت الولايات المتحدة تحمي الحركات المتمردة . وفي ذلك الحين ، مستخدمة كردستان كقاعدة آمنة ، بدأت أمريكا تدعم خفية الفئات الإرهابية التي تحاول إسقاط نظام البعث واغتيال قادته . وعلى هذا النحو ، سواء أكانت أمريكا تساعد على إقامة نظام صدام حسين ، أو تحميه ضد عدو خارجي ، أو تحاول أن تدمره ، فإنها ساندت أشخاصاً وحركات استبدادية ، وتخريبية ، وغير قانونية . ومثل هذه «الحيلة القذرة» ليست هي الطريق نحو ما ينبغي أن يكون الهدف الأمريكي البعيد المدى ، الذي يتمثل في إقامة حكومة عراقية مسالمة ومتسامحة إلى حد معقول ، وشعبية . إذاً ، ما الذي عملته أمريكا منذ غزوها للعراق في ٢٠٠٣ ، وكيف ينبغي الحكم على هذه الأعمال في ضوء أهدافها ومصالحها؟

الوقائع والتوجيهات إلى حد هذا اليوم ليست مشجعة . في أعقاب تدمير طغيان صدام حسين ، أقنعت أمريكا الكثيرين من العراقيين ، وربما معظمهم ، أنها لم تحتل بلادهم لكي تنشر الحرية ، بل لكي تمارس شكلاً جديداً أكثر تطوراً من أشكال الإمبريالية . وفي استطلاع مستقل للرأي العام أُجري مؤخراً ، ظهر أن اثنين بالمائة فقط من العراقيين العرب ينظرون إلى الولايات المتحدة بوصفها قوة تحرير . وهذا النمط من الإنكار أثار لديهم حماسة وطنية تؤجج اليوم ثورة وطنية . وأثناء صيف عام ٢٠٠٤ ، شن المتمردون ستين هجوماً على الأقل يومياً على القوات الأمريكية . وأفاد ضابط من فرقة الفرسان الأولى «إذا مكثنا في أي مكان أكثر من خمس دقائق ، فإنهم يبدأون في إطلاق النار علينا» . وإذا تذكر الأمريكيون تاريخهم الخاص ، فإنهم لا يمكن أن يصابوا بالدهشة . وأفاد رجل الدولة البريطاني أدموند بيرك ، وهو يكتب عن تمرد آخر ، الثورة الأمريكية ، في ١٧٧٥ أن «استخدام القوة لوحدها ليس إلاّ إجراءً (مؤقتاً) ؛ لأنها قد تتغلب للحظة ، ولكنها لا تزيل ضرورة التغلب مرة أخرى . ولا

يمكن أن تحكم أمة تحتاج إلى إخضاعها على نحو متكرر دائم» . ومع الكلفة العالية للثورة العراقية في الأرواح والممتلكات - أكثر من ١٥٠٠ من الوفيات المعلنة (والبعض يقدرها بعدة أضعاف ذلك الرقم) ، وحوالي عشرة آلاف أسير عراقي محجوزون في السجون الأمريكية - فإنها قد كوّنت ثلاثة اتجاهات جديدة ستشكل مستقبل العراق .

الاتجاه الأول من هذه الاتجاهات هو ذلك الذي يعارض الاحتلال الأجنبي ، ودفع الشيعة والسنّة من العراقيين العرب مؤقتاً على الأقل ، إلى الوقوف معاً في قضية مشتركة . وقد حدث ذلك لفترة وجيزة في معارضتهم للبريطانيين سنة ١٩٢٠ ، كما أفاد وزير المستعمرات في ذلك الحين ونستون تشرتشل . ولكنهم تحت الاحتلال البريطاني سرعان ما تفرق شملهم وانقسم جمعهم وانشطروا إلى كتلتين . وحصل السنّة على معاملة تفضيلية ، في حين أُبعد الشيعة عن المشاركة في الحكومة . وفي ٢٠٠٤ تعمل الطائفتان معاً ، أو على الأقل إحداهما بموازاة الأخرى ، ضد عدو مشترك ، هو الاحتلال الأمريكي . ومن المفهوم ، أن الأكراد وقفوا بمعزل عن هذا الصراع الوطني .

على الرغم من انقساماتهم الداخلية المريرة في كثير من الأحيان ، فإن الأكراد كانوا يطمحون إلى إقامة دولتهم المستقلة منذ وقت طويل . وقد اقتربوا من تحقيق ذلك الحلم خلال السنوات الأخيرة . واستفادوا من المساعدات المالية ومن التجارة مع تركيا وإيران وسوريا والعراق العربي ، فحققوا تقدماً اقتصادياً كبيراً ، مما شجع الأغلبية الساحقة منهم على توقيع عريضة يطالبون فيها بالتصويت على الاستقلال ، ودفعهم إلى تزيين بلادهم بالأعلام الكردية . وقاموا الآن بما يقرب من توحيد المنظمات المختلفة التي قاتلت في حرب العصابات ضد البعث ، وفي كثير من الأحيان بعضهم ضد بعض في ما يشبه جيشاً وطيساً أصبح القوة العسكرية الوحيدة الفعّالة المؤلفة من السكان الأصليين في العراق . ومشاركتهم في الشكل الذي سيكون عليه العراق كائناً ما كان ، سيكون دائماً جزئياً . ولكن التهديدات التي يخافونها من تركيا وإيران ستجعل ارتباطهم بالعراق الخيار الأقل سوءاً من خياراتهم الحالية . وهاتان القوتان المختلفتان تماماً - المعارضة العربية للحكم الأجنبي والخشية الكردية من التدخل الأجنبي - سيدفع العراق إلى البقاء متماسكاً كدولة واحدة ، وعلى الرغم من أنه ربما سيضطر إلى الاعتراف بانقساماته العميقة بالتحول إلى دولة فيدرالية . والذهاب إلى

أبعد من الفيدرالية في محاولة ترمي إلى «بلقنة» العراق ، ستحوله إلى بلقان شرقي هيجان عاصف من الجموعات الأثنية . وفي الحد الأدنى ، فإن تفتيت العراق إلى أجزاء سيؤدي إلى هجرة الجماعات الأثنية والجاليات الدينية من منطقة إلى أخرى ، ويعطل الخدمات العامة ، ويعيق التجارة ، ويسبب خروقات هائلة لحقوق الإنسان ، ويمنع التئام الجروح التي تخلفت عن عهد صدام .

الثورات الوطنية ضد الاحتلال الأجنبي ، وهي الاتجاه الثاني ، تجرد الطرفين من القشرة الرقيقة للمدة التي تفصلنا جميعاً عما هو حيواني . وإذا امتد الصراع مدة طويلة كافية ، فإن اكتساب عادة العنف سيؤدي بالمجتمع إلى الانفصام عن مفاصله . وستتوقف مؤسساته الأساسية عن أداء وظائفها ، وسيتخاصم الجيران ، وحتى العوائل ستفقد اللحمة والوئام ، وستمحى الخطوط المعتادة التي تفصل السلوك المقبول عن الجريمة . عند ذاك ستتداعى مجتمعات بكاملها . وهو ماحدث في الجزائر في خمسينيات وستينيات القرن الماضي ، في فيتنام في الستينيات وأوائل السبعينيات . وهو ما يحدث اليوم في أفغانستان وكشمير والشيشان ، وفي دزينة من البلدان الأخرى . ويتوقف ما يمكن أن يحدث للعراقيين على مدى استمرار الصراع ومدى العنف الذي سيرافقه . ولكن العراقيين يمكن جرهم إلى حضيض من التفكك الاجتماعي بما يجعلهم يتخلون عن محاولة الوصول إلى مجتمع عادل ومسالم . وفي مثل هذه الظروف ، يصبح ظهور «أمراء الحرب» ، (كما في أفغانستان) أو ديكتاتور جديد «شبح صدام» أمراً حتمياً . وعلى هذا النحو ، فإن حقيقة التدخل العسكري الأمريكي في العراق ذاتها تؤكد اتجاهات أعلنت أمريكا أنها ترغب في تفاديها .

الاتجاه الثالث هو السعي الأمريكي بحثاً عن الأمن . ومن المفهوم ، أن سلطة الاحتلال وضعت هدفها في الأمن على نحو مضاد للهدف العراقي في «السيادة» . (معظم العراقيين الذين تحدثت معهم لا يعتبرون الحكومة المؤقتة الحالية أكثر من مجرد ألعوبة أمريكية ، ولا يعتقدون أنها قد حلت مسألة السيادة) . وأولئك العراقيون الذين يطمحون إلى السيادة الكاملة لديهم الاستعداد أن يخلقوا وضعاً من الغياب التام للأمن . ويفعلون ذلك ليس فقط بالقتال ضد القوات الأمريكية – ونطاق هذه الحرب هو أكثر بكثير مما يدرك معظم المراقبين الخارجيين – ولكن أيضاً بأن يجعلوا جهود إعادة البناء صعبة أو مستحيلة ، أو حتى بتدمير البنية التحتية التي يعتمد عليها صالحهم المستقبلي العام . وكلما كانت التدابير القمعية المستخدمة للوصول إلى

«الأمن» أقوى وأشد ، كان الصراع للحصول على السيادة أشرس وأكثر استماتة . وكلما كان هذا الصراع أشرس وأكثر استماتة ، ابتعد المجتمع عن مقتضيات التمدن والأمن واقترب من البربرية والفوضى . وهذه هي الحقيقة ، لأنه في الصراع السري ، يكون الناجون على أغلب الظن وأقوى الاحتمال هم هؤلاء الذين خضعوا إلى تنظيم شديد الانضباط تحت قيادة موحدة وسلطة استبدادية .

الذين يدافعون عن سلطات الاحتلال يشيرون إلى حقيقة كون أن تلك السلطات تحركت تصاعدياً بكل السرعة المدروسة من «مجلس سياسي» ، إلى «مجلس حكم» ، إلى «سلطة مؤقتة» ، وصولاً إلى جمعية معينة صادقت على تثبيت وزراء نصبهم الأمريكيون ، ويوجههم «مستشارون» أمريكيون ، ويعملون تحت إمرة رئيس وزراء اختاره الأمريكيون . صحيح ، أن المرحلة الأخيرة من العملية قد تركت مساحات كبيرة من الحكومة «محجوزة» في أياد أمريكية ، تماماً كما فعل البريطانيون في العشرينيات . وسيحتفظ الأمريكيون بالسيطرة المطلقة على الشؤون العسكرية ، والمالية ، والخارجية ، والنفط ، وسيستمرون في التأثير على اختيار الموظفين الكبار . ولكن ، على الورق ، يمتلك السجل قدراً من الترابط المنطقي ، وحتى قدراً من الصحة . ولكنه يعاني من عيبين مميتين : الأول ، أنه كان من صنع أجانب للعراقيين . والثاني ، أنه بدأ من «الأعلى إلى الأسفل» بدلاً من أن يبدأ من «الأسفل إلى الأعلى» .

خذ أولاً الموظفين العراقيين في الحكومة التي نصبها الأمريكيون . بتوظيفهم عملائهم في المناصب الرسمية ، دون أي اعتبار لمكانتهم بين العراقيين ، سارت سلطة الاحتلال على الطريق الذي اختطه البريطانيون في العشرينيات[1] . ومثل فيصل ، الذي نصبه البريطانيون ملكاً على العراق في ذلك الوقت ، كذلك أحمد الجلبي وإياد العلاوي كانا عميلين أمريكيين مدفوعي الأجر . فيصل لم يعش أبداً في العراق . والجلبي كان خارج البلاد منذ الثالثة عشرة من عمره . وإياد علاوي كان في الخارج

---

(١) شتان ما بين نوعيات الرجال الذين اختارهم الاحتلال البريطاني في ١٩٢٠ ونوعيات الرجال الذين اعتمدهم الاحتلال الأمريكي في ٢٠٠٣ . لا وجه للمقارنة . والفرق فرق الثرى عن الثريا والأرض عن السماء . والعراقيون أعلم وأدرى . فبأي وجه نقارن رجالاً من أمثال نوري باشا السعيد وجعفر باشا العسكري وياسين باشا الهاشمي وسواهم ، بأعضاء مجلس الحكم أو وزراء الحكومة الانتقالية معاً - المترجم .

طوال حوالي خمسة وثلاثين عاماً ، وهي مدة أطول من تلك التي قضاها معظم العراقيين على قيد الحياة . وكان الجلبي المرشح المفضل لدى زمرة المحافظين الجدد التي رسمت سياسة إدارة بوش نحو العراق . وقد تخلوا عنه على مضض وبتردد . وفعلوا ذلك ليس عندما أصبحت خلفيته المالية الإجرامية معروفة - وهذه كانت معروفة قبل الغزو بوقت طويل - ولا عندما لم يستطع أن يقدم كشف حساب للمبلغ الذي يزيد على ثلاثين مليون دولار دفعتها له الحكومة الأمريكية ، ولا عندما أصبح معروفاً أنه يستغل صلاته بالسلطات الأمريكية للإثراء غير المشروع ، على حساب عراقيين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم . ولكنهم تخلوا عنه عندما أصبح موضعاً للشك بأنه نقل إلى إيران معلومات عن جهود أمريكا في فك الشيفرات ، وأنه متورط في تزييف النقود .

وبعد إزاحته من الطريق ، ركزت سلطة الاحتلال اهتمامها على إياد علاوي . وبحسب استطلاعات مستقلة للرأي العام في نيسان ٢٠٠٤ ، فإنه كان الشخصية الأكثر تعرضاً للكره في مجلس الحكم . وهو مسؤول بعثي كبير سابق ، قيل إنه كان «منفذاً . . . للعمليات القذرة . . . ويداه ملطختان بالدماء» عمل في جهاز صدام الاستخباري السري الخاص الذي يتولى قمع الخصوم والمعارضين والأعداء . (بحسب ضابط سابق كبير حسن الاطلاع في المخابرات الأمريكية) . وقطع صلته بصدام وانقلب عليه في السبعينيات ، وحاول العملاء العراقيون أن يغتالوه . وبعد ذلك ، وطلباً للثأر ، عمل انطلاقاً من لندن وكردستان ، وقاد مجموعة تمولها المخابرات الأمريكية وتدعى «الوفاق» ، في هجمات إرهابية معادية لصدام ، وقيل إن إحداها كانت تفجير باص مدرسي كان مليئاً بالأطفال . وكان يبدو في الظاهر أن مبعوث الأمم المتحدة وزير الخارجية الجزائري السابق الأخضر الإبراهيمي هو الذي اختاره رئيساً للوزراء . ولكن سلطة الاحتلال هي التي اختارته في الواقع . وسرعان ما أظهر نزوعه إلى الاستبداد والعنف ، كما هو معروف عن شخصيته على نطاق واسع . وبعد ستة أيام من تسلمه منصبه ، وبموافقة أمريكا أو قبولها ، سن قانوناً يمنحه صلاحيات فرض حظر التجول ، وتقييد السفر الداخلي والخارجي ، وحظر الجماعات التي يرى أنها تحرض على القلاقل ، وإصدار الأوامر باعتقال الأشخاص الذين يشتبه بأنهم يخلون بالأمن . والقانون الجديد منحه أيضاً سلطة تخوله أن يتجاوز الحكومة المدنية بتعيين «قادة» يتولون إدارة المناطق التي تتعرض إلى الاضطراب أو تعاني من اختلال

الأمن . (وذلك يعني ، من الناحية العملية ، العراق بأسره) . وصرح بما يلي : «إننا لن نسمح لبعض الناس أن يختبئوا وراء شعار حرية الصحافة والإعلام» . وفي الخامس من أيلول ٢٠٠٤ ، أمر ضباط الأمن التابعين له بمداهمة مكتب بغداد للفضائية الأكثر تأثيراً في انتقاده ، شبكة الجزيرة ، وأغلقه «إلى أمد غير محدود» . ولعل مالا يقل عن ذلك في الأهمية ، أنه أقام «مجلساً أعلى (جديداً) للنفط والغاز» ، وجعل نفسه رئيساً له ، للمصادقة على العقود المبرمة مع الشركات الأجنبية لاستغلال مصادر الطاقة العراقية . (أي ، السيطرة على القطاع الأهم في الاقتصاد العراقي) . وباختصار ، أقام سلطة مركزية على مستوى شبيه بالنمط الذي اختطه صدام .

وفي الوقت نفسه ، أعلن عن تنفيذ اجراءات صارمة لمحاربة الجريمة ، وقام بجولة على مراكز الشرطة في بغداد لكي يؤكد لشرطة النظام البعثي ، الذين أعيدوا إلى مناصبهم ، بأن الحكومة ستدعمهم ضد الاتهامات بالتعذيب أو قتل السجناء خارج اختصاص القضاء والقانون . ولكي يقنع الشرطة بأنه جاد في نيته ممارسة هذه السلطة ، أفاد صحفي استرالي محترم[١] أن رئيس الوزراء قد تولى شخصياً إعدام ستة سجناء مقيدي الأيدي ومعصوبي الأعين .

تأمل ، من الناحية الثانية ، التوكيد على ما تمارسه سلطة الاحتلال في الجانب المؤسساتي . فهي تكاد تركز اهتمامها على ما يمكن أن يسمى بالهياكل العليا للحكمة ، المجالس المختلفة والوزارة ، وتقنين هذه المؤسسات في الدستور الذي كتبته أمريكا (القانون الإداري الانتقالي) الذي انتهى سريانه الآن . وإذا كانت الإدارة الأمريكية تحاول أن تشيع الاستقرار في عراق جديد ، حر بدرجة معقولة ، وديمقراطي بدرجة معقولة ، فإنها بدأت في الطرف الخاطئ من العملية . وما كان ينبغي على مسؤولي الاحتلال أن يتذكروه من تجربتهم الخاصة في وطنهم أمريكا ، هو أن ما يجعل الحكومة التمثيلية تعمل ليست الدساتير المكتوبة ، ولا المناصب العالية ، ولا

---

(١) بول ماكيو في جريدة (سيدني مورننج هيرالد) بتاريخ ١٧ تموز سنة ٢٠٠٤ . واستند تقريره إلى مقابلات مع شهود كانوا موافقين على ما نقلوه . ولكن مكتب السيد علاوي أصدر تكذيباً للخبر المذكور . وفي حين أن هذا الخبر قد يكون غير صحيح ، فإن القصة قد جرى تصديقها على نطاق واسع في العراق ، لأنها تتفق مع ما يعرف عن طبيعة ماضي السيد علاوي بوصفه عميلاً للشرطة السرية في عهد صدام حسين – المؤلف .

حتى موظفين بدرجة معقولة من النزاهة ، بل مشاركة المواطنين في الجذور الشعبية الأساسية ، فقط عندما يتولى الناس مسؤولية التعامل مع مشاكلهم اليومية العادية ، عندئذ فقط يكتسبون العادات والمهارات والثقة بالنفس ، التي تجعلهم قادرين على ضبط الحكومة أو توجيهها .

على الرغم من أن سلطات الاحتلال لا تعلم بذلك ، إلاّ أن العراق لديه تقاليد قديمة في الحكم المحلي الذاتي . فالأحياء (جمع حي أي المناطق المتجاورة في المدينة - المترجم) ، كانت تقليدياً تعتني بالكنائس والمعابد والمساجد التي تضمها . والحراس المحليون كانوا يحافظون على «الأمن» المحلي ، بينما كان الوجهاء يمنعون المنازعات الشديدة من الخروج عن السيطرة والتحول إلى العنف باستخدام أساليب الوساطة والإجماع . وفي بداية «العراق البريطاني» ، كانت الأحياء تتولى إدارة مدارسها ومستشفياتها . صحيح ، أن هذه المهمات لم تنفذ على الوجه الأكمل ، لأن المجتمع كان في ذلك الوقت فقيراً ولم ينل حظاً كافياً من التعليم . وهكذا ، في السعي إلى التحديث والسيطرة ، قام البريطانيون باستبدال هذه الديمقراطية «التشاركية» البدائية بنظام مركزي . وازداد التوجه إلى المركزية والتحديث في الثلاثينات ، وأصبح القاعدة في «العراق الثوري» . على الرغم من المركزية ، ولكن بسبب التحديث ، الرجال والنساء والمهنيون - المهندسون ، والمحامون والمعلمون ، والأطباء - أقاموا شكلاً أكثر تطوراً من السياسة التشاركية بتأليف النقابات المهنية[1] لمراقبة أعمال الحكومة والتأثير في سياساتها . وتحت ديكتاتورية البعث ، تعرضت هذه المنظمات جزئياً إلى التحريف ، وأصبحت تدار من أشخاص معينين ، لكي تخدم أغراض صدام حسين . وعلى هذا النحو ، أصيبت التقاليد المهنية والمحلية معاً بالشلل ، ولكنها لم تمت . وسلطات الاحتلال أعارتها القليل من الاهتمام أو أهملتها وتجاهلتها تماماً . ولكن من هذه الجذور الذاوية يمكن أن تنمو مشاركة شعبية حقيقية في الحكومة ، بل إنها ربما كانت الأمل الوحيد لشكل ما من أشكال الحكومة العراقية التمثيلية . الديمقراطية ينبغي أن تتجذر ، كما كان سيقول توماس جفرسون ، في «تربة» العراق إذا كانت ستنمو . نباتات قليلة ، والديمقراطية ليست منها ، تنمو من الأعلى إلى الأسفل . وما

---

(١) نقابتا عمال النفط وعمال السكك الحديدية كانتا من أنشط وأبرز وأهم النقابات المهنية في العهد الملكي - المترجم .

فعلته السلطات الأمريكية هو بالتالي على العكس تماماً مما احتاجه العراقيون . فهي قد ركزت اهتمامها على الحكام وأهملت الشعب . وكتابة الدساتير وتعيين المجالس سيثبت أنها ممارسة عقيمة في «العراق الأمريكي» كما كانت في «العراق البريطاني» .

ولعل ما هو حتى أهم ، هو البحث عن «الأمن» ، وهو العمل الذي يتطلب من الحكومة أن تستخدم ثروتها وسلطتها وعنايتها في إعادة تشكيل أدوات القمع التي طالما أضرت بالعراق في الماضي على نحو متكرر وخطير . والمثال الأوضح على ذلك ، بالطبع ، هو استمرارية سجون صدام . فاستخدام سجن أبو غريب السيء الصيت ، وبإحساس متبلد إلى حد لا يصدق - حتى تحت الجنرال غارنر على تعيين المسؤول الأعلى عن التعذيب والقتل في (أبو غريب) والسجون الأخرى ، هي كلها ، في عبارة مخففة وملطفة ، أعمال إجرامية فاضحة وشنيعة . وبعد أن أدانت أمريكا ، عن حق ، التعديات المريعة التي ارتكبها نظام صدام على الحقوق المدنية ، انفضحت «على أعلى المستويات» بوصفها قد تغاضت عن التعذيب وربما أقرته . وأثناء وجودهم في المعتقلات والسجون الأمريكية ، أصيب عدد غير معلن من السجناء بعاهات دائمة ، وتعرض ٢٥ سجيناً على الأقل إلى القتل في عامي ٢٠٠٣ و٢٠٠٤ . وعندما نشرت المعلومات والصور[1] عن التعذيب ، والممارسات الجنسية المهينة المرتكبة بالإكراه ،

---

(١) الممارسات الأمريكية الوحشية في أبو غريب والسجون الأخرى التي تديرها أمريكا ، أدانها الصليب الأحمر الدولي بوصفها «خرقاً لاتفاقية جنيف . . . التي قالت إدارة بوش إنها تعتبرها «تنطبق بالكامل» على جميع السجناء الذين تحتجزهم الولايات المتحدة في العراق» . وبعد أن أفاد الصليب الأحمر الدولي أن بعض السجناء أبقوا مخفيين عنه ، أصدر تقريره في تشرين الأول ٢٠٠٣ ، حوالي تسعة شهور «قبل» أن تتكشف الفضيحة . وبعد التحقيق الذي قام به في ربيع ٢٠٠٤ ، وصف الميجر جنرال في الجيش الأمريكي انطونيو تاجوبا تلك الممارسات أيضاً بوصفها «تخرق القانون الدولي وعقيدة الجيش الأمريكي» . وهذا التقريران بالإضافة إلى تقارير أخرى قام بتحليلها في مقال ممتاز سيمون ل . هيرش في النيويوركر بتاريخ ١٠ أيار ٢٠٠٥ . وصدر الإعلان بأن التعذيب يعتبر عملاً غير قانوني بموجب اتفاقية الأمم المتحدة ضد التعذيب لسنة ١٩٩٤ . ولكن موظفي وزارة العدل الأمريكية أفادوا في ٢٠٠٢ أن الرئيس يستطيع أن يقر استخدام «شريحة عريضة من أساليب الاستجواب القسرية» دون أن يخرق المعاهدات الدولية أو القانون الفيدرالي الذي ==

وأشكال أخرى من الإذلال ، سأل العراقيون أنفسهم فيما إذا كان هنالك فرق نوعي بين ديكتاتورية صدام وديمقراطية أمريكا . واستنتج كثيرون أن «الديمقراطية» كما تمارسها أمريكا ، لا تختلف في شيء عن الطغيان ، كما مارسه صدام . وهكذا أصبح مفهوم الديمقراطية ذاته ضحية أيضاً .

السياسة الأمريكية حول الجيش العراقي لم تكن أقل رعونة ، ولكنها كانت أيضاً في النهاية أشد خطورة . في البداية ، اقترح الجنرال غارنر تحويل تلك الوحدات العسكرية العراقية ، التي كانت ما تزال قائمة بعد الغزو ، إلى كتائب عمل . وكانت تستطيع القيام بأعمال الصيانة الضرورية والطارئة ، وتدفع لها أجوراً لقاء عملها . وكانت تلك فكرة معقولة ، ولعلها كانت ستنجح في التطبيق . ولكن بديل غارنر ، بول بريمر قلب هذه السياسة رأساً على عقب ، وقام بتسريح مئات الآلاف من الجنود ، وأرسلهم إلى بيوتهم ، متجهمين ، وجياعاً ، ومفلسين - ولكن سمح لهم بأن يحتفظوا بأسلحتهم . وانحرف كثيرون منهم إلى الجريمة ، بدافع اليأس أو الطمع . وآخرون أصبحوا القبضة المسلحة للحركة الوطنية المعادية للأمريكيين . ودفع الجيش الأمريكي ثمن سياسة بريمر بالدم . كانت هذه السياسة سيئة ، ولكن ما هو أسوأ بكثير (على الأقل بالنسبة إلى مستقبل العراق) بوشر بتنفيذه أيضاً في ذلك الوقت . وفي مواجهة الانتقادات حول ازدياد عدد الإصابات الأمريكية ، التي فاقت الألف قتيل وربما وصلت إلى عشرة آلاف جريح ، قررت السلطات الأمريكية إعادة بناء القوات العراقية

= يمنع التعذيب . وأن «الأساليب القسرية» ينبغي أن لا تعتبر «تعذيباً» إلاّ إذا سببت «فشل الأعضاء في عملها ، أو أحدثت ضرراً في الوظائف الجسدية أو حتى الموت» . واتخذ محامي البيت الأبيض البرتو آر . غونزاليس موقفاً مفاده أن اتفاقية جنيف لا تنطبق على أكثر من تسعة آلاف سجين محتجزين بدون توجيه أية تهمة لهم منذ أيار ٢٠٠٤ ، وبدون الحصول على استشارة قانونية ، أو فرصة محاكمة غير منحازة ، أو الحماية من المعاملة غير الإنسانية . ولا وجود حتى للتوثيق الرسمي الذي يبين هوياتهم . وكثيرون منهم خطفوا في بلدان ثالثة . وآخرون نقلوا إلى أماكن كان يعرف أنهم سيتعرضون فيها إلى التعذيب أو «الاختفاء» . وبعضهم «استجوبهم» متعاقدون أهليون كان بعضهم ليسوا من المواطنين الأمريكيين ، ولا أحد منهم كان خاضعاً إلى سيطرة قانونية . وكما أفاد المدير التنفيذي للهيومن رايتس ووچ ، «حكمت المحاكم أن معظم هذه الأساليب هي أساليب غير قانونية» - المؤلف .

العسكرية والأمنية . وكان الهدف هو استخدام «العراقيين المدجنين» في محاربة العراقيين «الجامحين» . وهذه السياسة هي سياسة اعتمدها البريطانيون ، وسارت عليها الديكتاتوريات العراقية المتعاقبة ، بما في ذلك ديكتاتورية صدام حسين . واعتقد الأمريكيون أن ما يستطيع أن «يفعله» الجنود العراقيون بطريقة أكثر فعالية من الأمريكيين كان مواجهة الوطنيين العراقيين . ولا عجب أنهم أظهروا رغبة قليلة في مقاتلة إخوانهم في الوطن . وكثيرون منهم هربوا من الخدمة ، وآخرون رفضوا أن يقاتلوا ، وبعضهم انضم إلى المتمردين[١] . وكما تبين تواريخ «العراق البريطاني» و«العراق الثوري» ، لا يمكن للحكومة المدنية أن تبقى في الوجود لمدة طويلة عندما ينكفئ العسكريون إلى الداخل وينغمسون في الشؤون السياسية المحلية . وفي السنوات منذ أواسط الثلاثينات ، أطاح العسكريون العراقيون بالحكومات ، بما يزيد على اثنتي عشرة مرة . والتأكيد على أدوات القمع على هذا النحو أدى إلى ازدياد الاحتمال بالارتداد إلى الديكتاتورية .

ما يحفظ انضباط العسكريين في الدول الديمقراطية هو وجود المؤسسات والعادات التي تحقق التوازن . وفي أمريكا ، تتناولهم الصحافة بالتحقيق ، ويعملون تحت السيطرة المدنية وتحت سلطة القانون . وفي العراق ، لا شيء من هذه الضوابط يسري مفعوله بالكامل . وشنت سلطة الاحتلال حملة عملاقة عامة نشيطة ، وقيدت حصول المراسلين الأجانب على الأنباء ، وحاولت أن تحمي نفسها من الانتقادات بالتهجم على المنتقدين . وفي طليعة هؤلاء المنتقدين كانت شبكة الإذاعة والتلفزيون «الجزيرة» التي يقع مقرها في قطر . وتعرّض مراسلوها المحليين إلى المضايقة ، ودوهمت مكاتبها ، حتى إن وزير الخارجية الأمريكي حاول أن يقنع حاكم قطر بإغلاق المحطة .

وكما سيوافق معظم الأمريكيين ، فإن نظاماً قضائياً قوياً يقع في مركز القلب من

(١) بعد أن تسلم منصبه ، عاد رئيس الوزراء علاوي إلى ممارسة بريطانية قديمة . وفي حين أن البريطانيين استخدموا جنوداً من «الليفي» الآثوريين ، المسيحيين لمحاربة العرب ، فإن علاوي يستخدم الأكراد لكي يهاجم المدن المتمردة مثل النجف وكربلاء وبعقوبة والفلوجة . ومثل هذه التحركات تؤدي بالطبع إلى تعميق الانقسامات بين الجاليات العراقية . والخطوة البريطانية كانت استفزازاً أدى إلى مذبحة تعرض لها الآثوريون في ١٩٣٢ . وسننتظر لنرى مدى ما ستفعله أعمال علاوي لاستثارة الاستياء بين الأكراد والعرب . ولكنها بالتأكيد ستقود إلى مثل ذلك الاستياء – المؤلف .

الحكومة الديمقراطية . ويستتبع ذلك أن السياسة الأمريكية ينبغي على الأقل أن لا تُضعف الخطوات في العراق نحو تحقيق حكم القانون . ومع ذلك ، فإن هذا بالضبط هو ما حدث . والخلاصة ، أن جيشاً عراقياً أعيد تشكيله هو في أفضل الأحوال غير ذي بال ، وهو ، في أسوأ الأحوال ، يمكن أن يكون الطريق إلى السلطة الذي يسلكه شبح صدام حسين .

أعلنت إدارة بوش في ٢٠٠١ أن خشيتها من أن العراق يمتلك أسلحة دمار شامل ، ومن أن العراق يدعم الإرهاب الدولي ، كانت هي الأسباب التي دعتها إلى الغزو . ولكننا نعلم الآن ، أن العراق لم يكن يمتلك مثل تلك الأسلحة ، وأنه لم يكن يدعم حركة القاعدة التي يقودها أسامة بن لادن . لذلك تأمل النتائج التي نجمت عن سياسة إدارة بوش في العراق .

الأحداث التي وقعت طوال نصف قرن من العصر النووي تبين لنا نمطاً معيناً . فالحكومات التي انتاب الخوف إحداها من الأخرى ، سعت إلى امتلاك أسلحة الدمار الشامل التي كانت تعتبرها حيوية بالنسبة إلى أمنها . وامتلكتها أمريكا للاستخدام ضد اليابان ، وللردع ضد روسيا . والروسيون امتلكوها لكي يردوا على أمريكا . وقرر الصينيون أنه ينبغي عليهم أن يمتلكوها للتوازن مع روسيا . والهنود ، ضد الصينيين . والباكستانيون ، ضد الهنود . والإسرائيليون ، ضد العرب . والآن الإيرانيون والكوريون الشماليون ، ضد أمريكا . ومن سخرية القدر ، أن الغزو الأمريكي ، الذي حدث في الظاهر لكي يمنع انتشار أسلحة الدمار الشامل ، قد يقود الأمم الأخرى – وربما في آخر المطاف العراق عندما يعاد تشكيله ويستعيد عافيته – إلى امتلاك أسلحة الدمار الشامل بدافع الخوف من أمريكا .

إدارة بوش اتهمت أيضاً نظام صدام حسين بأنه كان متحالفاً مع إرهابيي أسامة بن لادن . وكل «دليل» على هذه التهمة ثبت أنه كان زائفاً . وفضلاً عن ذلك ، فإن الارتباط كان دائماً غير محتمل أصلاً وأساساً . وعلى الرغم من كل مساوئه ، فإن نظام صدام كان ملتزماً بالعلمانية ، في حين أن أسامة بن لادن وأتباعه كانوا يعتنقون الأصولية الدينية . وتعبيراً عن هذا التضاد والتعارض ، كان بن لادن قد أدان صدام بأقذع لعنة في قاموسه بوصف هذا الأخير «كافراً» . ولكن ، في أعقاب الغزو الأمريكي ، كما أفاد الرئيس المصري حسني مبارك عن حق ، أوجدت إدارة بوش مائة بن لادن ، وجعلت بعض العراقيين على الأقل يتقبلونهم .

وهكذا، كانت السياسة الأمريكية سياسة تهزم ذاتها، سواء من ناحية «توازن الرعب الحساس» (كما عبر أحد جهابذة المحافظين الجدد عن المسألة النووية)، أو من ناحية الإرهاب (الذي هو القضية المركزية في إدارة الرئيس بوش). فهي قد أوجدت شكلاً جديداً تماماً من عدم الاستقرار للعراق، وأدت إلى زيادة كبيرة في الخطر على أمريكا.

كثير من العراقيين يعتقدون أن الدافع الحقيقي للغزو الأمريكي لم يكن الخوف من الخطر العراقي على أمريكا، بل كان الطمع في نفطه. والحقيقة هي أن الحصول على نفط الشرق الأوسط بشروط مقبولة، كان دائماً يصنف بوصفه واحداً من ثلاثة أو أربعة أهداف أساسية توختها الإدارات الأمريكية الديمقراطية والجمهورية معاً طوال نصف القرن الماضي. ومن المؤكد أن السعي إلى ذلك الهدف سيتواصل ويستمر. وسواء كانت أم لم تكن السيطرة على الإنتاج العراقي هي السبب الرئيسي للغزو، فما لا يمكن إنكاره هو أن السياسة الأمريكية حول النفط ستلعب دوراً أساسياً في تشكيل العراق. ولذلك، كل معنى بالعراق - أو بالاقتصاد الغربي - يحتاج أن يدرك بالضبط ما هو كنه هذا الموضوع الذي هو على المحك هنا.

انطلاقاً من تجاربهم الطويلة مع المستغلين الأجانب، ومن ذكرياتهم القريبة عن «سياسة النفط الخام»، يصبح من المؤكد تقريباً أن العراقيين سيردون على «الإمبريالية النفطية» بعداء لا ينتهي. ومن هنا، فإن ما يحدث للنفط يترك تأثيراً بارزاً على الأمن في العراق. والآن فإن الهجمات على خطوط الأنابيب ومنشآت أخرى تؤشر الاستعداد العراقي لاستخدام ما أسماه الإسرائيليون، بالنسبة إلى أنفسهم، بـ «الخيار الشمشوني»: أي الاستعداد لتقويض المعبد بدلاً من خسارته للعدو.

إذا عرّضت أمريكا حرية حصولها على النفط العراقي إلى الخطر بالسعي إلى الهيمنة على الإنتاج العراقي، فإنها تكون قد أساءت فهم حقيقة هذه المسألة. فالحصول على النفط بشروط مقبولة لا يعني الشيء نفسه كامتلاك الحقول التي ينتج منها أو السيطرة عليها، ولا يعني حتى تحديد شروط البيع. وكما كانت شركة النفط العربية الأمريكية (أرامكو) قد أدركت منذ الثلاثينات، وكما كان ينبغي على الولايات المتحدة وبريطانيا أن تتعلما في وقت لاحق من أزمة «عبادان» الإيرانية في الخمسينات، فإن جنسية العلم الذي يرفرف على الحقل ليست مسألة في الدرجة القصوى من الأهمية. المهم هو أن النفط يتدفق وأن السعر مقبول. وهذان الهدفان لا يتعارضان بالضرورة مع الكرامة الوطنية العراقية. وفي عالم اليوم، يمكن تحقيق هذين الهدفين على نحو شبه

تلقائي . فالشعب الذي يقع الحقل في وطنه ، والأطراف التي تشتري النفط ، لهما معاً مصلحة مشتركة في استمرار تدفق النفط . فذلك الشعب لا يكسب أي عائد إذا لم يبع نفطه ، وإذا قام بتسعير نفطه فوق مستوى الأسعار السائدة في السوق العالمي ، فإن المشترين يستطيعون أن يبحثوا عن حاجاتهم في أي مكان آخر . وهكذا ، في النفط كما في أية سلعة أخرى ، يمارس السوق نوعاً من التنظيم الذاتي الأوتوماتيكي إلى حد بعيد . وحيثما تعطلت آلية السوق هذه في الماضي ، فإن ذلك قد حدث حيثما وجد احتكار . وشركة النفط العراقية (IPC) استخدمت احتكارها لتحديد السعر وحجم الانتاج معاً . وتحت الاحتلال ، فإن آلية السوق قد منعت من العمل . وعلى الرغم من التزام إدارة بوش المعلن بالسوق الحرة ، فإن سلطة الاحتلال باعت النفط العراقي بسعر أقل من الأسعار العالمية إلى شركات النفط البريطانية والأمريكية ، بأوامر أصدرتها تلك السلطة . وشعوراً منهم أنهم يتعرضون إلى الاستغلال ، وأن النفط هو الذي يجعل الأمريكيين يبقون في العراق ، ليس لدى العراقيين إلاّ القليل الذي يفعلونه لمعارضة تلك السياسة ، باستثناء القيام بالأعمال التخريبية . وهو ما يفعله المتمردون الآن . وعندما يرحل الأمريكيون ، ستتوقف هذه الأعمال . وعند ذلك ، من المفترض أن النفط سيتدفق بحرية تحت ظروف السوق العالمي .

عدا الحصول عليه ، لدى أمريكا مصلحة أخرى في النفط العراقي . فمما لا خلاف عليه أنها تود أن تبعد النفط العراقي عن الدول المصدرة الأخرى . وتحقيق هذا الهدف سيؤدي إلى إضعاف منظمة الدول المنتجة للنفط (الأوبك) ، ويقلل من اعتماد أمريكا على نفط المملكة العربية السعودية وروسيا . وإذا استمرت أمريكا في السيطرة على النفط العراقي ، وهو الأرخص إنتاجاً في العالم ، فإنها تستطيع إلى حد ما أن تسيطر على الأسعار العالمية . ولكي تحقق أمريكا هذه الأهداف ، فإنها ترغب في زيادة الإنتاج من حوالي مليوني برميل يومياً في تشرين الثاني ٢٠٠٤ ، إلى ثمانية ملايين برميل يومياً في غضون عقد من الزمان . إلاّ أن الوصول إلى هذا الهدف يتطلب استثماراً هائلاً في رؤوس الأموال . وهذا ، بدوره ، سيعتمد جزئياً على انتهاء التمرد ، ولكن حتى لو تحقق شطر من ذلك الهدف ، فإنه سيضمن الطاقة التي يعتمد عليها الاقتصاد الغربي . ولذلك ، تكون المردودات عالية على قدر المجازفات . ومحاولة تحقيق هذه الأهداف من خلال الاحتكار أو السيطرة الإمبريالية ، ستنطوي على مفارقة تاريخية ، وستكون غير ضرورية ، وستؤدي إلى هزيمة ذاتية . والحكماء من

رجال الدولة سيختارون البديل الذي يقوم على التفاعل الحر لقوى السوق مع بقاء الإنتاج تحت السيادة العراقية .

مبيعات النفط تحقق ، بالطبع ، أموالاً طائلة . والسيطرة على وجوه إنفاق هذه الأموال هي مسألة حساسة بقدر حساسية السيطرة على وسائل الإنتاج . والتعليمات التي أصدرتها سلطة الاحتلال منحتها هذه السيطرة . وسلطة الاحتلال استخدمت هذه السيطرة بلا حدود ولا ضوابط . وحوالي ١٩ بليون دولار من العشرين بليون دولار التي انفقت حتى الآن على عقود إعادة إعمار ما دمرته الحرب وتشغيل الإدارة ، كانت قد جاءت من عائدات النفط العراقي ، ومن الحسابات المصرفية العراقية المجمدة . وسيتم اقتراض أموال إضافية أخرى مقابل المبيعات المستقبلية للنفط العراقي . وفي هذه الأثناء ، لم تنفق السلطة إلاّ حوالي ٣ بالمائة من مبلغ الـ ١٨ .٤ بليون بالنقد الأمريكي ، الذي خصصه الكونغرس في خريف عام ٢٠٠٣ . والأموال المتوافرة من هذين المصدرين ، كان قد جرى دفعها إلى الشركات الأمريكية بالدرجة الأولى ، مثل بيكتل وفلور وهاليبرتون ، دون اللجوء إلى إجراءات العطاء المعهودة . وجزء على الأقل من هذه التدابير تكتنفها الشبهات من الناحية القانونية ، ومشروعيتها قابلة للمساءلة . وقرار الأمم المتحدة الذي صدر في أيار ٢٠٠٣ ، الذي كان عمل سلطات الاحتلال محكوماً به ، يتطلب منها أن تقيم مجلساً دولياً يتولى الإشراف على عملها . وامتنعت سلطة الاحتلال عن تنفيذ هذا البند طوال ما يقرب من عام كامل ، ثم حلت نفسها قبل صدور التقرير النهائي عن تدقيق الحسابات وفحصها . وأتاحت هذه الظروف مجالاً لظهور حالات شاذة غير نظامية ومخالفة للقواعد والأصول . وكان أهونها وأيسرها في الكشف ما يتعلق منها باستيفاء أثمان باهظة وأسعار فادحة تزيد على تلك الحقيقة . وهناك شركة فرعية تابعة إلى هاليبرتون ، وهي الشركة التي كان ديك تشيني نائب الرئيس مديراً تنفيذياً بارزاً فيها ، ثبت أنها قد استوفت من وزارة الدفاع ٣٦٪ زيادة على الوجبات التي قدمتها بالفعل (اعترفت الشركة في وقت لاحق أنها استوفت الأسعار بزيادة ١٩٪) . وأفادت مجلة (تايم) في الأول من تشرين الثاني ٢٠٠٤ بأن الشركة استوفت أيضاً من الحكومة تكاليف الوقود ، بزيادة في الأسعار تصل إلى ٦١ مليون دولار . وهناك تحقيق يجري الآن مع هاليبرتون وشركات أخرى حول استيفائها مستحقاتها بأسعار مفرطة . والمهم ، على المدى الطويل ، في هذه الوقائع هو ليس الهدر الفعلي للأموال ، بل هو تقديم مثال عن أسلوب متبع للعراقيين .

وسيكون من الصعب إقناع رجال الأعمال العراقيين بجدوى النزاهة ، عندما يضع عرّابوهم الأمريكيون أمثلة من هذا النوع في الاحتيال أمام أعينهم .

في مركز القلب من السياسة التي أعلنها المستر بريمر وخططتها إدارة بوش ، كانت هناك سلسلة من التدابير الفاعلة التي أنهت تأميم الاقتصاد العراقي . وهذه السياسة لم تكن موجهة فقط نحو خصخصة المشروعات المملوكة للدولة ، بل أيضاً أباحت للمصالح الأجنبية أن تشتريها مائة بالمائة . وكانت سياسة إدارة بوش تنوي أن تجعل العراق مثالاً نموذجياً لما أسمته مجلة الإيكونوميست (البريطانية) «الحلم الرأسمالي» . والواقع ، أن النية لم تكن أن يكون العراق مجرد ذلك فقط ، بل أن يكون ، بتعبير أوضح وأدق ، مثالاً نموذجياً «للحلم الرأسمالي الأجنبي» . وكان ينبغي على إدارة بوش والمستر بريمر أن يعلما أن المراسيم التي أقامت النظام الجديد كانت غير قانونية . بموجب قرار مجلس الأمن المرقم ١٤٨٣ ، يعترف ذلك القرار بسلطة الاحتلال ولكنه طالبها بأن تحترم المواثيق القائمة الملزمة دولياً ، التي وضعت بالتحديد لكي تمنع سلطات الاحتلال من «نهب» اقتصاديات الدول التي هزمتها في الحرب . وحتى أعضاء الجماعة التي عينها المستر بريمر ، وجميع أعضاء مجلس الحكم ، ووزراء الحكومة المؤقتة ، الذين كانوا قد اختيروا مؤخراً ، رفضوا تنفيذ المراسيم الأمريكية ، كما أن الشركات الأمريكية ، التي عملت بنصيحة قانونية ، رفضت أن تشارك في ذلك . ولكن صورة الإنصاف الأمريكي الذي يحترم القانون تعرضت إلى ضرر فادح .

هذه الخطوات اكتسبت المزيد من التفاقم بالسياسات الرامية إلى إزالة القيود المفروضة على استيراد البضائع . وهذه المراسيم وضعت موضع التنفيذ عندما كان الاقتصاد العراقي متصدعاً بالحرب ، فعرضت بالتالي رجال الأعمال والمنتجين المحليين إلى خسارة كبرى ؛ لأنهم ببساطة لم يكونوا قادرين ، مع افتقارهم في كثير من الأحيان إلى المكائن والمواد الخام ، على التنافس مع البضائع المستوردة الرخيصة الأثمان ، وعدم قدرتهم بالتالي على لعب أي دور أساسي في معالجة بطالة سبعة من كل عشرة عمال . وكما كتبت نعومي كلاين[1] ، «كانت إصلاحات بريمر هي العامل الأوحد الأكبر الذي أدى إلى ظهور المقاومة المسلحة» في العراق .

---

(١) كان مقالها الممتاز قد نشر في عدد أيلول ٢٠٠٤ من مجلة هاربر بعنوان (بغداد في العام صفر : نهب العراق في السعي إلى تحقيق يوتوبيا المحافظين الجدد) – المؤلف .

بالإضافة إلى ذلك ، حصلت الشركة الأمريكية على حقوق الأولوية في جميع عقود إعادة الإعمار الرئيسية ، بينما استبعدت معظم الشركات العراقية والشركات من الدول الأخرى . وفي كانون الأول ٢٠٠٣ أصدر بول وولفوويتز نائب وزير الدفاع أمراً بمنع الشركات الفرنسية والألمانية والروسية ، وحتى الكندية التي عارضت دولها الغزو الأمريكي . وهذه الخطوات قوبلت باستياء شديد في العراق ، تماماً مثلما كانت خطوات مماثلة قد قوبلت باستياء شديد أيضاً في أمريكا عندما عامل البريطانيون بطريقة مشابهة المستوطنين الأمريكيين عشية الثورة الأمريكية .

السياسة العسكرية في العراق هي أيضاً تعيد إلى الذهن ما حدث في الثورة الأمريكية . ولو كانت سلطات الاحتلال وعت جيداً دروس تاريخها الأمريكي ، لعلمت أن وجود القوات البريطانية في بوسطن هو الشرارة التي أشعلت الثورة الأمريكية . الجنود والمدنيون هم جيران سيئون ، ولكن سلطات الاحتلال ، إلى صيف ٢٠٠٤ ، وضعت قوات أمريكية في المدن العراقية . وكان من المحتوم ، أن تتراكم الحوادث الصغيرة ، وسوء الفهم الناشئ من عدم قدرة الطرفين أن يتكلم أحدهما بلغة الآخر . والخوف ، أن تؤدي كلها إلى انتشار العداء . وأخيراً ، القيادة العليا أدركت الخطر وسحبت إلى حد كبير قواتها من المدن إلى قواعد ريفية . وحتى لو لم تستأنف الهجوم ضد المدن في أيلول وتشرين الأول ، فإن ذلك لم يكن ليكون إلاّ مجرد حل جزئي للمشكلة . وتلك القواعد أقيمت فوق أو بجوار مواقع أثرية عراقية في كثير من الأحيان ، وبذلك عرضت إلى الخطر كنوزاً حضارية لا تقدر بثمن أو دمرتها بالفعل .

وفضلاً عن ذلك ، فإن العراقيين ، في ذاكرتهم الأقرب ، ينظرون إلى تلك القواعد بوصفها تهديدات تمس شرفهم الوطني واستقلالهم السياسي وأمنهم القومي . وقد أعطتهم أمريكا أسباباً وجيهة عديدة تدعوهم إلى هذا الاعتقاد ، لأنها لم تخف خططها الرامية إلى استخدام العراق كقاعدة عسكرية رئيسية في الشرق الأوسط . ومن الفوائد التي قدمتها لهذه السياسة ، أنها تزيل وضعاً مثيراً للحساسية من العلاقات السعودية - الأمريكية . ولكن العراقيين ، الذين يتذكرون كيف قامت بريطانيا بانسحاب مماثل إلى قواعد نائية[1] في العراق ، واحتفظت بها بعد مرور مدة طويلة على «الاستقلال» ، واستخدمتها في الإطاحة بحكومة عراقية (حكومة الدفاع

---

(١) في الشعيبة بالبصرة والحبانية في الأنبار - المترجم .

الوطني برئاسة رشيد عالي الكيلاني في سنة ١٩٤١ - المترجم) ، سوف ينظرون إلى القواعد الأمريكية ، كما نظروا من قبل إلى القواعد البريطانية ، بوصفها سيوفاً مسلطة على رقابهم . والأسوأ من ذلك ، بعد أن استمعوا إلى ما يعلنه المحافظون الجدد في واشنطن ، فإن القوميين سيرون أن العراق يتحول إلى محطة متقدمة وقاعدة أمامية للسياستين الأمريكية والإسرائيلية معاً .

السياسة الإسرائيلية هي الآن عامل مهم في السياسة العراقية ، وستبقى كذلك في المستقبل تحت أية حكومة منظورة . والعراقيون يرون إسرائيل بوصفها محطة كولونيالية غريبة أمامية في الشرق الأوسط . ويساورهم الخوف بالأخص من حكومة الليكود الحالية التي يرأسها أرييل شارون . ولكنهم ، منذ الثلاثينات ، كانوا يعتقدون أن بريطانيا أوجدت إسرائيل لكي تهدد العالم العربي وترغمه على الإذعان للمطالب البريطانية . ومثل بقية العرب ، يتخوف العراقيون من البرنامج الإسرائيلي المكثف في صنع اسلحة الدمار الشامل وإنتاجها . وأخيراً ، فإنهم يتعاطفون مع الفلسطينيين الذين فقدوا وطنهم ، والذين يعيشون اليوم تحت ما يعترف الإسرائيليون بأنه احتلال وحشي . هذه الأحداث وما يرى العراقيون أنه اليد الخفية للإمبريالية الغربية وراءها ، تشكل مستودعاً من الغضب والإحباط والشعور بالعار . ويعود السبب جزئياً في هذه الكراهية العارمة ، التي يبديها العراقيون للولايات المتحدة ، إلى أن العراقيين يلقون بالمسؤولية في كل ذلك على الولايات المتحدة ، ويرون أنها القوة العسكرية والمالية التي تدعم ما يعتبرونه السياسة الإسرائيلية العدوانية . ويستتبع ذلك أن الولايات المتحدة ، إذا عقدت مؤتمراً إقليمياً تسوده أجواء الإنصاف والعدالة للتباحث في المظالم ، والسعي إلى التوصل إلى حلول في معالجة هذا الجرح المتقيح ، فإن تأثيرات ذلك في العراق ستكون درامية ومثيرة .

لدى أمريكا اليوم خياران في العراق : أن تبقى أو أن ترحل . و«مواصلة السير على النهج نفسه» ، إذا استخدمنا العبارة التي يكررها جورج بوش ، هو الخيار الذي تراهن عليه إدارته ، وأنا أكتب هذه السطور . أمريكا تواصل محاولتها إحلال الأمن بالقتال ضد المتمردين ، وتواصل سيطرتها على صناعة النفط والقطاعات الرئيسية الأخرى في الاقتصاد العراقي . وهي تتولى «توجيه» معظم الجوانب الأخرى في الحكومة من خلال «مفتشين عامين» تقوم هي بتعيينهم ، والشركات الأمريكية تواصل هيمنتها على الاقتصاد . وتبقى نسبة البطالة عالية لأن مؤسسات الأعمال

العراقية لا تستطيع أن تتنافس مع السلع المستوردة رخصية الأثمان . وعند ذاك ، إذا تصرفت الحكومة بطريقة غير مقبولة ، فإن أمريكا (مثل بريطانيا في الثلاثينات والأربعينات) ربما ستقوم إما باستبدالها أو بزعزعة استقرارها ، بحيث يمكن تنصيب العراقيين «الموالين» في مقاعدها . وفي هذا المسار للأحداث ، سيحصل الجيش العراقي ، الذي تولى الأمريكيون تدريبه وتسليحه ، على سلطة غير متوازنة مع المؤسسات الأخرى . وعلى الرغم من تدريبها أو حتى بسببه ، فإن طبقة الضباط ستطمح مرة أخرى بأن تقود الأمة ، كما فعلت في الثلاثينات والخمسينات . وإذا تبعت النمط المحتمل ، فإنها ستثور ضد الأمريكيين وعملائهم المحليين . وإذا لم تفعل ذلك ، فإن الوطنيين العراقيين ، بمساعدة الجيش أو بدون مساعدته ، سيواصلون استخدام الإرهاب ، لأن ذلك سيكون السلاح الوحيد المتوافر في حوزتهم في محاولتهم إرغام أمريكا على الرحيل .

في أحسن الأحوال ، «مواصلة السير على النهج نفسه» لا يمكن أن تكون إلاّ تدبيراً مؤقتاً ، لأن أمريكا ستضطر في آخر المطاف إلى الرحيل . ولكن أثناء الفترة التي ستبقى فيها ، ربما حتى السنوات الخمس القادمة ، فإنني أخمن أن ثلاثين أو أربعين ألفاً آخرين من العراقيين سيموتون أو يقتلون ، بينما ستخسر القوات المسلحة الأمريكية ربما خمسة آلاف قتيل وعشرين ألف مصاب بجروح بليغة . أما الكلفة النقدية فستصل إلى مئات البلايين . تأمل ما تعنيه هذه الأرقام . شعر الأمريكيون بهول المصيبة عندما قتل حوالي ٣٣٠٠ شخص في هجمات شنها إرهابيو القاعدة على مركز التجارة العالمي في ١١ أيلول ٢٠٠١ . وخسر العراق حتى الآن (في الوقت الذي أكتب فيه هذه السطور) حوالي مائة ألف قتيل أثناء الغزو الأمريكي والاحتلال الذي أعقبه[١] . وهذا يعني بالقياس الشامل أن كل عراقي على الإطلاق لديه بين الأموات والد ، أو طفل ، أو زوجة ، أو عم أو خال ، أو صديق ، أو زميل ، أو جار ، أو ربما هؤلاء جميعاً . أكثر من نصف الأموات كانوا من النساء والأطفال . وبالقياس النسبي ، فإن هذا الرقم يعادل خسارة في المجتمع الأمريكي الأكبر كثيراً تصل إلى مليون شخص .

(١) كما أفاد الدكتور لس روبرتس وفريق البحث التابع لمركز دراسات الطوارئ الدولية واللاجئين بجامعة جون هوبكنز ، في تقرير نشرته المجلة الطبية «اللانسيت» – المؤلف .

والمهم ليس فقط عدد الإصابات التي حدثت بالفعل ، ذلك أن حروب «التحرير الوطني» قد علمتنا أنها تحيل إلى وحوش أولئك الذين يخرجون منها سالمين . ومن المحتوم أن تتميز مثل هذه الحروب بالشراسة . والطرفان يرتكبان الفظائع . وفي الحملات التي يشنونها لكي يطردوا الذين يعتبرونهم معتدين وظالمين ، يسعى الإرهابيون/ المقاتلون ، من أجل الحرية ، إلى إرغام أعدائهم على الاقتناع بأن البقاء مكلف إلى حد غير مقبول . وطالما أنهم لا يمتلكون الوسائل التي تتيح لهم أن يشنوا حرباً تقليدية ، فإنهم يختارون في كثير من الأحيان أهدافاً تؤدي إلى نتائج مثيرة ومؤلمة . الإيرلنديون ، واليهود ، والفيتناميون ، والتاميل ، والشيشان ، والباسك ، والإرهابيون الآخرون / المقاتلون من أجل الحرية فجروا الفنادق ، والسينمات ، والملاهي الليلية ، و/ أو مجمعات الشقق السكنية . وكلما كان العمل أكثر إثارة ودراماتيكية ، كلما كان ذلك أفضل للحملات التي يشنونها . ومن هنا ، قامت الايرغون (الايرغون زفاي ليومي - منظمة المقاتلين من أجل حرية إسرائيل - منظمة صهيونية متطرفة في عهد الانتداب البريطاني في فلسطين - المترجم) بتفجير فندق الملك داود في القدس سنة ١٩٤٦ . وقامت IRA (منظمة الجيش الجمهوري الإيرلندي السري - المترجم) بتفجير فندق برايتن (بريطانيا) سنة ١٩٨٤ . وقامت مجموعة عراقية بتفجير مقر الأمم المتحدة في بغداد سنة ٢٠٠٣ . وقام الشيشان بتفجير مجمع شقق سكنية في موسكو سنة ٢٠٠٣ . بينما قامت مجموعة فلسطينية بتفجير فندق يتردد عليه الإسرائيليون في طابا (مصر) سنة ٢٠٠٤ .

وفي مواجهة هذا التحدي ، يكون رد سلطات الاحتلال في كثير من الأحيان مكثفاً عنيفاً قاسياً بهجمات تستهدف الإرهابيين ، ولكنها بالضرورة الحتمية تقتل أيضاً عدداً كبيراً من المدنيين . ولكي تنتزع المعلومات من أولئك الذين تفلح في القبض عليهم ، فإنها تمارس التعذيب أيضاً في كثير من الأحيان . التعذيب لم يبدأ في سجن أبو غريب ، فهو متأصل في حرب العصابات . وهناك عبارتان من الحرب الفرنسية - الجزائرية في الخمسينات والستينات ترويان القصة بالكامل ، وما تزالان صحيحتين إلى اليوم «التعذيب هو بالنسبة إلى حرب العصابات مثل المدفع الرشاش بالنسبة إلى الحرب العالمية الأولى» ، و«التعذيب هو سرطان الديمقراطية» . حرب العصابات والحرب المضادة للتمرد يفسدان بالضرورة الحتمية القضايا ذاتها التي يقاتل من أجلها الجنود والمتمردون . وما يكاد يكون أسوأ ، حتى مع «الاندحار» الناجم عن

الاستنزاف لطرف و«الانتصار» المصحوب بنشوة الغرور للطرف الثاني، أن تلك الحروب تترك وراءها نوعاً من الفوضى التي تؤدي إلى تفريخ أمراء الحرب، ومجرمي العصابات، وقطاع الطرق والسفاكين والقبضايات، كما يبدو اليوم واضحاً في الشيشان وأفغانستان. وما تزال الجزائر، بعد نصف قرن، لم تتعاف من صدمة حرب تحريرها الوطني ضد فرنسا. وكلما استغرقت الحرب في العراق مدة أطول، كانت أكثر انطباقاً عليها تلك العبارة التي نسبها المؤرخ الروماني تاسيتوس إلى معاصره قائد البريطونيين (أحد الشعوب التي سكنت بريطانيا قبل الغزوات الإنكلو ساكسونية - المترجم) في حرب العصابات، الذي أفاد أن الرومان «ينشرون الخراب والدمار، ويسمون ذلك سلاماً».

بمواصلة تنفيذ هذه السياسة، نستطيع أن نتأكد من شيئين: الأول، أن العراق سيتعرض إلى معاناة هائلة، وأن المجتمع الذي سيبقى سيكون مجروحاً مشوهاً، وأقل احتمالاً بكثير مما هو الآن في قدرته على تحقيق مستقبل حر بشكل معقول ومسالم. والثاني، أن المجتمع الأمريكي على الصعيد الداخلي، سيكون غاضباً مثبطاً وأقل ديمقراطية مما هو عليه اليوم، بينما سيكون على الصعيد الدولي قد خسر الكثير من قوته الأخلاقية التي كانت رصيده الأثمن والأفعل، طوال تاريخه، منذ أن بدأ بإعلان وثيقة الاستقلال. بكل معنى من المعاني، وبالنسبة إلى العراقيين والأمريكيين معاً، سيكون البقاء (الأمريكي في العراق)، كما قيل ذات يوم عن الحرب النووية، شيئاً غير مقبول.

البديل، الرحيل عن العراق، ليس سياسة واحدة، ولكنه يعرض نوعين مختلفين تماماً من السلوك. أحدهما يمكن أن يسمى «الفتنمة». في فيتنام، سعت أمريكا إلى تسليم الحرب إلى حكومة الجنوب وجيشه، ولم يدم أي منهما طويلاً. وبما أن أياً منهما لم يكن موجوداً في عراق ما بعد صدام، كان لابد من إقامة حكومة وجيش لكي تحصل أمريكا على خيار تنفيذ هذه السياسة. وكما كنت قد كتبت؛ فإن عدداً قليلاً فقط من المراقبين يعتقدون أن أياً منهما سيبقى قائماً بعد الانسحاب الأمريكي. وأفضل ما يمكن أن تكسبه أمريكا إذا امتدت العملية سنوات عدة، هو الحصول على ورقة تين لكي تغطي الهزيمة. والأسوأ، في حالة وقوع انهيار سريع، سيكون انسحاباً ذليلاً مجللاً بالخزي والعار، كما حدث في فيتنام.

الشكل الأفضل «للخروج»، النوع الثاني من السلوك، ينطوي على الاختيار

وليس الاضطرار . الوقت رصيد مخرّب ، وكلما استغرق تأجيل الاختيار وقتاً أطول ، كلما أصبح ذلك الاختيار أصعب . والخطوات التي يتطلبها تنفيذ هذه السياسة لا تحتاج أن تكون درامية ومثيرة ، ولكن العملية تحتاج إلى التأكيد . وعلى هذا النحو ، يمكن للخطوات الأولى أن تكون لفظية ليس غير . وينبغي على أمريكا أن تعلن أولاً ، بطريقة واضحة لا تقبل التأويل ، أنها ستتخلى عن إغلاقها للاقتصاد العراقي ، وستتوقف عن إنفاق الإيرادات العراقية كما تهوى وتشاء ، وستسمح للإنتاج العراقي من النفط أن تتحكم فيه قوى السوق وليس الاحتكار الأمريكي . وإذا أمكن أن توجد إدارة أمريكية تمتلك من الشجاعة ما امتلكه الجنرال شارل ديغول في الجزائر ، عندما اعترف أن التمرد الجزائري قد «انتصر» ودعا إلى «سلام الشجعان» ، فإن القتال سيخمد بسرعة كما خمد هناك (في الجزائر) ، وفي جميع حروب العصابات الأخرى . عند ذاك ، وعند ذاك فقط ، تصبح الانتخابات ذات معنى . وفي هذه الفترة ، سيحتاج العراق إلى قوة شرطة ولكن ليس إلى جيش . قوة متعددة الجنسيات للمحافظة على السلام تابعة للأمم المتحدة ستكون أسهل وأرخص وأسلم من إنشاء جيش عراقي ، كان في الماضي قد دمر الخطوات نحو مجتمع مدني ، ومن المحتمل أنه سيفعل ذلك مجدداً ، ومن المحتمل أنه سيمهد الطريق بالفعل لصدام حسين آخر .

وظائف «خدمية» متنوعة ينبغي عند ذاك أن تنظم ، وإذا حصل على فرصة ، يستطيع العراق أن يتولاها على الأغلب بنفسه . وسيصبح العراق في وقت قريب دولة غنية مرة أخرى ، لديه شعب موهوب ومتعلم . وخطوة بعد أخرى ، سيتمكن العراقيون أنفسهم على الأغلب من توفير العناية الصحية ، والماء العذب النقي ، والمجاري ، والطرق ، والجسور ، وخطوط الأنابيب ، وشبكات الكهرباء ، والإسكان ، إلخ . . . ، كما فعلوا في الماضي . وعندما زرت بغداد في شباط ٢٠٠٣ في عشية الغزو ، كان العراقيون الذين تحدثت معهم فخورين بأنهم أعادوا بناء جسر دجلة والمنشآت الأخرى التي دمرت في حرب ١٩٩١ . ومن المؤكد أنهم يستطيعون أن يفعلوا ذلك مرة أخرى .

عملاً بمصلحتها المثلى ، ستقوم الحكومة العراقية بتفويض شركة النفط العراقية الوطنية بمنح امتيازات عن طريق العطاء إلى شركات دولية مختلفة . وكل منها مع شركة النفط الوطنية العراقية ، ستقومان معاً ببيع النفط في السوق العالمي . وعقود إعادة الإعمار المدفوعة تكاليفها بالنقد العراقي ستمنح عن طريق العطاء ، كما كانت

تمنح تقليدياً ، ولكن لمنع الفساد المستفحل ، تخضع في بداية الأمر إلى إشراف البنك الدولي . وحيثما تكون دول أخرى قد قدمت معونات ، فإنها يمكن أن تمنح معاملة تفضيلية في الحصول على العقود ، كما يحدث في الممارسة الشائعة في كل مكان . وحيثما وجدت قروض من البنك الدولي ، فإن البنك الدولي يتبع الإجراءات الأصولية المعتادة . وإلغاء السياسات الأمريكية الراهنة ، التي تعمل ضد استعادة عافية الصناعة والتجارة العراقيتين ، سيحفز التنمية ، لأن أية حكومة تتمتع بدرجة معقولة من الذكاء ، وتحرص على مصلحتها الذاتية ، ستضع نبرة التأكيد على إعادة المؤسسات الاقتصادية العراقية إلى العمل وتشغيل العمال العراقيين . ومن الممكن تسريع تلك العملية من خلال القروض الدولية ، والاتفاقيات التجارية ، وتدابير الحماية ، بحيث تنخفض البطالة التي وصلت الآن إلى مستويات كارثية اجتماعياً . ومشاركة الجيران والأحياء المتجاورة في إدارة الشؤون الاجتماعية والمحافظة على الأمن ، هي من التقاليد القديمة في المجتمع العراقي ، وسيؤدي تفعيلها أو تأييدها إلى تحفيز تأثير جانبي ممتاز في التمثيل السياسي على مستوى الجذور الشعبية . ومع خمود القتال ، سيتحقق حد معقول من الأمن وتنتعش المؤسسات الشعبية ، والمليون عراقي ، الذين يعيشون اليوم في الخارج ، سيتشجعون للعودة إلى الوطن . على وجه الإجمال هم أذكياء ، ويمتلكون تدريباً عالياً ، وتحركهم دوافع طيبة ، ويستطيعون أن يقدموا مساهمات رئيسية في جميع جوانب الحياة العراقية .

في مثل هذا البرنامج ، ستكون هناك انتكاسات ونقائص ، ولكن يمكن للمنظمات الدولية أن تعالجها وتسدها جزئياً . والخطوات لن تكون سهلة ، وسيختلف العراقيون حول التوقيت ، والأشخاص الذين سيتولون المناصب والوظائف ، والمكافآت . إلاّ أن حصول العملية على فرصة سيتطلب شجاعة سياسية أمريكية . ولكن ، وهذا هو الموضوع المهم ، أي نهج آخر في العمل سيكون أسوأ بكثير بالنسبة إلى أمريكا والعراق معاً . سلامة المجتمع الأمريكي وعافيته ، والمجتمع العراقي أيضاً ، تتطلب تنفيذ هذه السياسة بذكاء وعزم وبأسرع ما يمكن .

UNDERSTANDING IRAQ

سياسة
POLITICS

لكي نفهم العراق

◆ الكاتب وليام آر. بولك (William R. Polk) ليس كاتبًا عاديًا ، فقد درس في جامعة أكسفورد وهارفرد حيث حصل على الدكتوراه ، وعمل أستاذًا في هارفرد بين 1955 و 1961 ، ثمّ اختاره الرئيس كنيدي عضوًا في مجلس تخطيط السياسة الأمريكيّة لوزارة الخارجيّة ، حيث كان مسؤولاً عن تخطيط السياسة الأمريكيّة لآسيا وإفريقيا ، وكان عضوًا في لجنة إدارة أزمة الصواريخ الروسيّة في كوبا. تعلّم العربيّة والتركيّة في أكسفورد ، ودرّس في جامعة بغداد والجامعة الأمريكيّة في القاهرة . ساعد في تنظيم « الدائرة المستديرة » الّتي وضعت مبادئ إنشاء الاتّحاد الأوروبيّ . استدعاه البيت الأبيض سنة 1967 ليعمل مستشارًا لرئيس مجلس الأمن القوميّ آنذاك ، مع ماك جورج بندي (McGeorge Bundy) أثناء حرب الأيّام الستّة ، ثمّ عمل أستاذًا للتاريخ في جامعة شيكاغو وأسّس هناك « مركز الدراسات الشرق أوسطيّة » ، وكما سيتّضح للقارئ ، فإنّه يعرف أدقّ التفاصيل عن العراق ، موضوع كتابنا هذا ، وله حوالي عشرة كتب أخرى .

◆ وجدت من المفيد أن أضع هذا الكتاب بين يدي القارئ العربيّ لما يحتويه على معلومات هامّة من عالم تاريخ مارس السياسة وعرف بواطن أمورها على أعلى مستوياتها . اتّصلت مباشرة مع السيّد وليام بولك وأعلمته بأنّي قرأت كتابه هذا ، وعرّفته أنّني مستشار لشؤون البترول أساسًا ، وأنّني كتبت كتبًا بالعربيّة والإنجليزيّة والألمانيّة ، وأنّني أيضًا من خرّيجي جامعات الولايات المتّحدة في الهندسة والإدارة والإدارة العليا بما في ذلك كليّة الدراسات العليا للإدارة من جامعة ه[illegible] من المفيد ترجمة كتابه هذا إلى العربيّة أجابني : لقد سرّني اقتراحك وأوافق عليه [illegible]

د. م. عبد [illegible] آلوم



ISBN:9953-36-907-0







المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، الصنايع، بناية عيد بن سالم، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي،
هاتفاكس: ٧٥١٤٣٨/٧٥٢٣٠٨